القاهرة
في عصر إسماعيل
عرفه عبده على
الدار المصرية اللبنانية
Bibliotheca Alexandrina
00093409

القاهرة

في عصر إسماعيل

الناشـــر : الـدار المصريـة اللبنانيـة
١٦ش عبد الخالق ثروت ـ القاهرة
تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥ ـ ٣٩٣٦٧٤٣
فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ ـ برقياً : دار شادو
ص . ب : ٢٠٢٢ ـ القاهرة
رقم الإيداع : ١١٥٤٨ / ٩٧
الترقيم الدولى : 1- 383 - 270 - 977
جمع وطبـع : عربية للطباعة والنشر
العنوان : ٧ ـ ١٠ شارع السلام ـ أرض اللواء ـ المهندسين
تليفون : ٣٠٣١٠٤٣ـ٣٠٣٦٠٩٨

الطبعة الأولى : رمضان ١٤١٨ هـ ـ يناير ١٩٩٨م .
تصميم الغلاف الفنان : محمد حجى .



عرفه عبده على

الناشر
الدار المصرية اللبنانية

إبنتى .. عبلة

كم تمنيت .. لو اخترعت لغة جديدة

أ مسح بها على شعرك .. وأغطيك بحنان حروفها

إليك .. يا ريحانة القلب ..

ولؤلؤتى الأكرم ..

وأيقونتى الأغلى

« لم يستطع شيء أن يمس طابعها الأصيل وجلالها المكنون ، هبة لها من حضارة الشرق ، ونفحة من سماته ، كلاهما خارج عن متناول الزمن وعواديه ، إن كنت تأنس لجمالها ـ حين ـ يطوف به خيالك ، إذ هو بالأمس فى قصره ، فى عز مجده ، فإنك أشد أنساً به وأنت تزوره اليوم ... جدران عتيقة يتراكم عليها التاريخ، آية فى فن العمارة ، فى ذروة الصدق، تصون داخلها أمثلة رائعة للجمال ، تحكى فى صمت قصة آلاف من الفنانين بناة الحضارة ، عملوا فى ورع وهم متطهرون، ثم مضوا لا يعرف أسماءهم أحد ولا يذكرهم أحد ! ...

هذه هى القاهرة ، إن كنت لا تعرفها يا أخى فاعرفها . إذن ستحبها . . ستعشقها . . ستنضم إلى زمرة عشاق لها كثيرين ، هاموا بها . . عشق بالغريزة ، بالإرث ، بالقسمة والنصيب ، والحمد لقدر لا تعلل تصاريفه . . » !

« يحيى حقى »

كلمتى للتاريخ .. !

قرن كامل من الزمان . . مضى على رحيل « إسماعيل باشا العظيم » عن دنيانا . . وقد مرت الذكرى المئوية (٢مارس ١٨٩٥) دون أن يتذكرها أحد !!

ذلك الرجل الذى كان عصره : أكثر عصورنا التاريخية الحديثة ثراءً وحركة شاملة فى جميع المجالات ، وقد وافى الخديو إسماعيل أمته ، وهى فى مفترق الطرق ، تتنازعها حضارتان : حضارتها العربية الإسلامية تنزع إليها بحكم الموروث والتقاليد . . والحضارة الغربية الحديثة ، تندفع نحوها بحكم التجديد . .

وقد آثر إسماعيل ، الإصلاح القوى العنيف ، من أجل الأخذ بأسباب الارتقاء الحضارى فى العمران والزراعة والصناعة والتجارة والتعليم والقضاء والنظم السياسية والإدارية . . وكان فى كل هذا : الروح الملهمة واليد المحركة ، فى عصر زاخر بالإنشاء والتجديد ، والبناء والتشييد . وقد يختلف المؤرخون فى إسماعيل باشا ، لكنهم يتفقون على عظمة شخصيته التى لم تعرف المستحيل . . ولا يمكن لجيل من الأجيال ـ خاصة جيل نهاية القرن العشرين ـ أن يدرك مقدار عظمة إسماعيل ، إلا إذا تصور مصر حين اعتلى إسماعيل باشا عرشها ، لكن التاريخ المنصف لا يملك إلا أن يؤدى واجب الحق ، إذا تحدث عن الذين بنوه ، وحددوا معالمه ، وكانت لهم الكلمة الأولى فى صنع وتوجيه أحداثه !

وإذا كانت معالم تاريخ مصر وآثار ملوكها ، منقوشة على جدران

القاهرة : معابدها، مقابرها ، قصورها ، أسوارها ، مساجدها ، كنائسها، شوارعها ، خططها ... على كل منها صفحة من صفحات التاريخ ، لعهد من العهود ، إلا أن « إسماعيل باشا » لم يترك هذا الأثر فحسب ، أو يدون صفحة ... بل حفظ للعصور السالفة آثارها ، ورسم للأجيال خططاً لمعالمها .

تمهيد ..

القاهرة الحديثة .. منذ عصر محمد على باشا

إلى عصر سعيد باشا :

أدرك محمد على باشا ـ مؤسس الدولة الحديثة فى مصر ـ منذ أن تولى عرش البلاد عام ١٨٠٥م ، أنه لن يستطيع أن يرقى بمملكته ، إلا إذا نقل إليها الحضارة الأوربية ، أو بمعنى أدق « ترجمة الحضارة الأوربية » والأخذ بأسباب نهضة علمية حديثة شاملة ، بعد أن تخلص من الأرستقراطية المملوكية القديمة ، وبدأ سياسة تحديث النظم السياسية والإدارية والاقتصادية ، إلى جانب محاولاته لتطوير صناعات متقدمة ، واكبها توسع تجارى هائل .

ومحمد على باشا الذى ولد بمدينة « قولة » بمقدونيا فى شمال اليونان ، والاسكندر العظيم كان ينتمى أيضاً إلى مقدونيا ، قلب تبعيته للسلطان العثمانى إلى نظام حكم فريد ، وطموحات بلا حدود ، وخص نابوليون بإعجابه الشديد وأراد أن يقتبس كل تطبيقات المدنية الغربية الحديثة ، ومما لاشك فيه ، أن وصول الباشا إلى حكم مصر ، كان نقطة تحول هامة فى تاريخ القاهرة . . أنظر لوحة (١)

وطابع القاهرة ـ فى بداية عصره ـ استمد إشعاعه من القلعة ، التى شيد فيها «قصر الجوهرة » بالقرب من باب العزب ، حيث تدوى صرخات أشباح المماليك الذين أفناهم فى المجزرة الشهيرة . . وأوصل الاسكندرية بالقاهرة ، بحفر ترعة المحمودية ، وشيد القناطر الخيرية التى لم تستقر دعائمها إلا فى العقد التاسع من القرن الماضى ، وقد تكون إصلاحاته سابقة لأوانها ، إلا أنها انبعثت من دوافع شخصية بجعل مصر قاعدة لامبراطورية شرقية !

فى مستهل القرن العشرين ، كتب الرحالة « أوجست لا مبلوف » يصف القاهرة بعين فاحص مدقق ، فقال :



لوحة (١)
محمد على باشا . . مؤسس الدولة الحديثة فى مصر

« . . يفصل القاهرة الأوروبية عن القاهرة الشرقية ، شارع طويل يمتد من محطة السكك الحديدية ، ماراً بالفنادق الضخمة حتى قصر عابدين ... وهى عامرة بالمحال الكبيرة والدور العظيمة والعربات الأنيقة ، والمارة يتزيون بالملابس النظيفة المهندمة ، تماماً مثل أى مدينة أوربية ، أما القاهرة القديمة الواقعة فى شرقيها ، فهى على حالها لم تتغير منذ قرون » !

وقد كان الفارق بين المدينتين من العظم بما دفع « وليام مورتون » إلى أن يتنازل عن النعرة الانجليزية المعهودة ، فيكتب عن القاهرة التى زارها فى عام ١٨٨٩ ، قائلاً

« . . لا يملك الزائر حينما يرى مباريات لعبة البولو والحفلات والمسابقات وألعاب الفروسية ، إلا أن يأخذه الإحساس بأنه فى مدينة إنجليزية ! . . احتفظ أهلها بقدر من المناظر الشرقية ـ العجيبة ـ لإرضاء نزعتهم الجمالية فحسب » !

هكذا باتت القاهرة ، والقرن التاسع عشر موشك على الرحيل ، منقسمة إلى مجتمعين متمايزين فى طبيعتهما ، وكانت الهوة أكثر اتساعًا من ذلك الشارع الفاصل بينهما ، إذ اتسعت الشقة بين ماضى مصر وحاضرها فى نهاية القرن الماضى ، لتصبح هوة عميقة ،بعد أن كانت مجرد خدش فى مطلعه ، ولم تكن الطبيعة الازدواجية للمدينة، إلا تعبيراً عن الانقسام الحضارى والثقافى .

وإذا استعرضنا أهم جوانب ومظاهر الحياة فى المدينتين ، سنجد أن الفارق بينهما أصبح شاسعاً . . بالرغم من تجاور مبانيهما !

فما زالت « القاهرة الإسلامية » ـ فى جوهرها ـ مدينة من مدن ما قبل « الثورة الصناعية » من حيث التقنية والبنية الاجتماعية وأنماط الحياة ، وإلى الغرب منها ، نشأت القاهرة الأوروبية ، بتقنياتها المعتمدة على التكنولوجيا الحديثة وإيقاع أسرع ، ومنشآت ومركبات وهوية أوربية أسبغتها على نفسها . .

ازدانت « القاهرة الحديثة » بشوارع مستقيمة فسيحة مرصوفة ، وأحواض الزهور ، وأشجار نادرة تحف بها ، تستمتع بالهواء المتجدد ، وتستقبل أشعة الشمس ، وتتقاطع بزوايا قائمة أو تتلاقى بين الحين والآخر فى ميادين مستديرة ، وتنعم بحدائق فرنسية

الطابع ، منسقة تنسيقاً بديعاً ، بينها القاهرة القديمة محرومة من الحدائق ، وشوارعها لاتحف بها الأشجار التى يمكن أن تكسر حدة لونى التراب والطين اللذين يغطيان بيوتها ومنشآتها ، وكانت أحياؤها تعتمد على السقائين ، فى حين أن سكان القاهرة الحديثة ، يتمتعون بشبكة جيدة لمياه الشرب ، وتضاء شوارعها بالأنوار الغازية ، بينما الظلام يضرب أطنابه على المدينة الشرقية إذا حل الليل وأرخى سدوله ، وبينما كانت قاهرة الشرق محطاً للقوافل من كل حدب وصوب ، وأبناؤها يتنقلون على ظهور الإبل والحمير أو سيراً على الأقدام . . كان دخول القاهرة الحديثة عن طريق السكك الحديدية ، ويستقل المسافرون بعد وصولهم ، مركبات إنجليزية الطراز ، تجرها الخيول ، للتنقل خلال المدينة .

تبين للباشا أن الصورة البشعة التى كانت عليها القاهرة ، لا تليق بعاصمة ملكه ، فوجه عنايته إلى التخلص من الأنقاض والأكام والدور المتهدمة ، فأصدر أمراً عالياً ، بإعداد حملة من المهندسين للكشف عن منازل القاهرة ، فيشير « الجبرتى » فى تأريخه لحوادث ذى القعدة عام ١٢٣١هـ / ١٨١٥م إلى « أن الباشا أطلق المناداة فى البلدة ، وندب جماعة من المهندسين والمباشرين للكشف على الدور والمساكن ، فإن وجدوا بها أو ببعضها خللاً ، أمروا أصحابها بهدمها وتعميرها ، فإن عجزوا عن ذلك ، أمروا بالخروج منها وإخلائها ويعاد بناؤها على طرف الميرى وتصير من حقوق الدولة » . .

وفى العام التالى ، أصدر أوامره بضرورة كنس ورش الشوارع ، وتنظيف الأسواق ، وإنارة شوارع المدينة ، وإيقاد القناديل على أبواب المنازل ، وأن يخصص لكل ثلاثة حوانيت قنديل ، وكان محتسب القاهرة يتابع تنفيذ هذه الأوامر بنفسه .

كان ظهور العربات الفخمة التى تجرها الخيول ، أمراً مدهشاً ومثيراً للفضول ، مثل تلك العربة التى أهدتها الحكومة الفرنسية لمحمد على عام ١٨٢٤ ، مصحوبة بخطاب « شاتوبريان » وزير خارجية فرنسا ، أعرب فيه عن اعتزازه بالفترة التى قضاها بالقاهرة قبل ١٦ عاماً ، وكتب الرحالة : جوزيف ديستورميل « . . كان جميع المارة يقفون للتعبير عن إعجابهم الصامت بعربة الباشا ، التى بدت لهم أكثر عجباً من الأهرامات » !!

فى عام ١٨٢٩ ، أزيلت الآكام الملاصقة للنيل شمال قصر العينى ، والتى عرفت بكوم العقارب ، وكان مسطحها تسعة أفدنة ، فأزيلت فى ٣٩٣ يوماً ، كذلك أزيلت التلال فيما بين حى الناصرية وجاردن سيتى ، ومساحتها ٣٨ فداناً ، وغرست بأشجار الزيتون ، كما أزيلت الآكام التى كانت تسد الطريق إلى شبرا ، بجوار قنطرة الليمون ، لتتحول إلى منتزه عام .

وفى عام ١٨٣١ ، صدر قرار بتعمير أراضى الخرائب ، سواء أكانت مملوكة أم موقوفة ،بعد إحصائها وتحديد مساحتها ، وبالرغم من الدمار الهائل الذى ألحقته قوات الحملة الفرنسية بالقاهرة ، إلا أن بعض مشروعاتها قد مهدت الطريق أمام الإجراءات التنظيمية التى اتخذها محمد على ، وإن ظل الأسلوب التقليدى فى معالجة المشاكل الحضرية اليومية ، ويشير الرحالة « سان جون » فى عام ١٨٣٢ إلى أن الشوارع « كانت فيما مضى قذرة ومقززة ، لكنها الآن ـ فى معظمها ـ نظيفة بطريقة ملفتة للنظر، إذا يتم كنسها ثلاث مرات يومياً ، وتقوم أربعمائة عربة تجرها الثيران الصغيرة بنقل القمامة خارج المدينة »

ويذكر « إدوارد لين » المستشرق البريطانى الشهير ، فى عام ١٨٣٥ ، ما تم التوصل إليه لحل مشكلة مصاطب الحوانيت التى كانت تعوق المرور فى الشوارع : « لقد أزال محمد على المصاطب من الشوارع المزدحمة ، ولم يسمح بها إلا فى الأماكن الأكثر اتساعاً، وبشرط ألا يزيد عرضها عن شبرين ، وفى الوقت نفسه ، أمر التجار بدهان حوانيتهم، وبإزالة السقوف المصنوعة من الحصير ، التى تظلل بعض الأسواق ، ولم يسمح بإحلالها إلا بالسقوف الخشبية ، وبعدها أمر الباشا السكان بدهان واجهات منازل القاهرة باللون الأبيض »

فى عام ١٨٤٣ ، أصدر محمد على باشا أمرًا عالياً ، بإنشاء مجلس للإشراف على تجميل القاهرة ، وتعديل شوارعها ، أسوة بما استحدث بالاسكندرية ، فقد كان عدم انتظام شبكة الشوارع يمثل إحدى العقبات الرئيسية أمام تحديث المدينة ، وأصبح من الضرورى فتح المدينة أمام نوعية جديدة من المرور . .

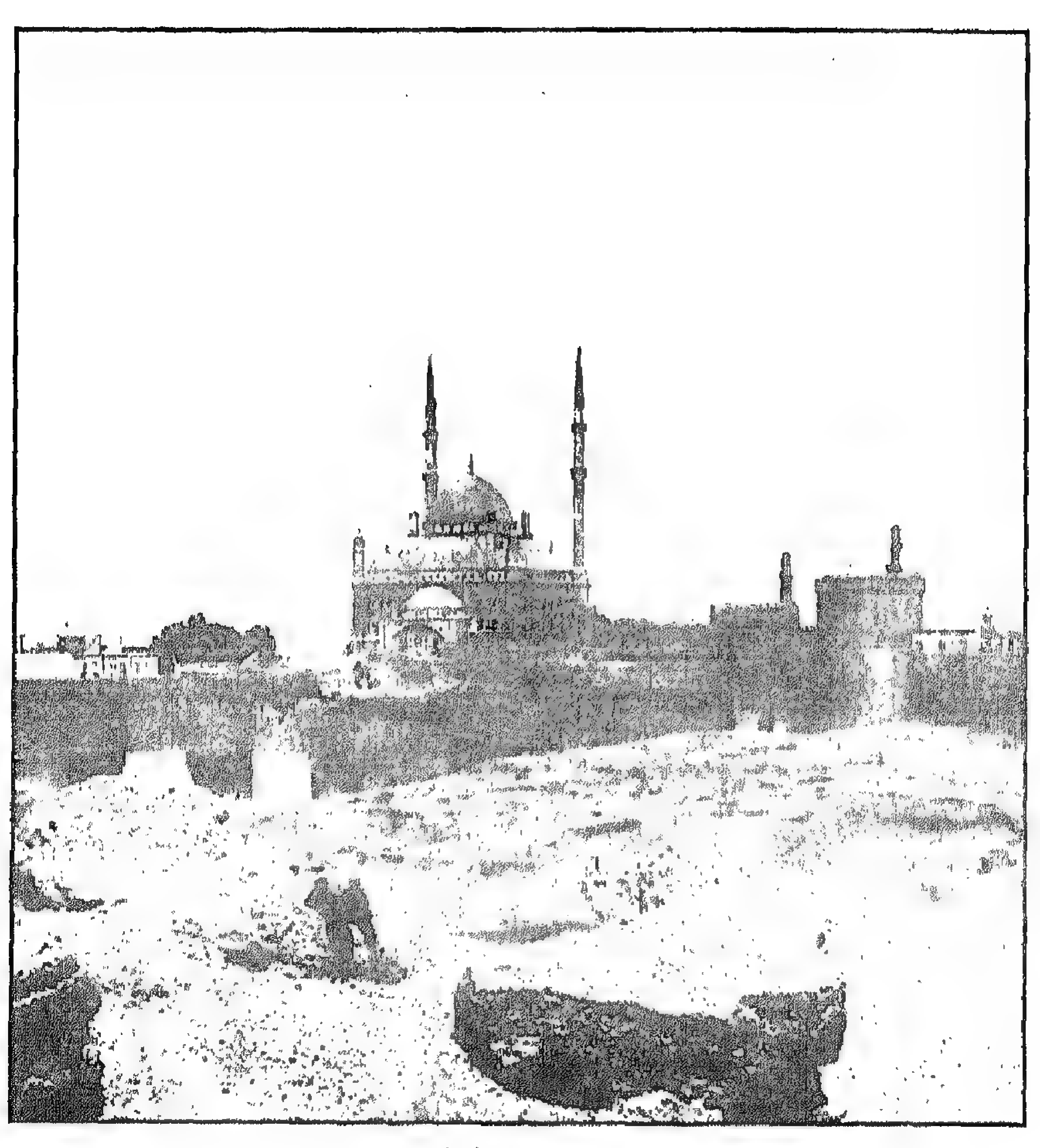
وفى عام ١٨٤٦ ، صدر الأمر بفتح وتوسيع شوارع الموسكى وبولاق وفم الخليج والقلعة ، وفى إطار « التنظيم الجديد » شرع فى شق طريق من الموسكى إلى الأزهر ، وهو تقريبا نفس المشروع الفرنسى ، الذى يقطع المدينة من الشرق إلى الغرب ، ويفتح المنطقة أمام التجار الأوروبيين ، وسمى فيما بعد « السكة الجديدة » بلغ عرضه ثمانية أمتار وهى أبعاد كبيرة للغاية بالنسبة لشوارع ذلك العصر .

وفى عام ١٨٤٧ ، شرع فى توسيع الشارع من باب الحديد إلى الظاهر والمتصل بطريق السويس ، كما جرت توسعة لشارع درب الجماميز ، وباب الخلق والمشهد الحسينى ، وغرست الأشجار بتلك الشوارع ، وتم تمهيد طريق متسع بين وسط القاهرة وشبرا ، يمر بموضع ميدان رمسيس حاليًا ، وغرست على جانبيه أشجار الجميز واللبخ، فكان من أجمل متنزهات القاهرة وفى حى شبرا ، شمال غرب المدنية ، شيد محمد على قصره ، الذى كان نهاية فى الفخامة والأبهة .

وفى نفس العام ١٨٤٧ ، وفى إطار خطة عمل « مجلس تنظيم المحروسة » رُئِىَ تسمية الشوارع وترقيم الدور « كأسلوب أوروبا مما يستوجب المنافع العظيمة للمملكة، ويورث السهولة لمن يقصد زقاقاً أو بيتاً ، سواء كان من الأهالى أو من الأجانب ، استقر الأمر بمجلس تنظيم المحروسة على التدابير اللازمة لذلك طبق الارادة السنية ... » كما ورد فى ديباجة الأمر بهذا الشأن ، الذى أشرف على تنفيذه أربعة من ضباط المدفعية .

وعندما قرر الباشا أن ينقل مقر الحكم من الأزبكية ، ليعود مرة أخرى إلى القلعة ، قام بهدم عدد من الصروح التى شيدها سلاطين المماليك، مثل الإيوان الكبير ، وأعاد رسم أسوارها وتحصينها ، وشيد فى أقصى الجنوب « قصر الجوهرة » وإلى الشمال قصور الحريم ، التى تشكل حالياً المبانى الرئيسية للمتحف الحربى ، ثم مسجده الجامع الذى شيده على طراز مساجد استامبول . . أنظر لوحة (٢) .

ويقول الرحالة الفرنسى « إدمون بوتى » : « من قصر الجوهرة، يمكننا الاستمتاع بمنظر جميل يمتد فوق المدينة ، ويصل إلى ماوراء النيل والأهرامات ، ومن ناحية جامع محمد على نرى عبر حديقة رائعة ، المآذن الممشوقة التى تدعو الروح إلى التحليق فى السماء » !



لـوحـة (٢)

جامع محمد على وسور القلعة ـ عام ١٨٦٠ م

واتجاه الباشا نحو التصنيع ، كان له أثره على « بولاق » التى عانت أضراراً كثيرة إبان الحملة الفرنسية ، بدأت تشهد نشاطاً كبيراً ، عندما أنشأ بها ترسانة بحرية وداراً لصناعة السفن ، سنة ١٨١٤ ، كما أقام منطقة للصناعات الأساسية فى السبتية ، شمال شرق بولاق ، وأقام مصنعا للنسيج عام ١٨١٨ ، ومسبكاً للمعادن عام ١٨٢٠ ، ومدرسة الهندسة المدنية عام ١٨٢١ ، التى أصبحت معهداً لمختلف العلوم الهندسية ، ثم مطبعة بولاق الشهيرة عام ١٨٢٢ ، ليتغلب الطابع الجديد لبولاق كمركز تجارى وصناعى على وظيفتها كميناء وضاحية للنزهة على ضفاف النيل . . وهكذا كان مستقبل القاهرة يتحدد خارج نطاق المدينة القديمة !

ويذهب العالم الفرنسى « أندريه ريمون » إلى أنه « لا يوجد ما يشير إلى حدوث أى تطور بالمدينة ، يمكن أن يعكس التغيرات الكبيرة التى شهدتها مصر خلال تلك الفترة وتعتبر خريطة ـ جران بك ـ عام ١٨٧٤ بالغة الدلالة بشأن هذه المسألة ، فقد تركزت اهتمامات الباشا على مدينة الاسكندرية ، التى حلت محل القاهرة كمركز للتجارة الدولية ، واستفادت من نتائج آثار التغيرات الاقتصادية . . فقد أراد أن يصنع من مصر قوة عظمى ، فقام بتشجيع مدينة تتجه نحو البحر المتوسط الذى شكل ـ المسرح الرئيسى ـ لاهتماماته الدبلوماسية ... كما كان يتخذ سياسة مناقضة تجاه القاهرة التى يرتاب فيها ويحذر منها ، لأنه يحاول القضاء على مجتمعها المرتبط بالماضى ، والذى يمكن أن يفرز الفتن والقلاقل . . » !

فى إبريل عام ١٨٤٧ ، ترك محمد على مقاليد الحكم فى يد ابنه « إبراهيم باشا » بعد أن أصابه الهرم وشاخ عقله ، وأصبح إبراهيم باشا حاكماً رسمياً للبلاد ، وهو صاحب الفتوحات العظيمة فى بلاد الشام والجزيرة العربية ، وحروبه التاريخية فى اليونان وتركيا وانتصاراته الباهرة التى أثارت ذعر دول أوروبا فتحالفت ضد جيوشه ، وقد وجه عنايته خلال فترة حكمه القصيرة (توفى فى ١٠ نوفمبر ١٨٤٨) إلى تقوية ثغور البلاد وتنمية القوة الحربية للجيش والأسطول ، وأمر بتنظيم مجلس فى القاهرة ، أطلق عليه «جمعية الحقانية» لاختصار الإجراءات المتبعة فى سير القضايا ، كما أصدر أمره بترجمة عدد من المؤلفات الفرنسية إلى اللغة العربية ، فى القانون والآداب والفنون والنظم الإدارية . .

شيد « الفاتح » إبراهيم باشا ، قصر الروضة ، بجزيرة الروضة ، وعلى جزء من بساتين هذا القصر ، شيد الأمير محمد على توفيق السراى المعروفة اليوم بـ « متحف قصر المنيل » . . وشيد « القصر العالى » عام ١٨٣٥ ، فى المنطقة التى كانت تعرف بـ «بستان الخشاب » والتى أدخلها محمد على فى أملاك ولده إبراهيم باشا . . كما شيد قصراً وبساتين بجزيرة الزمالك ، على جزء منها شيد إسماعيل باشا قصر الجزيرة .

بعد رحيل ابراهيم باشا ، تولى مقاليد الحكم : عباس حلمى الأول بن أحمد طوسون ابن محمد على باشا ، والذى صدر فرمان ولايته فى ٩ ديسمبر ١٨٤٨

كان عباس الأول مزيجاً من الجهل والتخلف والتقلب ، عاش فى عزلة عن رعيته ، مقيماً فى قصور حصينة بالصحراء أو على ساحل البحر . . وكانت فترة حكمه ـ ردة قصيرة ـ عن سياسة التحديث التى بدأها جده محمد على باشا ، فأمر بتسريح الكثير من جنود وضباط الجيش ، وأغلق المدارس والمصانع التى شيدها محمد على ، ثم ألغى « مدرسة الألسن » عام ١٨٥٠ ، التى خرّجت العشرات من رواد النهضة المصرية الحديثة ، ونفى مديرها « رفاعة الطهطاوى » إلى السودان ، بعد أن ظل ناظراً لها طيلة خمسة عشر عاماً ، فكان مثالاً للحاكم الذى رسخ فى يقينه : أن قيادة شعب جاهل ، أيسر من قيادة شعب على قدر من العلم والثقافة !

ومن الصعوبة أن نتخيل . . أنه بوسع مؤرخ رسم صورة كريهة كئيبة لحاكم ، كتلك التى رسمها لنا من عاصروا وأرّخوا لهذا العباس ، فليس هناك من منقبة واحدة تجعلنا نتعاطف معه ، إلا أنه قام بخطوتين ، كان لهما أبعد الأثر فى تطوير القاهرة :

الأولى : منحه للبريطانيين امتياز إنشاء خط سكك حديدية بين الإسكندرية والقاهرة .

الثانية : إنشاؤه منطقة ضمت بعض الثكنات العسكرية ، فى صحراء شمال شرق القاهرة ، تحمل اسم « العباسية» نسبة إلى اسمه .

خضع عباس الأول للضغوط البريطانية ، ووقع اتفاقية إنشاء خط السكة الحديدية بين القاهرة والإسكندرية ، فى صيف عام ١٨٥١ ، وكان هذا بديلاً عن المشروع

البريطانى الخاص بمد سكة حديدية بين السويس والقاهرة ، والذى تحفظ عليه محمد على فى عام ١٨٤٧ ، ولم يكن راغباً فى تنفيذه .

كان هدف الحكومة البريطانية ، تيسير حركة نقل الجنود والتجارة والبريد ، بين أوربا والمستعمرات الانجليزية فى الهند ـ عبر مصر ـ دون المساس بسيطرتها واحتكارها لطرق الملاحة والنقل حول رأس الرجاء الصالح ، وبالفعل تم الانتهاء من تنفيذ خط القاهرة ـ الاسكندرية فى عام ١٨٥٤ ، قبيل مصرع عباس ، وافتتح رسمياًعام ١٨٥٦ ، فى عهد الخديو سعيد باشا ، ليكون أول خط حديدى أنشىء فى الشرق قاطبة ، وتتضح أسبقية مصر ، إبان زيارة السلطان التركى عبد العزيز لمصر سنة ١٨٦٣ م حيث تملكته الدهشة عندما استقل القطار من الإسكندرية إلى القاهرة ، إذ لم يكن رأى القطارات البخارية فى حياته من قبل . . !

وأفادت القاهرة من هذا المشروع ، فبعد أن كانت الرحلة بين القاهرة والاسكندرية تستغرق فى الماضى أربعة أيام ، أصبحت بعد تنفيذ المشروع لا تستغرق سوى بضع ساعات .

وفى شمال شرق المدينة ، الحى الذى عرف قديماً باسم « العباسية البحرية » . . ولن يكون بمقدرونا أن نتفهم ماوراء نشأة هذا الحى ـ المنعزل آنذاك ـ والتى ترجع إلى عام ١٨٤٩ ، إلا إذا عرفنا الطبيعة الانعزالية لعباس الأول ، وأنه الإضافة الوحيدة التى أسهم بها فى نمو القاهرة . .

كان محمد على قد تخلص من الجند الألبان المرتزقة ، الذين أثاروا المتاعب فى البلاد ، بالرغم من أنهم أسهموا بسيوفهم فى وصوله للعرش ، واستبدل بهم جيشاً من المصريين، غير أن عباس استعان بالمرتزقة فى جيشه ، وإدرا كاً منه لطبيعتهم الجانحة للتمرد والثورة وافتقادهم لروح النظام ، قرر توطينهم خارج العاصمة ، فأقام لهم سلسلة من الثكنات على حافة الصحراء ، بطول الطريق الممتد إلى قريتى المطرية وعين شمس الواقعتين خارج حدود القاهرة ـ آنذاك ـ وسرعان ما نشأت حول هذه النواة ، مجموعة من الحوانيت والمصانع الصغيرة ومساكن خاصة بالضباط والتجار ، بالإضافة

إلى قصر الباشا « سراى الحصوة » ومدرسة حربية ومستشفى ، مما دفع بحركة العمران فيها بعد . . يمكننا القول بأن نوعاً من « الأحياء الملكية » قد بدأ يتكون فى هذه المنطقة ، مما يعيد إلى الأذهان قصة إنشاء القاهرة .

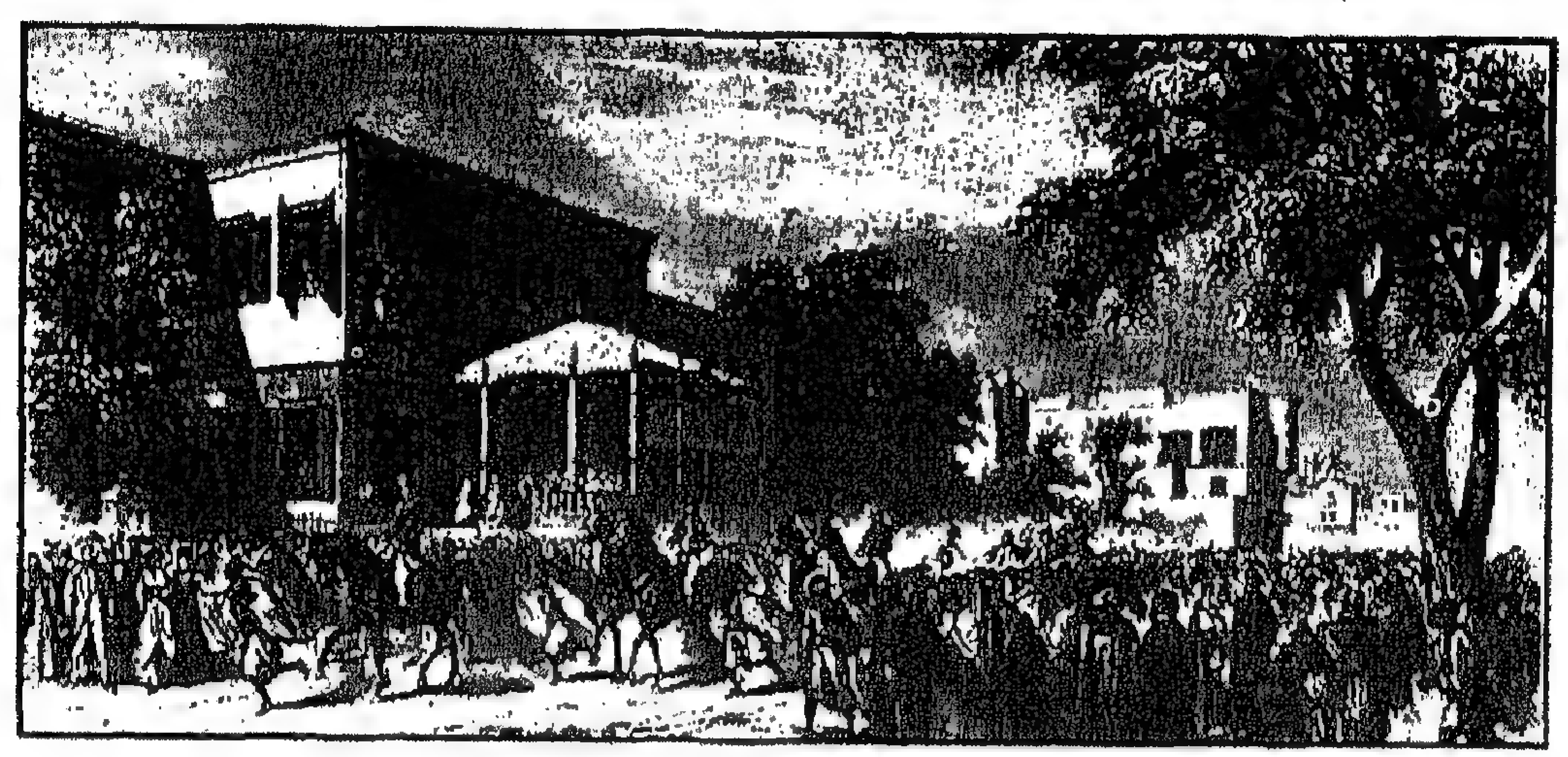
غير أن القدر لم يمهل عباس الأول ، لكى يمضى فى تدعيم وتطوير مدينته ، فكان مصرعه المفاجىء بعد خمس سنوات ، سبباً مباشراً فى توقف نمو العباسية مؤقتاً ، إذ تخلص خليفته سعيد باشا من المرتزقة ، ووضع جنود الجيش الجدد فى ثكنات تطل على النيل وهكذا هجرت العباسية على نحو غير منتظم ، مثلما نشأت على نحو سريع مفاجىء !

بعد نحو خمسة عشر عاماً ، وصف « ولكنسون » هذه البقعة ، قائلاً : « أثر تعس ! ... مازال يحمل اسم مشيده ، ومآله فى بضع سنين إلى الخراب اليباب » ! . . وهى نبوءة أثبتت الأيام أنها كانت مسرفة فى التشاؤم ، إذ ظلت العباسية حياً نائياً ، إلى أن نزل بها الجيش البريطانى عام ١٨٨٢ ، ثم اندمجت فى كتلة المدينة ، فى العقد الأول من القرن الحالى ، حينما انتشر العمران حولها بخطى وئيدة ، نتيجة لإقبال المستثمرين على المضاربة العقارية على أراضيها ومنشآتها التى تضاعفت قيمتها الشرائية .

وإلى عصر عباس الأول ، يعود تاريخ بناء أحد أشهر معالم القاهرة ، وأعنى به «فندق شبرد» شكل ٣ . . الذى استغل مؤسسه « صامويل شبرد ـ S.Shepeard » فرصة لقائه بعباس باشا فى رحلة صيد ، لينتزع منه وعداً بتخصيص موقع له ينشىء عليه فندقاً عالمياً ، ولم يكن هذا الموقع سوى مدرسة الألسن الشهيرة ، كما كتب لأخيه فى نوفمبر ١٨٤٩ : « حصلت على موافقة الباشا ، بتخصيص مبنى مدرسة هامة ، لتشييد فندق ، أقوم الآن بوضع تخطيط له » !

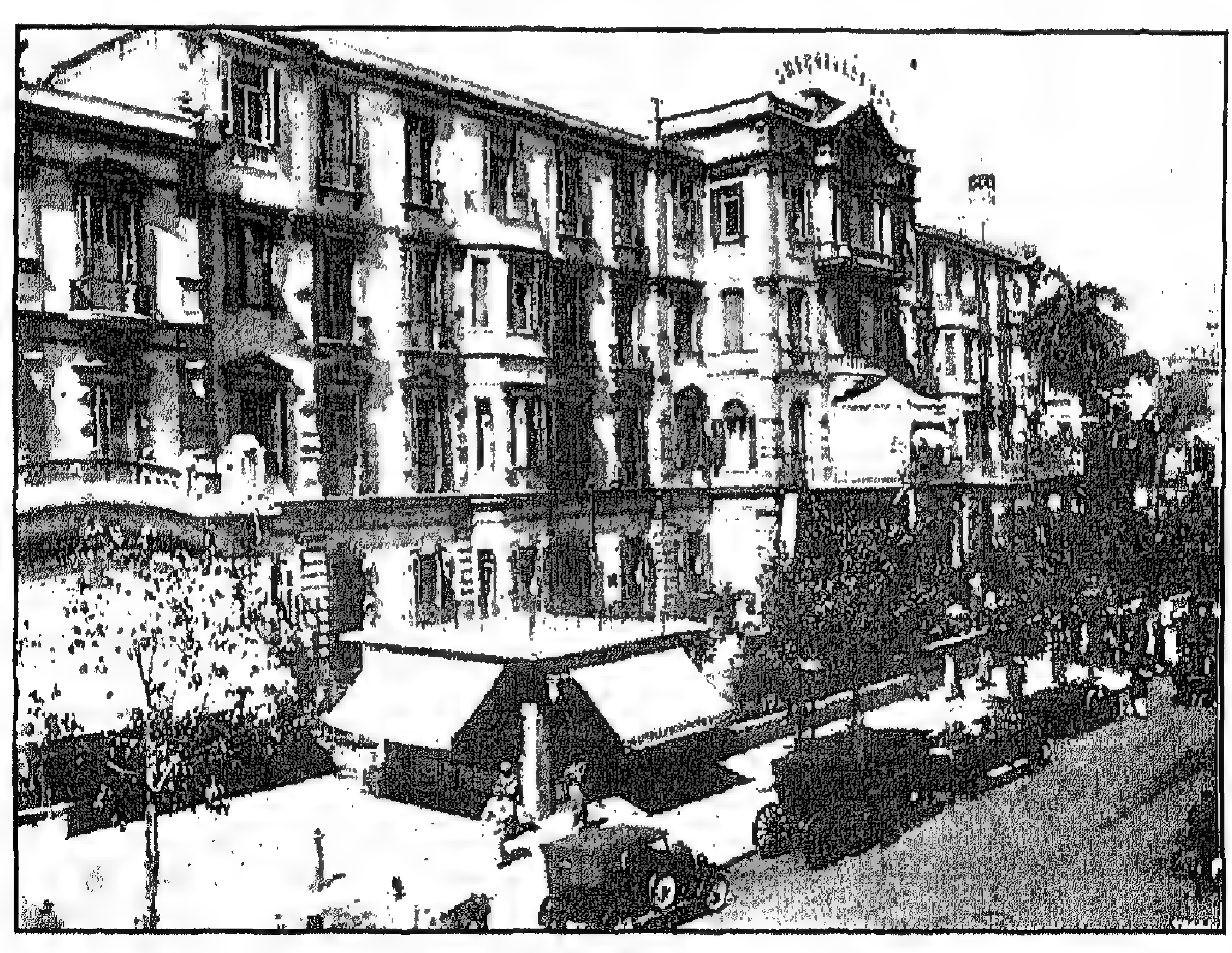
وهذه المدرسة كانت جزءاً من قصر « الألفى بك » المطل على بركة الرطلى بالأزبكية ، وأقام به نابليون ، فصار مقراً لقيادة الحملة الفرنسية فى مصر ، كما أقام به لبعض الوقت محمد على باشا ، الذى أمر بتخصيص جزء منه لمدرسة الألسن فى ذروة النشاط العلمى

فى عصره ، التى أغلقها عباس ، لتصبح مهيأة لإقامة هذا الفندق ، والذى قدر له أن يحرز شهرة عالمية ضخمة ، حتى أصبح رمزاً من رموز القاهرة . أنظر لوحة (٣ أ) ولوحة (٣ ب) .



لوحة (٣أ)

فندق شبرد عام ١٨٦٩ . . وإلى اليمين الشجرة التى لقى تحتها الجنرال كليبر مصرعه



لوحة (٣ ب)

البناء الثانى لفندق شبرد بشارع ابراهيم باشا (الجمهورية حاليا) والذى احترق فى ٢٦ يناير ١٩٥٢

كان أبرز معالم عصر سعيد باشا : اتفاقية حفر قناة السويس عام ١٨٥٤ ، التى وقعها مع « فرديناندى ليسبس » . . والتى حققت نتائج باهرة للقاهرة ، حيث وضعتها على الطريق الكبير نحو الشرق ، وجعلها حلقة أساسية فى شبكة المواصلات العالمية ، لتندمج مصر نهائياً فى النظام السياسى والاقتصادى العالمى .

أضف إلى هذا ، افتتاح خط السكة الحديدية بين القاهرة والاسكندرية ، فى العام نفسه ، ليصبح الطريق ممهداً ومفتوحاً لتحقيق التواصل الأوروبى بالقاهرة ، على نحو لم يسبق له مثيل ، فإلى حد ما ، كانت قاهرة محمد على مدينة معزولة نسبياً ، منغلقة على نفسها فآن لها أن تنطلق لتجوز حدودها ، وأن تمد أبصارها خارج آفاق مصر !

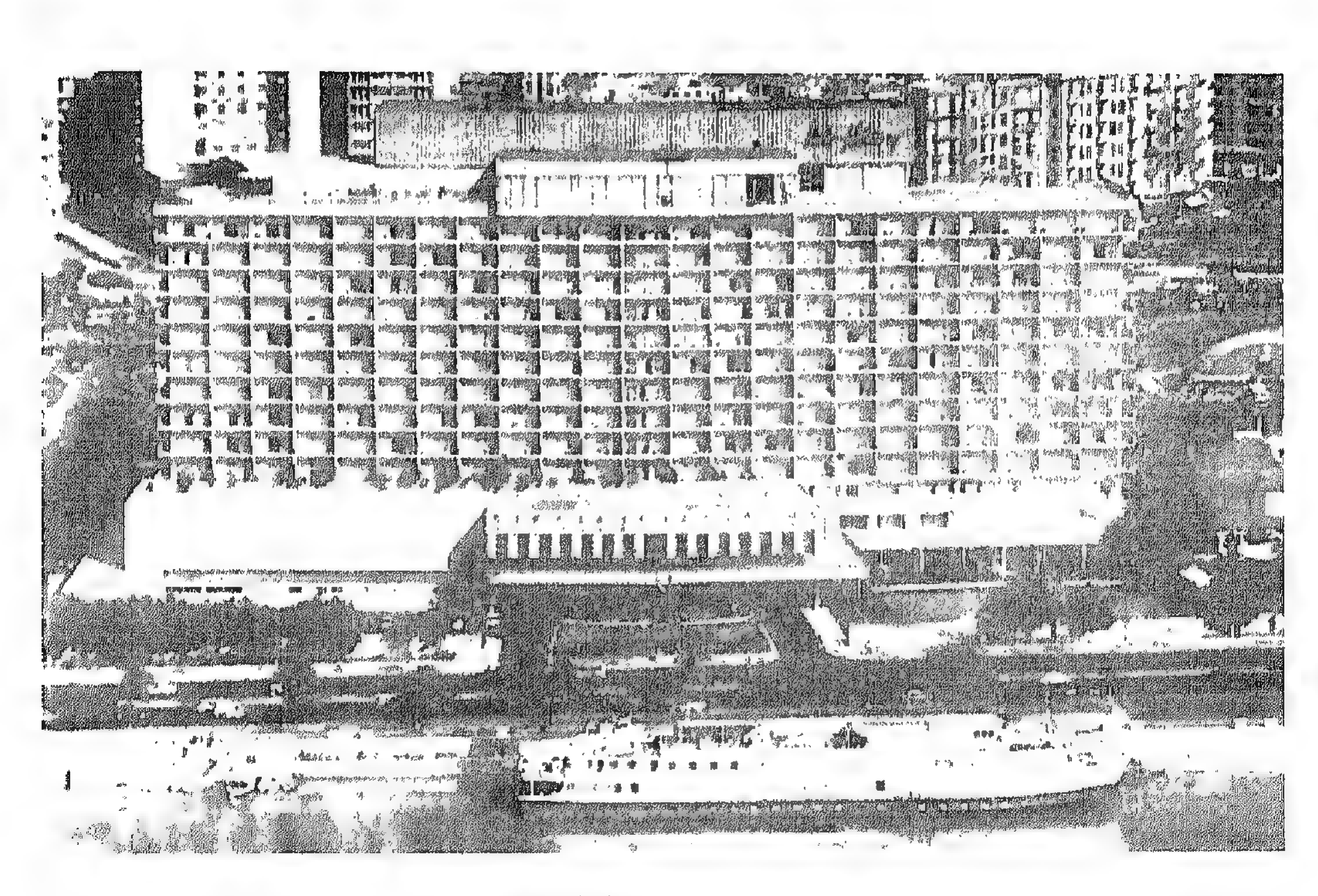
وفى عام ١٨٥٦ ، شيدت « المحطة القديمة » الرئيسية للسكك الحديدية ـ التى احترقت عام ١٨٩٣ ـ فى الزاوية الشمالية الغربية للمدينة ، فى موقع ميناء « المقس » الذى يعود تاريخه إلى العصر الفاطمى ، وإليه امتدت أسوار القاهرة فى عهد صلاح الدين ، وقد أخذت المحطة اسمها من إحدى البوابات الشهيرة لهذا السور ، والتى عرفت بـ « باب الحديد » شكل ٤ . . وقد أزالها محمد على قبيل سنوات من نهاية عصره، بعد أن كانت أبرز معالم المنطقة فى الماضى ، وكان اختيار هذا الموقع لإنشاء المحطة الرئيسية ـ خارج حدود المدينة ـ عاملاً مؤثراً فى التطور البيئى للمنطقة المحيطة بها ، وتشجيع حركة العمران ، وتزايدت الهجرة إلى القاهرة ، من المصريين والأجانب على السواء ، وإنشاء الكثير من الفنادق والمتاجر والمقاهى بالحى القبطى ، فيما بين ميدان المحطة ومنطقة الأزبكية . . أنظر لوحة (٤) .



لــوحة (٤)
محطة مصر الشهيرة بباب الحديد ـ فى نهاية القرن الماضى

وبينما كانت حركة التعمير تنمو على جانبى شريط السكة الحديدية ، قام سعيد باشا بتشييد ثكنات قصر النيل ـ التى شيد فى موقعها نفسه فندق هيلتون النيل ومبنى جامعة الدول العربية ـ الأمر الذى أثار الاهتمام بالمنطقة الواقعة غرب القاهرة ، وهى التى ستتركز فيها المعالم الأساسية للمشروع الحضارى للخديو إسماعيل مستقبلاً .

أنظر لوحة (٥) .



لوحة (٥)
فندق «هيلتون النيل»

القاهرة فى عصر إسماعيل

بعض الزمان يتعلق بأحجار المبانى ويلتصق بها كالتراب . . وتاريخ القاهرة ، هو تاريخ مصر ، ومن يتصفح مادونه المؤرخون والرحالة ، لا يمكن أن يخطئه هذا الإحساس ، فقلب القاهرة هو دائماً قلب مصر ، حضاريًا وسياسياً واجتماعيًا واقتصاديًا . . سواء كان فى ساحة الأزهر قديماً أو فى ميدان التحرير حديثاً ، وإذا كان القلب القديم عتيق الطراز فى أفول وانكماش مطرد شرقاً ، ففى الغرب ، كان القلب الجديد - فى عصر إسماعيل - يتنامى ويزدهر مبشراً بعصر جديد . . وفكر جديد . .

فى رسالة بعث بها من القاهرة إلى صديقه ، فى يناير سنة ١٨٥٠ ، كتب الأديب الرحالة الفرنسى الشهير « جوستاف فلوبير - J.Flaubert » :

« . . نحن الآن فى القاهرة ، فما الذى يمكننى أن أقوله عنها ؟ . . وماالذى يمكننى أن أكتبه لك ؟ . . فحتى الآن ، . لم أكد أتجاوز الانبهار الأول ، فكل تفصيل يبرز لكى يمسك بك ويبرّحك ، وكلما ازداد تركيزك عليه ، كلما قل استيعابك للكل ، ثم شيئاً فشيئاً يصبح كل ذلك متناغماً ، وتتكامل الأجزاء من تلقاء نفسها ، وفقاً لقوانين المنظور ، أما فى الأيام الأولى ، فيشهد الرب أنها كانت فوضى ألوان محيرة » !

لقد استعصى وصف القاهرة على « فلوبير » فى أيامه الأولى بها : اضطراب بصرى وفوضى ألوان ، وتفاصيل ترفض أن تتشكل فى صورة . . ففى شوارع القاهرة أحاديث وحوارات بلغات متعددة ، كرنفال أزياء غريبة ، ألوان صارخة ، وزحام صاخب وروائح غير مألوفة ! أنظر لوحة (٦) .

كانت تلك صورة القاهرة فى منتصف القرن التاسع عشر ، حتى ١٨٦٣م ، الذى كان عاماً هاماً فى تاريخ القاهرة ، فهو العام الذى تولى فيه الخديو إسماعيل (١٨ يناير)



لوحة (٦)
الخديو إسماعيل

حكم مصر (شكل ٥ مكرر) ومنذ ذلك اليوم ، عقد العزم على أن يمنح القاهرة وجهاً عصرياً ، هو الذى نلمس بصماته الواضحة فى يومنا هذا . . ليكون أول حاكم منذ تسعة قرون يرتبط بمشروع شامل لتحديث المدينة ، ليستكمل المشروع الأكبر « مصر الحديثة » الذى بدأه جده محمد على باشا . فكل الظروف كانت مهيأة لهذا الإنجاز الضخم ، وعلى رأسها القوة الاقتصادية الناتجة عن الارتفاع المفاجىء لأسعار القطن ، بسبب انسحاب الموردين الأمريكيين من السوق العالمى إبان الحرب الأهلية ، والشروع فى تنفيذ فكرة قناة السويس ، قد منحا مصر مزيداً من الاهتمام الأوروبى ومزيداً من الموارد ، التى أفاد منها إسماعيل سياسياً لدعم فكرة الاستقلال عن الباب العالى ، حتى منح لقب خديو فى ٨ يونيو عام ١٨٦٧م ، كما أنفق منها ببذخ شديد على شتى مظاهر الدولة العصرية ، بلغت ذروتها فى الاحتفالات الأسطورية بافتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩م .

كان تحديث القاهرة بالنسبة لإسماعيل : رمزاً لارتقاء مصر حضارياً ، وتجسيداً لرغبته العارمة فى أن يشهد الغرب ـ عاصمة أوربية فى القاهرة ـ تحكم دولة عصرية تقوم على ضفاف النيل ، تمتد من الاسكندرية إلى الخرطوم .

تأهبت القاهرة للدخول فى عصر جديد من العمران الحضرى «City Building » ففى ربيع عام ١٨٦٧ م أقيم معرض باريس الدولى الذى كان فكرة البارون «هاوسمان ـ Haussmann» وذروة سجل أعماله الخالدة ، حين كان يشغل آنذاك منصب محافظ السين ـ Préfet de la Seine ولأكثر من خمسة عشر عاماً ، استطاع خلالها أن يعيد تخطيط جزيرة المدينة ـ Ile de la cité بقلب باريس ، والمناطق المحيطة بها ، وعمد إلى إضافة مساحات من الحدائق المنسقة وسط أبنيتها ، وإنشاء وتمهيد طرق متسعة بها ، فى أسلوب صار يعرف باسمه ، كما قام بتزويدها بالمرافق العامة ، وقنوات رائعة تباهت بها باريس ، واستخدمت فى نقل الزوار إلى ساحة المعرض ، وأعيد تخطيط منطقة ـ Champ de mars ـ التى أقيم بها ، وكان لهذا المعرض أثر قوى فى استحداث أسلوب جديد لتخطيط المدن الأوربية فى نهاية القرن التاسع عشر ، أصبح طرازاً اقتدت به كثير من الدول لسنوات طوال ، مثلما حدث مع معرض شيكاغو الدولى لعام ١٨٩٣م ،

الذى أعاد الأسلوب الكلاسيكى إلى سابق مجده ، ويجدد الطراز الذى استلهمته حركة «City Beautiful» التى سادت تخطيط المدن الأمريكية أمداً طويلاً . .

هل يمكننا القول بأن بناء القاهرة الحديثة ، كان وفقاً لمعرض باريس ، الذى كان فى الوقت ذاته : احتفالاً دولياً بافتتاح قناة السويس ، فاستجابة الخديو إسماعيل لدعوة الامبراطور نابوليون الثالث للاشتراك فى المعرض ، كان دافعها رغبته فى توطيد مكانة مصر بين دول العالم ، وتعزيز مكانته الشخصية كصنو لملوك أوربا . وكان قد أصدر أمراً عالياً فى ٦ صفر ١٢٨٤ هـ إلى ناظر الجهادية : « حيث أن حضرة صاحب الجلالة امبراطور دولة فرنسا دعانا بصفة خاصة للحضور إلى باريس فى ١٥ من شهر يونية القادم لزيارة المعرض المقرر افتتاحه ، وقد تقرر سفرنا بإذن الله تعالى غدًا لنكون حاضرين فى التاريخ المذكور »

اتخذ الجناح المصرى شكل « مدينة متأوربة » جديدة ، أعدت واجهاتها الخارجية على وجه السرعة ، جنباً إلى جنب مع أحياء القاهرة القديمة ، مكتملة بالحدائق العامة وبمسرح فود فيل ودار للأوبرا ، ونموذج لمعبد فيلة وسوق شرقية وفندق على الطراز العربى ، وغير ذلك مما يمثل طابع الحياة فى مصر . . وقد رد إسماعيل باشا هذه اللفتة بتشييد قصر على النيل خصيصاً للامبراطورة الجميلة أوجينى ـ Eugénie كانت حجراته صورة طبق الأصل من حجراتها الخاصة فى قصر التويلرى !

سافر إسماعيل باشا إلى باريس ، فى ١٥يونيو عام ١٨٦٧م ، بصحبة حاشية ضخمة ، وفى اليوم التالى لوصوله ، افتتح الجناح المصرى ، وكان فى استقباله هاوسمان ، وفى ظهيرة ذلك اليوم زار غابة بولونيا والتقى بمهندس الحدائق : « باريه دى شان » . الذى قام بتصميم وتنفيذ غابة بولونيا وحدائق « شان دو مارس » . . وربما فكر الخديو ـ خلال هذا اللقاء ـ فى أن يحيل منطقة الأزبكية إلى حدائق منسقة على هذا الطراز ، يؤكد هذا الرأى ، استعانته بهذا المهندس فى تنفيذ خططه لتجميل القاهرة .

وتعددت لقاءات هاوسمان بالخديو خلال تلك الزيارة ، وأعدت له ـ جولات فخمة ـ للطواف بأنحاء باريس وزيارة معالمها ، وسجلت الصحف الفرنسية مدى انبهار إسماعيل بالتخطيط الجديد لمدينة باريس ، ولنا أن نستقرىء من

أحـداث تلك الزيارة ما حفز الخديو لإعادة تخطيط وتطوير القاهرة على هذا النحو الذى انبهر به .

عاد إسماعيل باشا إلى مصر ، بعد توقف قصير فى استانبول ، حصل خلاله من الباب العالى على الفرمان الذى يقضى برفع لقبه من «والى ونائب السلطان » إلى خديو ، وهو ما كان ينشده منذ أمد بعيد ، وتأمل الحالة المزرية لعاصمة ملكه ، وراح ينقب بين أبنيتها المتداعية عن شىء يمكن أن تباهى به باريس أو حتى لندن التى زارها بعد رحيله من باريس . . ولعله ساءل نفسه : عما إذا كانت لديه الجرأة لأن يدعو ملوك أوربا إلى مدينة كهذه ، تسىء بفقرها إلى حاكمها ، وهو الذى عقد العزم على أن يقيم احتفالاً أسطورياً يخلد به ذكرى افتتاح قناة السويس .

لم يكن لدى إسماعيل متسع من الوقت ، لإحداث تغييرات جذرية تشمل القاهرة الشرقية ، مهما بذل من جهود ، ففكر فى استحداث مدينة جديدة ، تمثل واجهة للقاهرة القديمة ، من الجهة الغربية ، وأن تقتصر جولات المدعوين على المدينة الجديدة، التى يأمل أن تضارع مدنهم ذاتها ، وكانت سرعة التنفيذ مطلباً ضرورياً لنجاح خطته ، التى أراد لها أن تكتمل قبل الموعد المقرر لافتتاح القناة الذى حدده ديلسبس فى نهاية عام ١٨٦٨م ، غير أن تأخر انتهاء العمل بالقناة عن موعده ، قد منح الفرصة لإسماعيل لاستكمال خططه ـ على النحو الذى يطمح إليه ـ وتأجل الافتتاح إلى نوفمبر عام ١٨٦٩م . أنظر لوحة (٧) .

على باشا مبارك :

مهد الخديو إسماعيل لمشروعه الكبير ، بإسناد « ديوان الأشغال العمومية» عقب عودته من باريس بنحو شهرين إلى على باشا مبارك (شكل ٦) واحد من أعظم شخصيات مصر الحديثة ـ إلى جانب مسئولياته كوكيل لديوان المدارس و « مهندس معية سنية » وناظر للقناطر الخيرية ، ثم مأمور لمصلحة السكك الحديدية أيضاً ، وكانت المهمة الرئيسية : إعداد برنامج شامل لتخطيط وتطوير القاهرة الحديثة ، طبقاً لطراز مدينة باريس .



لوحة (٧)
على باشا مبارك

كان على باشا مبارك عضواً بالبعثة المصرية الثالثة إلى فرنسا عام ١٨٤٤م ، لتعلم الفنون الحربية بالمدرسة الخاصة التى أنشأها محمد على باشا وعرفت باسم « المدرسة المصرية الحربية » بباريس ، وقد ضمت سبعين طالباً انتخبهم سليمان باشا الفرنساوى رئيس أركان حرب الجيش المصرى بتكليف من محمد على باشا ، وكان من بين هذه الإرسالية نجلا الباشا الأميران حسين بك وحليم بك (باشا) ومن أحفاده : الأميران أحمد بك (باشا) وإسماعيل بك (باشا ثم خديو مصر) . .

درس على باشا مبارك بمدرسة باريس لمدة ثلاث سنوات ، ثم التحق بمدرسة «متز» أول يناير سنة ١٨٤٧م لمدة عامين ، وألحق بآلايات الجيش الفرنسى فى بداية سنة ١٨٤٩« . . عندى من الشوق إلى معرفة أحوال هذه المدينة العظيمة ـ باريس ـ والوقوف على أحوال أهلها ، والتعرف على هذه المدينة العظيمة ـ باريس ـ والوقوف على أحوال أهلها ، والتعرف على آثارها الباهرة وصنائعها الزاهرة ، ما تشتد به الحاجة إلى استطلاع أخبارها ، وغاية مرادى أن أقضى هذه المدة فى استفادة ما ينفع وطنى »

وكان رد فعل على مبارك هو العجب من : « حسن نظامها وكثرة معالمها ، وسعة شوارعها وتنظيمها ، وحركة التجارة بها وزخرفة محلات التجارة ونظافتها وحسن بهجتها»!

فى شتاء عام ١٨٦٧م أتيحت لعلى باشا مبارك فرصة السفر إلى باريس ، فى مهمة مالية لحساب الحكومة المصرية ، فقضى عدة أسابيع فى دراسة النظم الفرنسية فى مجالات التعليم والتخطيط العمرانى والمكتبات ، وسار مع الزوار الآخرين عبر الأنفاق الضخمة لشبكة الصرف الصحى . التى أقيمت تحت شوارع المدينة الجديدة التى صممها أوسمان . .

كان اضطراب القاهرة واضحاً جلياً ، فالمجال الحضرى الذى تحرك إليه المصريون كان أصبح مسألة سياسية ، مادة يتعين « تنظيمها » عن طريق بناء شوارع رئيسية عظيمة تتفرع من الوسطين الجغرافى والسياسى ، فى اللحظة نفسها التى كان فيها المصريون يتحركون عبر هذا المجال ، كانت عقولهم وحياتهم بحاجة إلى الانضباط ، فى اقتصاد مشترك للنظام .

أعد على باشا مبارك مشروع قانون بتنظيم إدارة المدينة ، ووضع تقسيما إداريا جديدا لها ، بتاريخ ٨ يوليو ١٨٦٨م ، قسمت فيه المدينة إلى أربعة أقسام ، كل قسم يضم اثنين من الثمانية أثمان التى حددها محمد على باشا : باب الشعرية مع الأزبكية ، الدرب الأحمر مع الجمالية ، الخليفة مع قوصون ، عابدين مع درب الجماميز ، وقسمت الضواحى إلى أربعة : مصر القديمة، بولاق ، شبرا ، الوايلى . .

وقد أقر هذا التنظيم بوحدة مدينة القاهرة ، حيث كانت بولاق ومصر القديمة منفصلتين عنها حتى ذلك التاريخ ! وأنشىء بكل قسم إدارة للمبانى يرأسها مهندس التنظيم ، المكلف بالإشراف على المبانى ومراقبتها ومتابعة عمليات وضع الخرائط وتطبيق لوائح التنظيم . كان هذا البرنامج هو التهيئة المطلوبة من أجل إعداد تخطيط القاهرة ، الذى سيقوم جران بك بوضعه عام ١٨٧٤م .

وتتضمن لا ئحة التنظيم ٣٤ بنداً ، بالإضافة إلى الإعلان الصادر من « دولتلو ناظر الجهادية » بشأن بيان الرسوم اللازم تحصيلها بديوان الأشغال العمومية ، ونص تقديم اللائحة يقول :

« صورة اللائحة المعمولة بديوان أشغال عمومية فى سنة ١٢٨٥ هـ بمعرفة سعادة على مبارك باشا . .

لما كانت الهمم الخديوية لا تزال على الدوام مجبولة على نفع الخاص والعام من عمارة مدن الديار المصرية وتنظيمها على حسب الأصول الهندسية والطبية ، كانت الحكومة المصرية السنية مرتبة فى مدنها وبنادرها الأصلية أناساً يقومون بإجراء عملية التنظيم على موجب أصول الهندسة والطب فى كل إقليم ، ويحافظون على حقوق أرباب الأملاك والعقارات ، ويفصلون ما يقع بينهم من التداعيات ، إلا أن قلة هؤلاء العمال بالنسبة إلى اتساع المدن على كل حال ، ولما كانت لا تكفى للنظر فى قضايا التنظيمات وفصل الدعاوى وحل المشكلات ، اقتضى بالضرورة تنوع الوظائف وتعدد المستخدمين لتسهيل ما يعود نفعه على العالمين ، ولزم منعاً لتراكم الأعمال والتأخير عن الأشغال ، ترتيب عدد كاف من المأمورين لتأدية ما لابد منه فى كل حين وتجنب ما ينشأ عنه المضرات فى جميع الأوقات ، وحيث إن هذه الهمة العظيمة تحتاج إلى مصاريف

جسيمة ، بحيث لو تكلفت الحكومة بأدائها وقامت من غير مساعدة بوفائها لكان ذلك مما تأباه المصلحة العمومية فى كل آن ، ولا يرضى به من أرباب الحجا أى إنسان ، وحيث إنه جار بكافة الجهات ، فى مثل هذه الأعمال ، توزيع المصاريف لاستقامة الأحوال ، فالحكومة لا تقوم منها إلا بدفع ما يعود بعموم المنافع فيما يحتاج للتنظيم من الأماكن العمومية والشوارع ، والأهالى ملزومون منها بدفع ما يستقيم به أود منافعهم الخصوصية ، ولذا خطر بفكرنا وضع ما سيأتى بيانه بالتفصيل للحصول على مطمح أنظار ولى النعم الجليل ، الباذل سعيه على الدوام فى العمارة ورفاهية الأنام .

بند ١ : بما أن مدينة القاهرة وغيرها من المدن والبنادر منقسمة إلى أقسام مناسبة لسعتها ، فلو ترتب فيها بكل قسم مهندس مستعد ومعه من يلزم من الأشخاص ، بحيث يكون منوطاً بالإجراءات التى لابد منها مما يتعلق بالمبانى بالنظر للكشف عليها وتنظيمها ومعاينة الخلل فيها وهدمه ومباشرتها عند الشروع فى بنائها من بعد رسمها وتجديد جهاتها فى رسم مخصوص يرفق بحجج الملكية ... وحيث إن العمليات الهندسية المقتضى إجراؤها بمدينة القاهرة جسيمة ومتعددة ، وإن الأشخاص الثلاثة المرتبين لها الآن غير كافين لتأدية المطلوب فى أوقاته ... اقتضى تقسيم القاهرة وضواحيها إلى ثمانية أقسام ، أربعة منها فى داخل المحروسة والأربعة الأخر بضواحيها . . » أنظر لوحة (٨ أ) ولوحة (٨ ب) .

وخصص لعلى باشا مبارك ـ سراى الأمير مصطفى فاضل باشا ـ بدرب الجماميز ، لمباشرة مسئولياته المتعددة ، وقد ضمت السراى دواوين المدارس والأوقاف والأشغال العمومية ، وبدأ فى تنفيذ خططه لبناء القاهرة الحديثة . . وتحديث التعليم . .

والواقع أن تلاقى « تخطيط المدينة الحديثة » و « تخطيط مؤسسات التعليم » لم يكن محض صدفة . . فأعمال على باشا مبارك كانت تعبر عن اهتمامات عصره : فالشوارع تمهد ، والمدارس تشيد ، تعبيراً عن إنجاز لنظام ثقافى وترتيب اجتماعى ، كان ينظر إليه كحاجة سياسية أساسية : شكلت سياسة الدولة الحديثة .

صورة اللائحة المعمولة بديوان اشغال عمومية في سنة ١٢٨٥ بمعرفة سعادة علي مبارك باشا

لما كانت الهمم الخديوية لا تزال على الدوام مجبولة على نفع الخاص والعام من عمارة مدن الديار المصرية وتنظيمها على
حسب الاصول الهندسية والطبية كانت حكومة المصرية السنية مرغبة في مدنها وبنادرها الاسلامية انا سا يشرعون باجرا
عملية التنظيم على موجب اصول الهندسة والطب في كل اقليم وبما نظرته على حقوق ارباب الاملاك والعقارات
ويفصلون ما يقع بينهم من المنازعات الا لاوقفة لهولاء العمال بالنسبة الى اتساع المدن على كل حال ولما كانت
لا تكفي للنظر في قضايا التنظيمات وفصل الدعاوى وحل المشكلات اقتضى بالضرورة تنويع الوظايف وتعدد
المستخدمين لتسهيل ما يعود نفعه على الاهالي ولزم منها التراكم الاعمال والتاخير عن الاشغال ترتيب عدد كافي
من المامورين لتادية ما لابد منه في كل حينه وتجنب ما ينشا عنه المضرات في جميع الاوقات وحيث ان وظائف
الهيئة التنظيم تحتاج الى مصاريف جسيمة بحيث لو قطعتها الحكومة بادايرها وقامت من غير مساعده بوفاء الكافة
ذلك مما تاباه المصالح العمومية في كل آن ولا يرضى به من ارباب الحجا اعما انسان وحيث ان جاري على كافة الجهات
في مثل هذه الاعمال توزيع المصاريف لاستقامة الاحوال فالحكومة لا تقوم منها الا بدفع ما يعود بعموم المنافع فيما
يحتاج للتنظيم من الاماكن العمومية والشوارع والاهالي ملزومين بدفع ما يستقيم به او دفعا عنهم الخصوصية وتستقيم
باحراز حقوقهم الذاتيه ولذا خطر بفكرنا وضع ما سياتي بيانه بالتفصيل للحصول على مطمح انظار ولي النعم الجليل
الباذل سعيه على الدوام في العمارية ورفاهية الانام

مادة ١

بما ان مدينة القاهرة وغيرها من المدن والبنادر منقسمة الى اقسام مناسبة لسعتها فلو ترتب في كل قسم مهندس
مستقر ومعه من يلزم من الاشخاص بحيث يكون منوطا بالاجراءات التي لابد منها في قسمه مما يتعلق بالمباني بالنظر
للكشف عليها وتنظيمها ومعاينة الخلل منها وهدمه ومباشرتها عند الشروع في بنائها من بعد رسمها وتقرير سمتها
وتحديد خطها على رسم مخصوص يرفق بحجة الملكية عند نقلها من يد الى اخرى بالمعاملات الشرعية الجارية على الاملاك
والعقارات لكان في ذلك صيانة لحدودها ومانعا من التعديات على الحقوق الذاتية وبذلك يمكن الاستغنا عن
وهندسية الضبطية المنوطة بعلم الرسم الاول
وحيث ان العمليات الهندسية المقتضي اجراها بمدينة القاهرة جسيمة ومتعدده وان الاشخاص المكلفة المرتبة لها الان غير
كافية لتادية المطلوب في اوقاته ومن ذلك حاصل على الدوام تاخير في فصل القضايا وحل المشاكل وحدث
فضلا عن وقوع مخالفات عديده في التنظيمات وخلافها وذلك مضاد للمشروعات الخديوية المجبولة على نشر التمدن
والعمارية بالديار المصرية اقتضى للتخلص من المحذورات ومنع ما يحصل من التاخير تقسيم القاهرة وضواحيها الى ثمانية
اقسام اربعة منها في داخل المحروسة والاربعة الاخر بضواحيها وهي

القسم الاول — مصر القديمة وما حولها الى سور البلد وفم الخليج
القسم الثاني — بولاق
القسم الثالث — من خارج بولاق الى شبرا محدودا بجسر شبرا وسور البلد الى الخليج
القسم الرابع — يبتدئ من جسر شبرا الى شبرا وينتهي الى سور العباسية والوايلي .

لوحة (٨ـأ)

الورقة الأولى من لائحة التنظيم الادارى للقاهرة التى أعدها على باشا مبارك

او جبايس سيتاذ ديعرض صد ديولي الاشغال منه التصريح الذي يعطى له تقرير بالرخصة ويدفع عنه

وبعد النظر فيما يرغم اذا لم يكن للمحال مانع العوائد المقررة اوناه

٥٠٠ ..	محجر
٥٠٠ ..	ورشة بلاط
٢٠٠ ..	جباية
٢٠٠ ..	جباس
٢٠٠ ..	معمل الطوب

بيان العمال اللازم لتأدية واداء ما ذكر من البنود

	عدد	
٢٠٠٠ ..	١	مفتش التنظيم
٢٠٠٠ ..	١	باشمهندس التنظيم
١٢٠٠٠ ..	٨	مهندسين اقسام
٠٧٥٠٠ ..	١٠	مساعدين منهم ثمانية بالاقسام واثنين برفقة باشمهندس التنظيم ٧٥٠
٠١٦٢٥ ..	١٣	عساكر جاويش من الموجودين بالضبطية منهم ثمانية بالاقسام
٠٠٨٠٠ ..	١	كاتب تحريرات ومضبطة التنظيم ودفاتر الاجرة
٠٠٤٠٠ ..	١	مساعد له
٠٠٢٠٠ ..	١	كاتب كشوفات
٠٠٧٠٠ ..	١	كاتب يومية
٠٠٥٠٠ ..	١	مساعد له
٠٠٦٠٠ ..	١	صراف
٢٨٤٢٥ ..	٢٩	

واما ترتيب الاشخاص الذين الوظائف حسب الموضح علاه فانه من بعد مناظرتها بهذا الحد والمجلس الخصوصي وصدور الامر بالاجرا فيكون في ديوان الاشغال ويرخص له بتعيين العمال اللازم لكل وظيفة بحسب لياقة واستعداد كل شخص منهم ١٧ سنة ٨٥

امضاء
على باشا مبارك
ناظر ديوان الاشغال
والمدارس

على الوجه المشروح قد صار تنظيم الحسن وتلا تنفيذ الموضح بيانه بديوان عموم الاشغال امضا على باشا مدير الاشغال والمدارس
١٧ سنة ١٢٨٥

لوحة (٨ ـ ب)

الورقة الأخيرة من لائحة التنظيم بتوقيع على باشا مبارك

قاهرتـان

كان رأى الخبراء الفرنسيين ، كما يشير المؤرخ « هنرى بيرون ـ H.Pieron» أنه يجب «الحفاظ على الجزء الأقدم من المدينة ، ليوضح للأجيال القادمة كيف كانت مدينة الخلفاء ، قبل أن تبنى بمحاذاتها مستعمرة كوزموبوليتانية هامة منفصلة تماماً عن حى الأهالى . . هناك مدينتان بالقاهرة : المدينة الحديثة ، الأكثر جاذبية ، والمدينة القديمة، التى يبدو مقدراً لها أن يمتد احتضارها ولا تبعث أبداً ، لأنها قادرة على الصراع ضد التقدم وعواقبه الحتمية ، إحداهما قاهرة الفنانين ، والأخرى لأنصار الصحة العامة والحداثة » !

كانت تلك أعظم فترة للهدم والبناء فى العاصمة ، منذ نمو القاهرة المملوكية ، وجرى مدُّ بنية أساسية جديدة بين الطرفين الشمالى والغربى للمدينة ومدخلها الجديد : محطة السكك الحديدية ، وإتاحة مساحات من الأراضى لكل من يرغب فى البناء على الطراز الأوربى . .

وما أن حل عام ١٨٦٩م ، حتى كانت الخطط الخاصة بإنشاء أحياء جديدة ، قد أحرزت تقدماً ملموساً ، حيث تم شق طرق جديدة واسعة مرصوفة ، وتقسيم أراضى حى الإسماعيلية الجديد ، والذى بلغت مساحته نحو ميل مربع ، ووهب الخديو الأراضى المملوكة له للأمراء والأثرياء ، شريطة بناء فيلات فاخرة محاطة بالحدائق . أما بالنسبة للخطط التى أعدت لتطوير أحياء القاهرة القديمة ، فلم يقيض لها أن تنفذ تنفيذاً كاملاً ، وظلت لسنوات عديدة قبل أن تمتد إليها أنامل التطوير .

أقيمت الاحتفالات الأسطورية التى خلدت افتتاح قناة السويس فى ١٧ نوفمبر عام ١٨٦٩ م ، وحتى نهاية ديسمبر ، كانت تلك الفترة : ذروة عصر إسماعيل تألقاً ، وفيها كانت القاهرة قبلة للأوربيين ، ليس للملوك والأمراء فحسب ، بل أيضاً للرحالة

والأدباء وعلماء الآثار والصحافيين والشعراء والمصورين والرسامين ، منهم على سبيل المثال : تيوفيل جوتييه ، فلو بير ، جيرار دى نيرفال ، ما كسيم دى كامب ، بيرشير ، ماريللا ، جيروم ...

طاف ضيوف الخديو بشوارع القاهرة وآثارها وحدائقها ، وأرهقوا الأهرام صعوداً وهبوطاً ، استمتعوا بكل ما شاهدوه ... ومن يطالع الانطباعات الذاتية لهؤلاء الزائرين التى دونوها فى مذكراتهم ، يدرك على الفور بأنهم كانوا فى وادٍ ، بينما الخديو وتطلعاته فى واد آخر ، إذ كان حريصاً كل الحرص على أن يضفى على نفسه وعلى دولته : الطابع الأوروبى ، بينما كان الأوروبيون يحرصون على مشاهدة كل ما هو عجيب وغريب ، ونظراتهم تستطلع عالم « ألف ليلة وليلة » !

ولنتأمل معاً انطباع « اندرسون » عن القاهرة ، الذى سجله فى كتابه « المسألة الشرقية » فيقول :

« كانت القاهرة القديمة - طوال ستة قرون - يتقاسمها المماليك مع عامة المصريين ، يتخالطون فى شوراع المدينة دون حواجز ، وقد يستند كوخ إلى جوار قصر ، . كما يتحاذى الشحاذ والأمير فى صفوف الصلاة بالمساجد ، أما اليوم فقد تبدل الأمر ، وأصبحت هناك قاهرتان : قاهرة مصرية ، وأخرى أوروبية ، لا يربط بينهما شىء ، وبينما الرمال وألوان الصحراء تغشى القاهرة القديمة والإهمال يسربلها بهموم جديدة ، كانت القاهرة الأوروبية تنفسح لأبينة وشوارع جديدة أنيقة ، مثل شارع محمد على الذى يربط القلعة بالأزبكية ، ضحت الحكومة فى سبيل استقامته بهدم الكثير من المساجد والقصور ذات القيمة التاريخية الرفيعة » !

وواقع الأمر أن تحديث القاهرة : تطلب شغل وتسوية الأرض الخراب حول المدينة ، وفتح طرق رئيسية وشرايين مواصلات جديدة ، وإنشاء ميادين وأماكن مفتوحة وزرع أشجار ، وبناء المصارف والنظافة المنتظمة . . كان هذا التنظيم المكانى يتطلب بدوره «إزالة بعض التجمعات العشوائية من الداخل » مثلما حدث خلال تنفيذ شق شارع محمد على . .

ويشير على باشا مبارك إلى أن إنشاء شارع محمد على ، البالغ طوله نحو الميلين ، قد

تطلب هدم نحو ٤٠٠ دار كبيرة و ٣٠٠ دار صغيرة ، فضلاً عن المطاحن والمخابز والحمامات والحوانيت ، بل وهدم عدد غير قليل من المساجد !

ويقول : « لما شرعت الحكومة فى فتح شارع محمد على وعمل رسمه ، جاء مروره من وسطها تقريباً ، فصدرت الأوامر للمحافظة بمشترى الأملاك الداخلة فى ذلك وهدمت الترب ونقل بعض العظام إلى قرافة الإمام الشافعى وغيرها ، والبعض الآخر عمل له صهريج مخصوص ودفن به ، وبنى عليه مسجد عرف بمسجد العظام ، وهو بقرب جامع العشماوى عن يمين المار بالشارع الموصل للعتبة الخضراء وعابدين »

يضيف على باشا مبارك فى وصفه لهذا الشارع قائلاً : « إن هذا الشارع من أعظم ما عمل بمدينة مصر القاهرة ، إذ بوجوده حصل نفع كبير وفوائد جمة للعامة ، وذلك كتنقية الهواء من الروائح الكريهة ، التى كانت توجب توالى الأمراض والأسقام على سكان الحارات والعطف التى قطعها ، وبعد أن كانت جميع الجهات التى مر بها قليلة القيمة ، مشحونة بالقاذورات ، أصبحت بمروره منها عالية القيمة ، مرغوبة السكن ، توازى أعظم مواقع القاهرة ، وقد بنى فى ضفتيه البيوت المشيدة ، كالعمارة الكبيرة المستجدة ذات الأماكن العلوية والسفلية من إنشاء الحاج محمد أبى جبل ، أحد التجار المشهورين ، وسراى الأمير حسن باشا الشريعى ، وسراى نعماتى باشا ، وسراى الأمير رستم باشا ، وغير ذلك من البيوت الكبيرة والصغيرة والحوانيت العديدة المتسعة » . .

تلك كانت رؤية المهندس والمؤرخ على باشا مبارك ، غير أن ما استلزمه إنشاء هذا الشارع من تضحيات جسيمة بمساجد وآثار جليلة ، كانت من الفداحة ، بحيث أن كثيراً من العلماء والكتاب تمنوا لو أن القائمين على تنفيذ هذا المشرع ، قد تنازلوا عن أمر استقامته ، لتلافى تلك الخسارة الجسيمة . . ويقول « آرثر رونيه ـ A.Rhoné» فى وصفه الساخر لهذا الشارع » . . إن تحديد مساره قد تم وفقاً للهوى وليس للدراسة المتأنية » !

فى عام ١٨٦٩م ، كانت الأملاك قد نزعت ، وتم هدم عدد من المساجد والبيوت والقصور والحمامات ، وبعضها قد أزيلت أنصافها دون واجهة خارجية ، فكان المشهد

أشبه « بمدينة تعرضت للقصف ، حيث المبانى فى كل مراحل الهدم ، ولا تزال مأهولة بالسكان ، وتكشف عن أغرب مشاهد الغرف الداخلية المنزلية » !

فى عام ١٨٧٢ م ، افتتح شارع محمد على (القلعة) الذى فاق فى اتساعه شارع «السكة الجديدة » وتميز عنه بوجود أرصفة متسعة على جانبيه ، تظللها الأشجار والبواكى، كما أضىء بطول امتداده بالمصابيح الغازية ، وكان سرور الخديو به عظيماً ، حتى أنه أمر بتنظيفه مرات ثلاث يوميا للحفاظ على رونقه وبهائه ، وليتحقق أخيراً حلم محمد على باشا !

حى الإسماعيلية :

شُيد حى الإسماعيلية فى زمن قياسى ، واحتل نفسى الحيز الذى كانت تشغله مزارع إبراهيم باشا ، وكان لمجانية الأراضى ، هبة من إسماعيل ، دور هام فى حركة العمران بالحى ، وقد تمكنت مصلحة التنظيم من إقامة هذا الحى بفضل تجانس وبنية الأراضى التى أعدها إبراهيم باشا ، إلى جانب إعفائها من الإجراءات الطويلة والمكلفة لا نتزاع الملكية وتحررها من عمليات التسوية اللازمة .

ويقول على باشا مبارك ، منسق السياسة الحضارية للخديو ، والذى تولى الإشراف على تخطيط حى الإسماعيلية ، وإعادة تعمير المناطق المحيطة بالأزبكية :

« هذه الخطة ظهرت فى زمن الخديو إسماعيل ، ونسبت إليه ، لأنه هو الآمر بإنشائها ، وهى تمتد بين جسر السبتية ، أعنى الطريق الموصل من مصر إلى بولاق ، وهو حدها البحرى ، وحدها الغربى ترعة الإسماعيلية ، الآخذة من قصر النيل وساحل النيل إلى قصر العينى ، وحدها القبلى شارع القصر العالى والخليج المصرى ، وحدها الشرقى سور البلد القديم ... أغلب مساحة هذه الخطة هى أرض اللوق ، وأكثر الأحكار التى ذكرها المقريزى ، وميدانى الصالح نجم الدين الناصر محمد بن قلاوون وبعض بساتين ، منها البستان المعروف قديماً ببستان الفاضل »

ومع تغير الدول والأحوال ، تخربت هذه الخطة ، وصارت عبارة عن كثبان أتربة وبرك مياه وأراض سباخ « . . ثم لما قيض الله للحكومة المصرية الخديو إسماعيل ، أبدل وحشتها أنسا ، ونظمها على هذا الرونق الجميل ، وجعل فى تخطيطها جميع

الشوارع والحارات على خطوط مستقيمة ، أغلبها متقاطع على زوايا قائمة ، وجعلت منازلها منفردة عن بعضها ، ودكت أرض شوارعها وحاراتها بالدقشوم ، جعل فى جانبى كل شارع وحارة استطراق للمشاة ، وجعل الوسط للعربات والحيوانات ، ومدت فى جميعها مواسير الماء لرش أرضها وسقى بساتينها ، ونصبت بها فنارات الغاز لإضاءتها وتنويرها ، فأصبحت من أبهج أخطاط القاهرة وأعمرها وسكنها الأمراء والأعيان » . .

كان التخطيط للحى الجديد مستوحياً من أوسمان ، واشتمل على شبكة من الشوارع تربط بين اثنى عشر ميدانا . . غير أن العمران الحقيقى للمنطقة ، لم يتم إلا بشكل تدريجى ، وظل الزائرون لتلك المنطقة ، يشعرون أنهم بإزاء مساحات من الأراضى المقسمة والمُعدة للبناء ، وليست حياً من الأحياء العظيمة !

حتى عام ١٨٧٤ م ، كانت المساحة التى تم شغلها نحو ٢٥٧ فداناً ، احتلت شبكة الطرق ٣٠٪ منها ، وشغلت المبانى ١٣ ٪ ، والباقى حدائق شاسعة مثلت احتياطياً للتوسع العمرانى مستقبلاً ، وتشير خريطة « جران بك » إلى ظهور شوارع كبيرة مثل : قصر النيل وسليمان باشا وقصر العينى . .

على مر التاريخ ، كانت مشروعات إنشاء القنوات وحماية الأراضى من طغيان مياه الفيضان ، تسبق دائما بناء الأحياء أو التوسع فى القديم منها ، لذا فقد كان إنشاء الخديو إسماعيل لترعة الإسماعيلية سبباً فى ظهور وعمران حيين جديدين : الإسماعيلية والفجالة ، ولم تكن هذه الترعة ، إلا جزءاً من برنامج أشمل لإقامة المرافق والمنشآت العامة ، اضطلع به إسماعيل ومضى فى تنفيذه دون عوائق . وصاحب حفر ترعة الإسماعيلية ، عدة مشروعات هندسية لتدعيم الجسور المقامة على النهر ، تحت إشراف المهندس الفرنسى « بروكار ـ †Brocard» وتم تدعيم شاطىء النهر شمال بولاق ، فى روض الفرج والساحل ، كما أصبحت جزيرة بولاق التى اشتهرت بالزمالك بمأمن من أخطار الفيضان .

وثمة تغييرات هامة طرأت على بعض المواقع ، حيث تم ردم قناة المغربى ، التى أضحت مجرد ترعة ثانوية للخليج المصرى ، أما الترعة التى أمر بحفرها محمد على باشا لصرف مياه الفيضان من الأزبكية وما حولها ، فقد جفت بجفاف منبعها ، إذ ردمت

بركة الأزبكية عام ١٨٦٤م ، وحل طريق قنطرة الدكة ، محل الترعة التى عرفت بهذا الاسم ، وتم تخطيط حديقة الأزبكية ، وأصبحت المنطقة المحيطة بها جاهزة لأن تمتد إليها يد التعمير . .

● نقلة حضارية :

واكب تلك المشروعات العامة ، محولات لتزويد القاهرة بمياه الشرب والغاز ومجار للصرف الصحى ، حيث أصبحت تلك المرافق ضرورة قصوى للمدينة الحديثة .

وفى ١٥ فبراير عام ١٨٦٥ م ، منحت الحكومة المصرية للشركة التى يملكها « شارل ليبون» والتى كانت تضطلع بتزويد مدينة الاسكندرية بالغاز ، امتيازاً لتزويد القاهرة ومصر القديمة وبولاق بالغاز كذلك، ومنحت الشركة قطعة أرض فى بولاق لتقيم عليها محطتها .

وفى ابريل من عام ١٨٦٧م ، احتفلت الحكومة بافتتاح هذا المرفق الهام ، احتفالاً رمزياً ، بإضاءة ميدان باب الحديد ومحطة السكك الحديدية ، ثم امتدت النقلة الحضارية لتشمل منطقة الأزبكية وحى الإسماعيلية الجديد ، وبعض الشوارع الرئيسية، وقصور الخديو . .

وكان إسماعيل باشا قد أصدر « أمراً كريماً » تحت عنوان : « منشور عام ودستور تام» جاء فيه : « من ديوان عموم الأشغال العمومية بالديار المصرية إلى كافة سكان القاهرة المعزية : هذه وثيقة عقد الشروط المنعقدة بتاريخ ١٥ فبراير سنة ١٨٦٥م (٢ رمضان سنة ١٢٨١ هـ) مع ذيلها بين الحكومة الخديوية والخواجة شارل لوبون أحد المهندسين الفرنسيين ، فيما يتعلق بمادة هذا الأمر العظيم والخير العميم ، الذى لا شك فى أنه يعد من المآثر الخديوية الجليلة والمفاخر العصرية الجميلة : مادة التنوير بالغاز فى الشوراع والحارات والمدائن والساحات العمومية بمدينة القاهرة المعزية ؛ التى ستصير به هذه الحاضرة المصرية مشرقة الأنوار ، كأنما لياليها نهار ، على منوال مدينة الاسكندرية وغيرها من مدن البلاد الأجنبية » .

وقد اشتمل « عقد شروط إنشاء وعمارة معمل التنوير بالغاز بمصر القاهرة » على ١٧

بنداً تحدد التعهدات الملتزم بها شارل لوبون دون امتياز أو مسئولية من الحكومة :

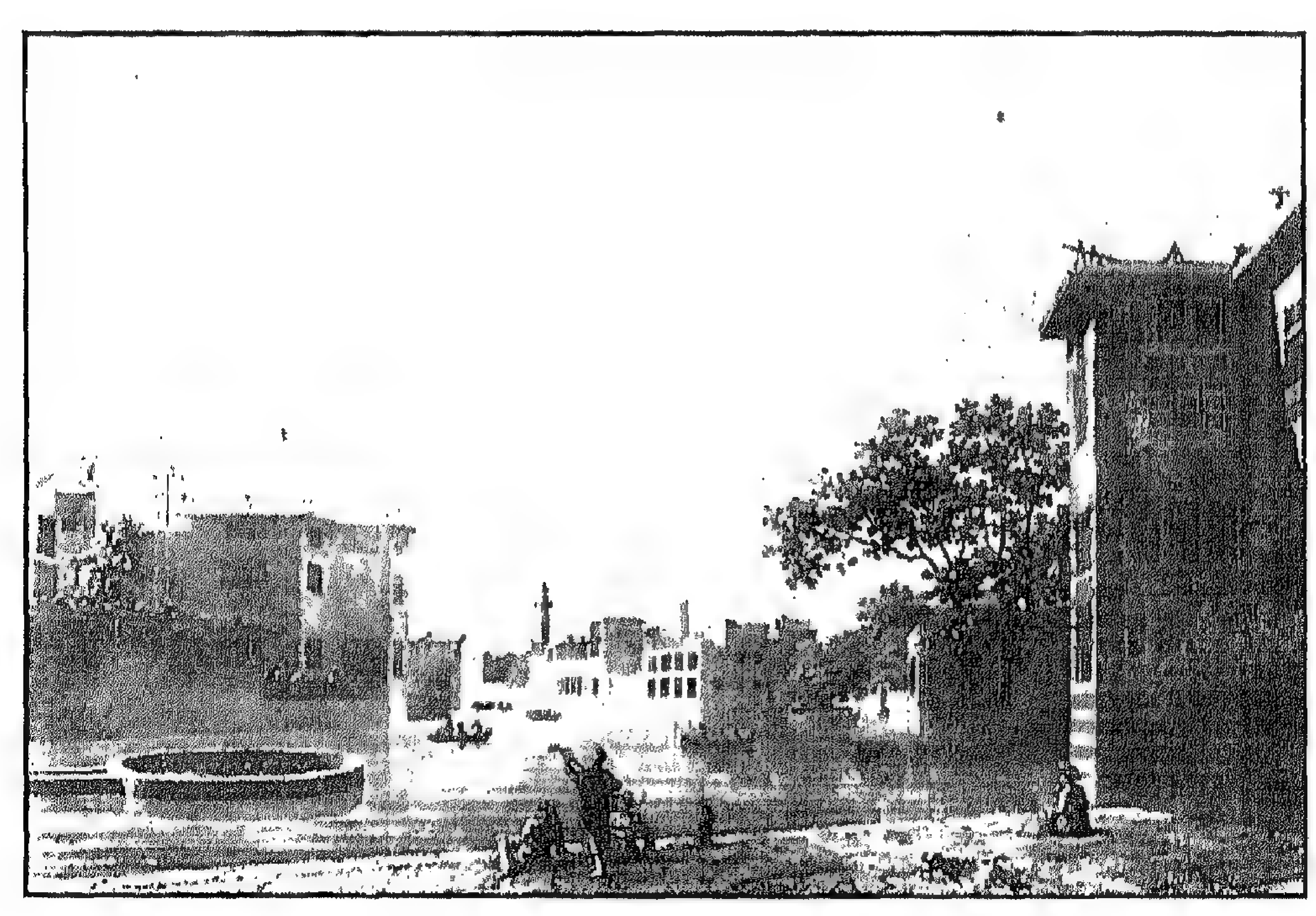
« أذن سعادة خديو مصر إلى جناب الخواجة شارل لوبون المتعهد بعملية تنوير مدينة الاسكندرية بالغاز ، بأنه يعمل فى مدينة القاهرة وتوابعها (بولاق ومصر القديمة) على ذمة نفسه من حيث الأرباح والخسائر جميع الأعمال اللازمة لإنشاء عمارة معمل تنوير بالغاز ، مع كل ما يلزم لعمل المجارى اللازمة لوضع مواسير الغاز ، وأعطيت له هذه الرخصة بذلك بشرط ألا يترتب عليها من طرف الحكومة احتكار ولا امتياز ولا مسئولية»

وقد نص البند الأول على أن تكون « جميع المهمات التى يصير جلبها لهذه العملية من الصنف العالى ، وأن تكون جميع الأعمال التى يصير إجراؤها فيها متقنة على مقتضى أصول الصناعة ، ووفقاً للشروط الأمنية وأصول قانون الصحة العامة المتبعة فى مثل هذه المادة ببلاد أوروبا . . » !

وكانت الحكومة قد منحت امتيازاً للشركة التى يملكها مسيو « كورديه » بناء على «ديكريتو خديوى » بتاريخ ١٧ مايو عام ١٨٦٥م ، لتزويد القاهرة وتوابعها بالمياه ، ومسيو كورديه هو الذى أشرف على تزويد أربعين مدينة فرنسية بالمياه ، كما نال امتيازاً مماثلا بالاسكندرية ، وتأسست شركة مساهمة لتمويل المشروع ، غير أن هذا المشروع قد صادفته عقبات مالية وهندسية ، انتهت بإعفاء كورديه من مهمته ، مما أدى إلى تأخر الانتهاء من تنفيذ المشروع إلى عام ١٨٧٢م . وفى ذلك العام ، مدت شركة المياه شبكة مزدوجة من القنوات إلى حى الإسماعيلية ـ بشكل خاص ـ لتوصيل المياه اللازمة للاستهلاك المنزلى ، ورى الحدائق المنتشرة فى هذا الحى بمياه غير منقاه . وقد شيدت الشركة محطة لضخ المياه عند فم الخليج .

الأمير أزبك وتأسيس الأزبكية

حتى القرن الرابع عشر الميلادى ، تركزت معظم المنشآت الأميرية داخل نطاق القاهرة الفاطمية ، وهى الحقيقة التى تؤكدها قائمة القصور التى أشار إليها المقريزى فى خططه . وقد تغير هذا الوضع فى عصر سلاطين المماليك . حيث أصبحت المدينة القديمة مركزاً تجارياً هائلاً ، أفقدها طبيعتها السكانية ، ومن بين مساكن الأمراء العشرين التى ذكرها المؤرخ « ابن زنبال » عقب الفتح العثمانى . لم يبق منها سوى اثنين داخل حدود المدينة الفاطمية . انظر لوحة (٩) .



لوحة (٩)
بركة الفيل فى زمن الحملة الفرنسية

وقد بدأ أبناء الطبقة الأرستقراطية فى تشييد قصورهم خارج نواة المدينة خاصة على شواطىء البرك والخليج ، وكانت بركة « الفيل » (شكل ١٠) الواقعة على طول الامتداد الجنوبى للمدينة بين القلعة والخليج ، هى حى السكنى المفضل بالقاهرة ، خلال العصر المملوكى ، بالإضافة إلى البرك التى ذكرها المقريزى ، ومنها :

- بركة قارون : بالقرب من حى ابن طولون .
- بركة الصباعين : بين الفسطاط والقاهرة .
- بركة الحبش : شمال الفسطاط .
- بركة الناصرية : جنوب باب اللوق .
- بركة الشقاف : فى باب اللوق .
- بركة الرطلى : شمال باب الشعرية .
- بركة قرموط : جنوبى غرب المقس .

وقد أشار عدد من مؤرخى الخطط والرحالة إلى أنساق رائعة للسكن والحياة حول هذه البرك ، التى كان يغطى بعضها بالزهور فى المناسبات الاحتفالية ! . . فى موسم الفيضان ، أما عقب انحسار المياه ، فكانت تتحول إلى أماكن موبوءة !

كان الأمير «سيف الدين أزبك بن ططخ » الجركسى ، مملوكاً للسلطان برسباى ثم السلطان جقمق ، وتزوج بابنته ثم بعد وفاتها اقترن بأختها ، ونال حظوة لدى السلاطين ، فكان حاجباً للحجاب ، وحاكماً لسوريا ، قبل أن يصبح قائدا «أتابك » لجيوش السلطان قا يتباى .

تمتع الأمير أزبك بثراء طائل ، ونفوذ سياسى واجتماعى هائل ، وقد أشار ابن إياس إلى أن ثروة أزبك قد آلت بعد رحيله إلى السلطان . وكان من الصعب حصرها ، وقد أنفق منها على تجهيز الحملات العسكرية .



لـوحـة (١٠)
بركة الأزبكية ـ عام ١٨٠٠ م

وكانت صورة منطقة الأزبكية ـ كما أشار ابن إياس ـ عبارة عن سهل مهجور ، تناثرت به بعض مقاصير الصوفية وبعض أشجار الأكاسيا ومناظر اللوق ، وكان كافور الإخشيدى قد حفر قناة الجاكار عند فم الخور ، تقطعها قنطرة الدكة ، وكانت أحد متنزهات القاهرة ، إلى أن جفت وردمت ثم احتفر السلطان الناصر محمد بن قلاوون القناة الناصرية ، أو مايعرف بالخليج الناصرى عام ٧٢٤ هـ .

وبمرور الزمان ، أهملت المنطقة حتى عام ٨٨٠هـ ، فى عهد السلطان قا يتباى ، الذى منح للأمير أزبك بها قطعة أرض للمرعى ، وبدأ فى حفر بركة فى موقع « بطن البقرة» القديم ، وأوصل إليها المياه من القناة الناصرية ، بعد أن أعاد حفر جزء من خليج الجاكار ، وأصلح قنطرة الدكة ، ومهد متنزها حول البركة التى نسبها إلى اسمه ، وبدأ بعض الأمراء فى تشييد قصور وبيوت أنيقة حول البركة ، وقد بلغت تكلفة تعمير المنطقة ٢٠٠ ألف دينار ، على مساحة تقدر بـ ٦٠ فداناً ، وقد بدأ العمل بها فى ذى الحجة سنة ٨٨٠ هـ / ١٤٧٦م واكتملت سنة ٨٨٩ هـ / ١٤٨٤م ، وكان افتتاحها أعظم حدث فى ذلك العصر ، واحتفل لأول مرة بالأزبكية بـ « كسر الخليج » فى يوم وفاء النيل عام ٨٩٠هـ / ١٤٨٥م. وكان عامة الناس يتجمعون فى خيام فى فصل الربيع وفى موسم الفيضان ، فى مهرجان صاخب ، بينما قوارب النزهة بديعة الأشكال مختلفة الألوان تغطى سطح البركة ، وقد دعا الأمير أزبك السلطان قايتباى لقضاء ليلة فى قصره الجديد .

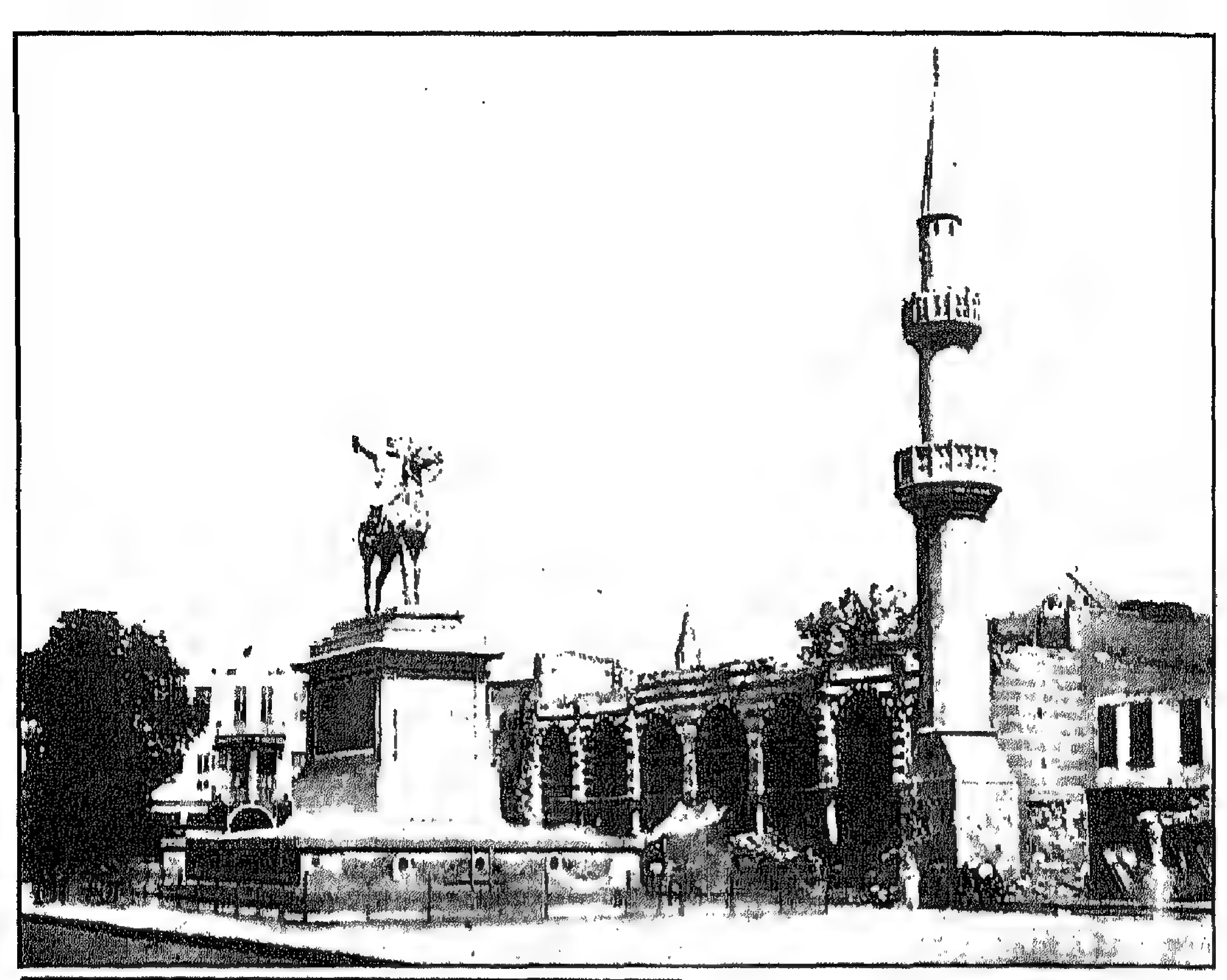
التخطيط العام للأزبكية :

اكتملت عمارة الأزبكية « حتى صارت مدينة على انفرادها» كما قال ابن إياس، كذلك أشار الجبرتى إلى شهرتها كمركز للتنزه والملذات والمتع الليلية فى زمن الفيضان ، وأصبحت منطقة جذب للطبقة « البورجوازية » من البكوات وكبار التجار والأعيان . .

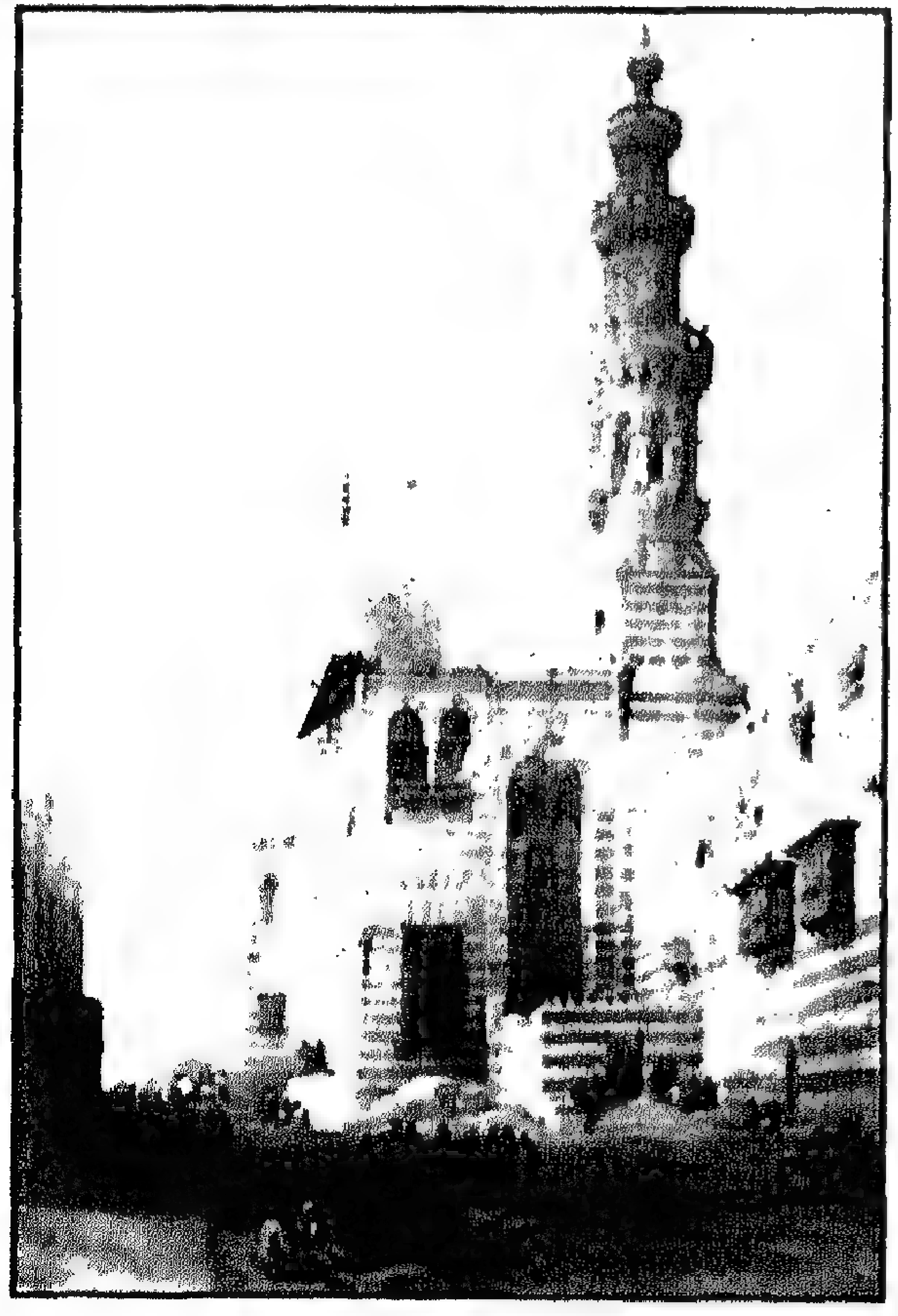
وبإيجاز سنعرض للتخطيط العام للأزبكية : ففى الركن الجنوبى الشرقى ، تربع متألقاً قصر الأمير أزبك ، يتاخمه من الجنوب ، ربع من عشر حجرات ، بأسفله عشرة حوانيت ، تطل على الطريق ، وفيما يلى الربع ، الطبلخانة وقاعة متصلة بالمقعد ، وإلى الغرب ممر يربط الربع بمنزل المسئول عن « شد العماير » يفتح على البركة وعلى الشارع ، ملحق به اسطبل ، وفى مواجهته شيد مسجد أزبك الذى كانت تعلوه مكتبة ، وبجواره منزل خطيب وإمام المسجد ، الذى عين لإقامة الشعائر به عشرون من شيوخ الصوفية ، وعشرون آخرون لإدارته والإشراف على الأوقاف التابعة له ، ثم مجموعة من الحوانيت ومخازن السلاح والغلال ومطحن ، وحمام للرجال وآخر للنساء ، وخلفية المسجد كانت عبارة عن حديقة ورحبة ضمت ساقية وميضأة وحظيرة للبقر ومخزن للتبن وبئر ومخزن وموقد للحمامات ، ومن الشرق سبيل يعلوه كُتاب ، ومن الغرب ، مخبز وقيسارية ، على جانبى بوابتها أربعة حوانيت ، وتكونت من عدة طوابق شملت ٨٩ حانوتاً و ٢٩ مقعداً ، حول فناء مستطيل تتوسطه ميضأة ، وبالقرب من القيسارية ، مزود لشرب الحيوانات ، وبعض المساكن والمخازن وبئر ومجموعة سواقٍ . . تحيط بهذه المنشآت حدائق رائعة ، تميزها أشجار الفاكهة ، تمتد إلى حارة المناصرة جنوباً ، والطريق المؤدى إلى قنطرة الموسكى والخليج غرباً . أنظر لوحة (١١).

بعد وفاة أزبك سنة ٩٠٤هـ / ١٤٩٩م ، والذى دفن بمسجد قايتباى ، انتقل خليفته الأتابك الجديد « جان بلاط » إلى قصره الذى احتفل فيه بزواجه من «أصلباى» أرملة السلطان قايتباى وأم السلطان الناصر محمد . أنظر لوحة (١٢).

وفى العصر العثمانى ، عانت الأزبكية كثيراً من جنود الجيش العثمانى ، فنهبت



لـوحـة (١١)
بقايا جامع أزبك بالقاهرة ـ عام ١٨٦٨ م



لـوحـة (١٢)
جامع قايتباى ـ عام ١٨٤٠ م

وخربت قصورها ومنازلها ، وتحول الجزء الجنوبى الشرقى إلى جبانة ـ كما تشير خريطة وصف مصر .

ومع بدايات القرن الثامن عشر ، عاد نوع من الاهتمام بالمنطقة ، شكل بوادر الازدهار الذى شهدته فيما بعد ، وتطورت المنطقة فيما بين قنطرة الدكة غرباً والخليج شرقاً ، لتشكل الحى القبطى الرئيسى بالقاهرة ، والذى عرف بـ « حارة النصارى » . . وكانت دوره حافلة بالمشربيات الرائعة. .

وازدانت الأزبكية بالقصور والدور الفخمة ، فهى سكن الأمراء ، كالأمير رضوان كتخدا الجلفى ، والأمير الألفى بك ، الذى تحول قصره إلى مقر لقيادة الحملة الفرنسية وأصبح منزلاً لـ « سارى عسكر الفرنسوية » ويستعرض أمامه قواته ، ومواكب الاحتفالات الرسمية والشعبية . . كما كانت الأزبكية الحى المفضل لسكنى الطبقة البورجوازية : بعض شيوخ الأزهر كالشيخ عبد الله الشبرواى والشيخ عبد الله الشرقاوى ، وكبار التجار ، وبيوتات شهيرة مثل بيت البكرية ـ سلالة الخليفة أبى بكر الصديق ـ الذين توارثوا نقابة السادة الأشراف ومشيخة الطرق الصوفية وكانت لهم حظوة سياسية واجتماعية كبيرة . . وبيت الشرايبى « إحدى دور المجد » كما يقول الجبرتى ، وكانوا من أعيان التجار ، اشتهروا بثرائهم ومكارم أخلاقهم ، كما اشتهروا بمجالس العلم التى كان يقصدها العلماء والأمراء ، وبيوتهم مفتوحة للجميع لينهلوا من ذخائر العلوم ، بالاطلاع أو بالاستعارة . . ودار عثمان بك الأشقر التى تحولت إلى «مطبعة جيش الشرق » جيش الحملة الفرنسية ، والتى تولى إدارتها مسيو « مارسيل » المستشرق المعروف .

وكانت هناك ـ حتى عهد الملك فؤاد ـ فى جنوبى غرب الأزبكية ، ساحة شاسعة مخصصة للاحتفال بمولد النبى ، ويشير الجبرتى إلى احتفال عام ١٧٩٩ ، فيقول :

« عمل مولد النبى بالأزبكية ، ودعا الشيخ خليل البكرى سارى عسكر الكبير مع جماعة من أعيانهم وتعشوا عنده ، وضربوا ببركة الأزبكية مدافع وعملوا حراقة وسواريخ ونادوا فى ذلك اليوم بالزينة وفتح الأسواق والدكاكين ليلاً ، وإسراج القناديل واصطناع مهرجان » !

ويقول المستشرق البريطانى « إدوارد لين » عن احتفال عام ١٨٣٤ :

« تجرى احتفالات المولد فى الحى الجنوبى الغربى ، من الساحة الرحبة المعروفة ببركة الأزبكية ، التى تتحول فى موسم الفيضان إلى بحيرة كبيرة ، حيث تنصب خيام وسرادقات للدراويش الذين يجتمعون كل ليلة للاحتفال وإقامة حلقات الذكر ... »

وكان العالم الفرنسى « جومار الذى صحب حملة بونابرت ، مع مجموعة من العلماء الأفذاذ ، قد وصف الأزبكية بأن مساحتها « تفوق مساحة ميدان لويس الخامس عشر (الكونكورد حالياً) ثلاث مرات . . وعندما يصل فيضان النيل إلى ذروته فى سبتمبر ، تمتلىء بركة الأزبكية بالمياه التى يصل ارتفاعها لعدة أقدام ، عندئذ تصبح حوضاً واسعاً تغطيه المراكب ، التى تضاء أثناء الليل ، وتضفى على المكان مشهداً مثيراً للإعجاب ، وبينما تكسو الخضرة أرض البركة شتاءً ، تصبح جافة مغبرة فى الربيع ، ويحف بها حى الأقباط ، وقصر الألفى بك ومنازل الشيوخ الأكثر ثراءً»

وقال الأديب والرحالة الفرنسى « سافارى » الذى شُغف بمصر : « كان الزحام شديداً عند الأزبكية ، التى يبلغ محيطها أكثر من نصف فرسخ ، بحيرة رحبة تحيط بها قصور البكوات ، أجمل بيوت المدينة ، وتضاء بأنوار مختلفة الألوان ، وتسبح فوقها الآلاف من القوارب ذات الصوراى ، التى تتدلى منها المصابيح المضيئة ، فى هالة من الأضواء المتحركة ، تتغير مشاهدها فى كل لحظة ، وعندما يرخى الليل سدوله ، نرى الكثير من القوارب الذهبية الخاصة بكبار الشخصيات ، يتنزهون بها برفقة زوجاتهم ، ولا يمر يوم ، دون أن تطلق الألعاب النارية ، ويسمع عزف الموسيقى ، وتفتح الستائر والمشربيات ، فتظهر من ورائها سيدات الطبقة الراقية ، فلم يكن يتاح لعين أن تلمح إحداهن فى الأوقات العادية ، فى الحقيقة ، هذا واحد من أجمل المناظر التى يمكن لليل أن يهبها للعيون» !

حديقة الأزبكية :

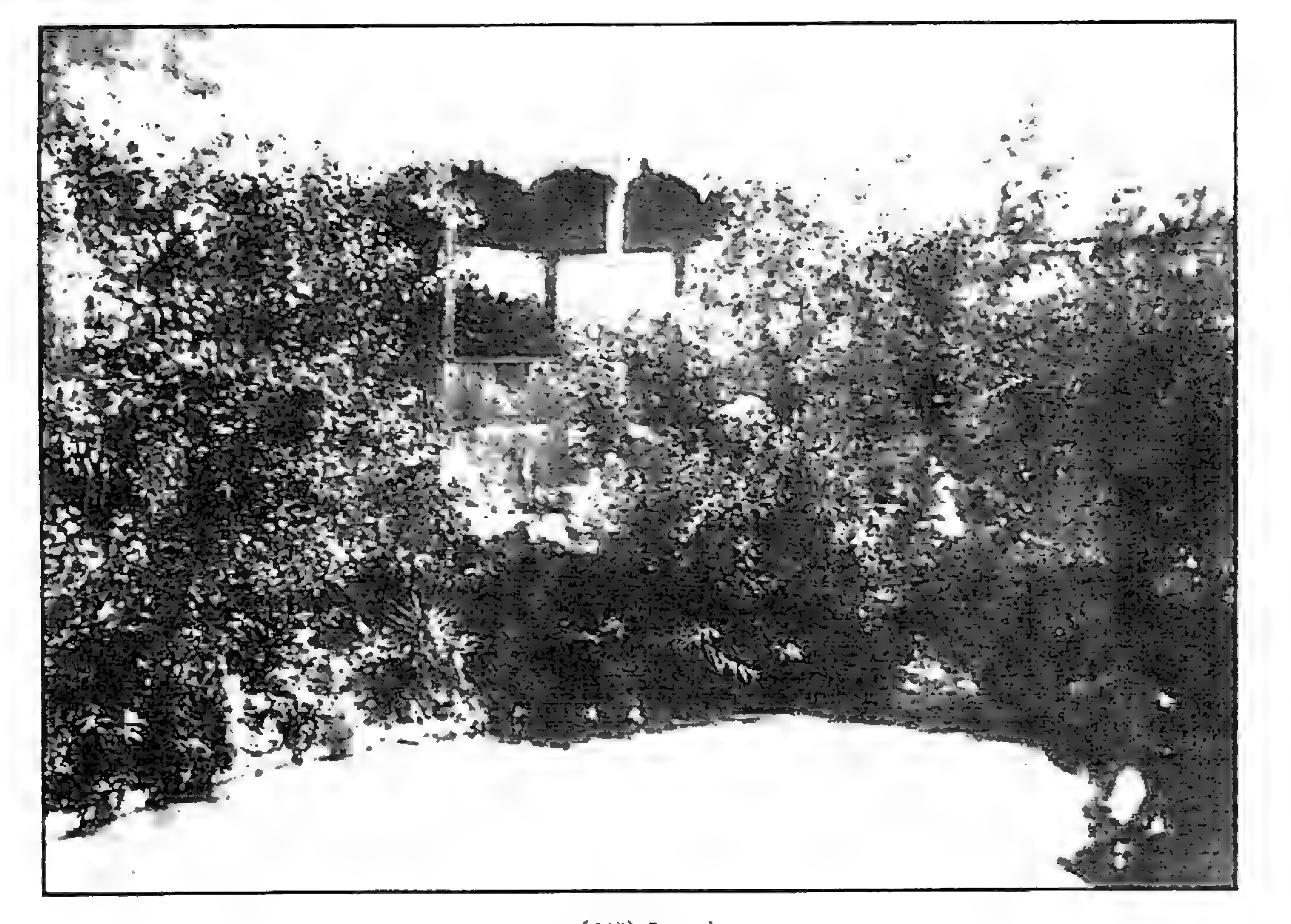
تمثل المساحات الخضراء ـ جانباً شديد الأهمية ـ فى النسيج الحضرى للقاهرة وتطورها خلال القرن التاسع عشر ، أقصد الأشكال المختلفة لتداخل الحدائق والبساتين فى تكوين المدينة ، هذا التداخل أسهم فى تحديد عمليات الكثافة السكانية فى الحيز الحضرى . .

حى الحلمية ـ على سبيل المثال ـ الذى حل محل عدد كبير من الحدائق والقصور ، التى كانت مشيدة فوق بركة الفيل القديمة ، وحدائق شبرا التى كانت منطقة جذب للأمراء والأعيان فى عهد محمد على باشا ، للنزهة والإقامة ، حتى نهاية السبعينيات من القرن الماضى ، وحديقة « روستى » الشهيرة بالقرب من الأزبكية ، التى أقيم عليها حى تجارى بدءاً من عام ١٨٩٠ .

عند الشروع فى عملية تنظيم ميدان العتبة الخضراء وفتح شارع محمد على (القلعة) هدم جامع الأمير أزبك ، وكثير من البيوت والرباع والزوايا والحمامات ومخازن الغلال والحوانيت ، وردمت بركة الأزبكية عام ١٨٦٤ ، بعد قرابة أربعة قرون من حفرها ، وشيدت حديقة الأزبكية ، تحت إشراف المهندس الفرنسى « باريل ديشان ـ J.P. De-schamps » الذى كان مسئولاً عن بساتين باريس ، على نمط حديقة « مونسو » وحدائق « ريفولى » . . أنظر لوحة (١٣)

وكانت مساحة الحديقة عشرين فداناً ، مزودة بـ ٢٥٠٠ مصباح غاز ، وأقيم بها مسرح للعروض الكوميدية ، وعرضت عليه فرق فرنسية وإيطالية ، وحضر الخديو إسماعيل بعض هذه العروض . . كذلك أقيمت بحيرة رائعة وجبلاية صناعية وممرات مظللة ، وجسور على بحيرات صغيرة وقنوات ، وفى افتتاح الحديقة بحضور إسماعيل باشا ، كانت مزودة بحوانيت ومعمل تصوير، ومنصة لبيع الدخان ، ومنصة أخرى للرماية ، ومطاعم ومقاه أوربية وشرقية ، ومقصورة صينية ، ومراكب للنزهة تسير بالبدال ، وفرقة الموسيقى الخديوية تصدح بمارشات عسكرية وألحان شرقية وأوروبية .

وغُرس بالحديقة مجموعات من أندر أنواع الأشجار ، استوردها « باريل بك» من



لوحة (١٣)

جانب من بحيرة الأزبكية وكشك الموسيقى

أوروبا وأفريقيا والهند والبرازيل ، ومن كوبا « النخلة الملكية » . . ومن استراليا الشجرة التى اشتهرت باسم « بودرة العفريت » !

وعلى شرف الإمبراطورة « أوجينى » . . غُرست شجرة أطلق عليها « أو جينيا Euge-nia Jambolana» . . وشجرة شعثاء أطلق عليها « واشنطونيا_Washingtonia Fil-Fera» تكريماً لاسم جورج واشنطن ، ويوجد بعض من هذه الأشجار بحديقة الأسماك بالزمالك وحديقة الأورمان بالجيزة ، وكان يحيط بحديقة الازبكية ، سور حديدى ضخم تتخلله أربعة أبواب ، وأطلق على الشوارع المواجهة لهذه الأبواب . اسم الباب المقابل لكل منها ، ومازال محتفظاً باسمه : شارع الباب البحرى ، الموصل لشارع نجيب الريحانى ، وشارع الباب الشرقى المواجه لموقف الأتوبيسات العامة .

فى سنة ١٨٦٩ ، شيدت دار الأوبرا الخديوية ، وفى عام ١٨٧٣ ، نصب تمثال إبراهيم باشا ، الذى أطلق اسمه على ميدان الأوبرا (التياترو) وكان باريل بك قد أشرف على عملية تمهيد شارع الأهرام ، وغرس على جانبيه أشجار الجميز والبرتقال والأكاسيا ، من أجل عيون أوجينى الجميلة . . ! كذلك قام بتصميم وتنفيذ متنزه كبير فى الجزيرة الكبيرة « الزمالك » حيث شيد فيها بعد نادى الخديو إسماعيل (نادى الجزيرة الرياضى) .

وكانت شركة فرنسية قد قامت فيما بين عامى ١٨٦٣و ١٨٦٥ بردم الجزء المتخلف من تحويل مجرى النيل شرقاً ، وأنشأ إسماعيل باشا فى هذا الجزء : بساتين الأورمان ، وسراى الجيزة ، التى كانت حدائقها ممتدة إلى موقع كوبرى عباس ، وفوق مساحة مقدارها خمسون فدانا من بساتين السراى ، أقيمت حديقة الحيوان عام ١٨٩٠ ، ثم ضُم إليها جزء من بساتين الأورمان ، وفى هذه السراى ، مكثت مقتنيات متحف بولاق، من كنوز مصر القديمة منذ عام ١٨٩١حتى عام ١٩٠٢ ، وقد هدمت سراى الجيزة عام ١٩٠٣ ، وخصصت أرضها لمبانى مدرسة (كلية) الزراعة ، ومدرسة الطب البيطرى ، وبعض العمارات والمنازل ! وتجدر الإشارة إلى أن الملك فؤاد قد ولد بهذه السراى فى ٢٦مارس ١٨٦٨ .

وقد تولى باريل بك تنفيذ أعظم مشروعاته : بساتين الأورمان ، التى كانت مساحتها ٤٦٥ فداناً ، ونسقت بها الأشجار النادرة المستوردة من أوربا وأفريقيا والصين والهند ، بعد أن تم تغطية الأراضى بطمى النيل بارتفاع مترين ، وكان الخديو قد أمر بمد خط سكة حديدية خاصة لضمان سرعة إنجاز هذا المشروع ، لتضارع فى بهجتها وروعتها حدائق الأزبكية .

قاهرة إسماعيل فى الوثائق الرسمية الأجنبية

● تقرير بيرد سلى :

إلى جانب وصف القاهرة وحياة مجتمعها ، التى سجلتها مشاهدات الرحالة والأدباء والفنانين الأوروبيين . . هناك أيضاً الوثائق الرسمية ، أعنى بها تلك التقارير التى كان القناصل الأجانب يرسلون بها إلى حكوماتهم ، ولست فى حاجة إلى بيان مدى أهمية هذه الوثائق الأجنبية التى تعد مرجعاً من الطراز الأول ، يكشف النقاب عن جوانب هامة فى تاريخ مصر الحديث ، ويجلو حقائق رائعة فى تاريخ حافل لشعب كان له القدح المعلى فى العصور الخالية . . !

* من بيرد سلى قنصل الولايات المتحدة إلى وزارة الخارجية الأمريكية :

القاهرة فى ٩ نوفمبر عام ١٨٧٢ .

«رأى إسماعيل ما يترتب من الفوائد على إنشاء مركز دائم لحكومته ، تلتف حوله مختلف الوزارات ، فقرر ألا يجعل القاهرة عاصمة ملكه فحسب ، بل أن يجعلها عاصمة تليق بمصر ، لذلك أنفق أموالاً كثيرة ، وبدأ الجهود فى همة قلما يتحلى بها ـ أمير شرقى ـ فعكف على العمل فى الخمس سنوات الأخيرة لتجميل المدينة ، التى يمكن تفضيلها اليوم على عدة عواصم أوربية . .» !

* من بيردسلى قنصل الولايات المتحدة إلى وزارة الخارجية الأمريكية :

القاهرة فى ١٥ سبتمبر عام ١٨٧٣ .

« بلغ التجميل والتغيير فى القاهرة ، منذ بضع سنوات ، مدى يصعب على الأجنبى تقدير طبيعته ومداه حق التقدير . .

سكان القاهرة نصف مليون نسمة ، وهى قائمة بالقرب من المقطم ، على مسيرة ميل ونصف الميل من النيل ، ومنذ ست سنوات ، لم يكن الحيز الواقع بين القاهرة والنيل وبولاق ، إلا أرضاً واسعة منخفضة ، تغمرها مياه الفيضان ، ولا يزرع منها غير مساحات ضئيلة عند انحسار المياه ، وهذا الحيز ، هو اليوم الحى الجديد الجميل الذى يسمى : حى الإسماعيلية ، تكريماً لسمو الخديو ، وقد ردم على ارتفاع يتراوح بين ستة وثمانية أقدام بالأتربة التى جلبت من أنحاء المدينة ، وقد تم تخطيط طرق جديدة واسعة لسير العربات ، تحف بها الأشجار ، ومنحت الأرض بالمجان ، لمن يتعهد بأن يقيم عليها بناء معين الرسم . . هكذا أنشئت مدينة جديدة تماماً تتألف من أبنية رائعة ، تمتد من المدينة القديمة إلى ضفاف النيل ، فكأنها نشأت بفعل السحر !

كانت البقعة الشاسعة المعروفة باسم : الأزبكية ، تقوم على جوانبها مجموعات من الدور الأوربية ، يتألف منها الحى الافرنجى ، ولم تكن هذه البقعة ـ أيام الفيضان ـ إلا بحيرة واسعة ، فإذا انحسر الماء ، أصبحت مأوى للكلاب ، ومسرحاً للجنايات ومجتمعاً للسوقة ، وقد استحالت اليوم إلى حديقة عمومية رائعة الجمال ، ذات ممرات رملية وطرق ظليلة ومروج خضراء ، ومما يأخذ فيها بالألباب : بحيرة صناعية . هى آية فى الجمال ، وتحف بالحديقة أبنية لطيفة المنظر ، منسقة على طراز واحد .


فى داخل المدينة ، خطت طرق جديدة متسعة ، توفر سبل المواصلات ، وتجلب الهواء والنور إلى أحياء تزدحم بالسكان ، وتوفر الماكينات الماء العذب لأحياء المدينة بأسرها ، مقابل مساهمة بسيطة فى النفقات اللازمة ، وهناك مصنع للغاز يورد ستة آلاف متر مكعب فى اليوم ، ينير الطرق والميادين العامة .

والطرق الجديدة مرصوفة جميعها رصفاً متقناً ، ومحفوفة بالأفاريز ، وبها مجار ، كما أنشىء فى شمال المدينة حى جديد اسمه الفجالة ، وفى الشمال الشرقى تم تخطيط حى جديد آخر ، ويجرى العمل لردم الحفر وتعبيد الأرض ، وقد تراكمت عليها أكوام من الأتربة ، نقلت إليها من أطراف المدينة ، على مر الأحقاب ، ويخترق هذين الحيين طريق واسع يوصل إلى موقع هليوبوليس القديم وإلى العباسية ، على طرف الصحراء ، حيث أقيمت المدارس الحربية .

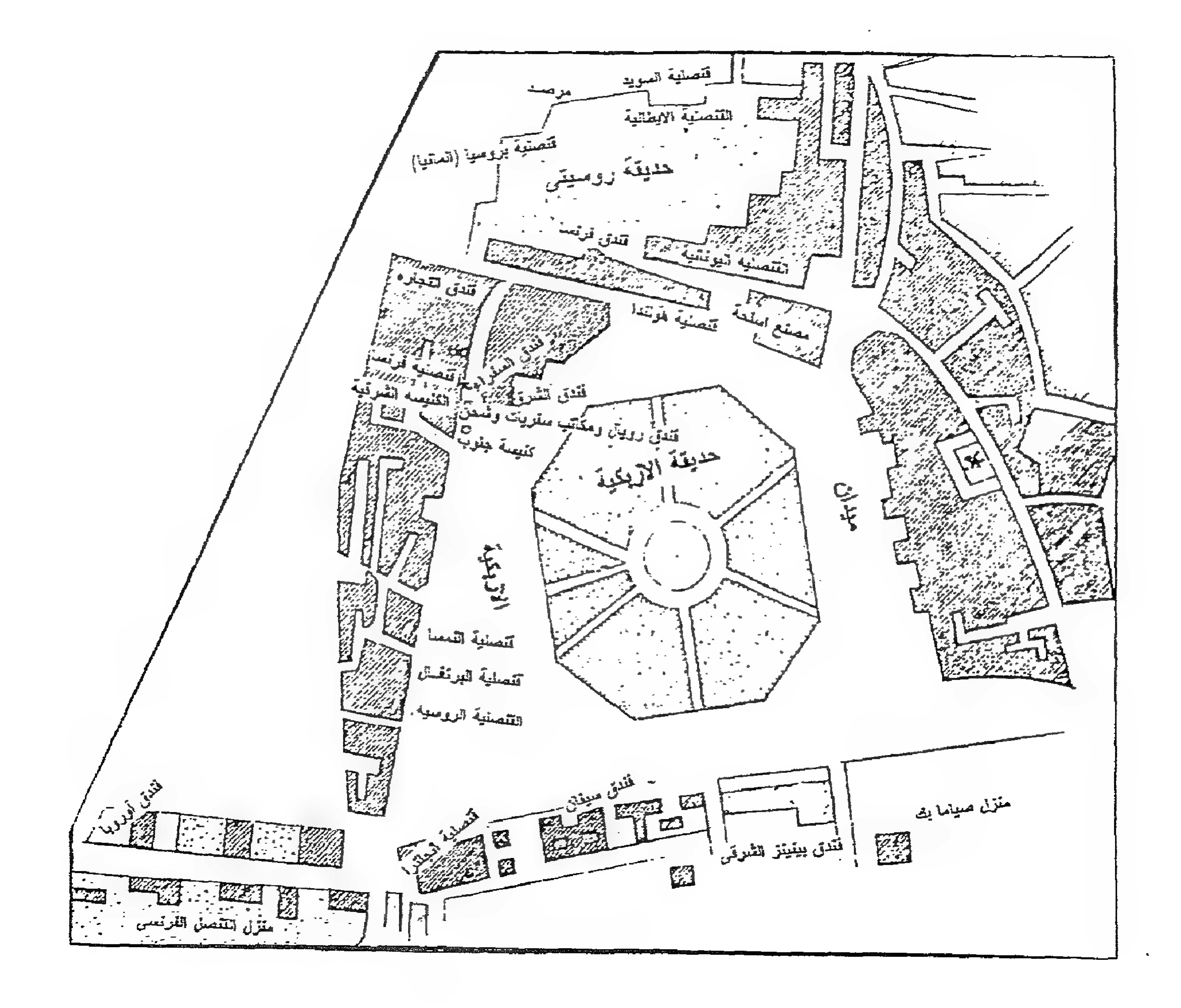
كذلك أنشىء طريق جميل جداً للعربات ينتهى إلى الأهرام ، ويجتاز الجسرين الجديدين فى الجزيرة ، ويجرى العمل على تحويل هذه الجزيرة - بخطى سريعة - إلى حديقة عامة غناء وحديقة أخرى للحيوانات ، وسيقام فيها أيضاً المتحف المزمع إنشاؤه قريباً ، وكذلك شرع فى إنشاء حديقة شاسعة شرق الجزيرة .

وقد شيد الخديو مسرحاً ضخماً للأوبرا الإيطالية وآخر أصغر منه للكوميديا الفرنسية ، وأقيمت حنفيات عامة وبعض المساجد والعديد من القصور .

وفى جميع المجالات نشاهد دلائل النشاط والتحديث ، التى تذكرنا بمدنية الغرب ، أكثر مما تذكرنا بتقاليد الشرق » !



SHEET 38-I.
EZBEKĪYA GARDEN
حديقة الأزبكية
Ezbekiya Garden Theatre
Fencing Club
SHĀRIʿ EL TIYĀTRO
شارع التياترو
ميدان التياترو
(ميدان الأوبرا)
MIDĀN EL TIYĀTRO
الأوبرا الملكية
Royal Opera House
SHĀRIʿ TĀHIR
Public Debt Administration
General Post Office
البوستة العمومية
Credit Lyonnais
MIDĀN AZBAK
ميدان ازبك
SHĀRIʿ AZBAK
SHĀRIʿ EL BUSTA
المحكمة المختلطة
Mixed Tribunal
Central Fire Brigade
SH. EL MUSKI
MIDĀN EL ʿATABA EL KHADRA
SHĀRIʿ SALAMA



قنصلية السويد
مرصد
القنصلية الايطالية
قنصلية بروسيا (المانيا)
حديقة روسيتي
فندق فرنسا
القنصلية اليونانية
فندق التجارة
قنصلية هولندا
مصنع اسلحة
قنصلية فرنسا
فندق الشرق
الكنيسة الشرقية
حديقة الازبكية
ميدان
الازبكية
قنصلية النمسا
قنصلية البرتغال
القنصلية الروسية
فندق أوروبا
منزل القنصل الفرنسي

عود إلى خطط تطوير القاهرة القديمة :

فى عام ١٨٧٥ ، استأنف إسماعيل خططه الطموحة التى أعدت لتطوير القاهرة القديمة ، حيث افتتح شارع كلوت بك ، ويبدأ من ميدان باب الحديد وينتهى بميدان الخازندار ، ويعتبر امتداداً لشارع محمد على ، وقد شيدت واجهات منازله فوق بواك ، على نفس الطراز المستخدم فى الريف الفرنسى فى ذلك العصر ، واشتمل على عدد من الفنادق المتوسطة . . وقسمت منطقة الفجالة ، بدءاً من ترعة الإسماعيلية إلى سور القاهرة عرضاً ، ومن جامع أولاد عنان إلى بوابة الحسينية طولاً ، لتصبح حياً عامراً بالدور والقصور والحوانيت والمتنزهات . .

وافتتح شارع عبد العزيز ، الممتد من ميدان العتبة الخضراء إلى ميدان عابدين (الجمهورية) وسمى باسم السلطان عبد العزيز تخليدًا لزيارته لمصر ، وقد وصل إلى القاهرة فى ١٩ شوال سنة ١٢٧٩ ، مستقلاً القطار من الاسكندرية ، وكانت المرة الأولى التى يرى فيها قطار السكة الحديدية ! . . وكان إسماعيل قد أصدر أمراً إلى محافظة مصر فى ٣ صفر سنة ١٢٨٦ ، ببيان « المحلات والأماكن اللازم مشتراها من طرف الميرى لأجل تنفيذ الشارع المستجد من سراى العتبة الخضراء لحد عابدين» . . وفى ٢٠ محرم سنة ١٢٨٧ ، صدر أمر آخر ، منطوقه : « بما أنه مصمم من مدة على فتح شارع العتبة الخضراء الموصل إلى عابدين ، وكما علم أن بعض المحلات اللازمة لتنفيذ هذا المشروع جرى مشتراها وصارت حيازة الميرى ... وحيث يستلزم المبادرة بفتح الشارع المذكور حالاً ، فينبغى إجراء اللازم فى الشروع فى فتحه وسلوكه سريعاً . . »

كان الفرنسيون قد هدموا معظم المبانى ما بين قنطرة الموسكى والعتبة الخضراء ، فأصبحت المنطقة مهيأة لتمهيد شارع يخترق القاهرة من الشرق إلى الغرب ، يسهم فى إثراء النشاط التجارى الذى استجد بقلب المدينة ، فصدر الأمر العالى ، فى ٢٤ مارس ١٨٤٦ ، بفتح شارع الموسكى وبولاق والقلعة وغيرها من الشوارع «اللازم فتحها وتوسيعها لراحة العباد وتزيين البلاد » !

وفى عهد إسماعيل باشا ، تم توسيع شارع الموسكى ، وفتح امتداده : شارع السكة الجديدة (جوهر القائد) إلى ميدان العتبة ، وكان أمر كريم قد صدر إلى ضبطية مصر،

فى ٢٨ ربيع الأول سنة ١٢٨٠ ، نصه : « صدر أمرنا إليكم بما اقتضته إرادتنا عن مشترى الأماكن والدكاكين التى تلزم لتوسيع الطريق الذى بقنطرة الموسكى ، من أول رأس القنطرة ، وإبلاغ اتساعه إلى الرسم الموجود بطرفكم . . »

وينسب الشارع إلى الأمير « عز الدين موسك » أحد أمراء الدولة فى عهد صلاح الدين الأيوبى ، وهو الذى أنشأ القنطرة التى اشتهرت باسمه .

وبالرغم من أن القاهرة منذ إنشائها ، تتمتع بمخطط مستطيل ، مما يهب الفرصة لإيجاد تقاطعات طولية وعرضية بسهولة ، إلا أن هذه الميزة لم تستغل جيداً ، فلم تعرف القاهرة سوى طريق طولى واحد ، يربط باب زويلة جنوباً بباب الفتوح شمالاً ، وهو المعروف بالشارع الأعظم (المعز لدين الله) ولم تعرف طرقاً عرضية ، تربط شرق المدينة بغربها ، وقد يكون شارع « السكة الجديدة » هو أول طريق بهذه الصفة ، ثم تلاه شارع الأزهر الذى افتتح سنة ١٩٣٠ . .

والملاحظة التى أبداها كاتبنا الكبير « كامل زهيرى » : بأن الشوارع الرئيسية ـ شوارع طولية ـ من الشمال إلى الجنوب ، ومن الجنوب إلى الشمال ، ومن باب النصر إلى باب زويلة ، ثم إلى السيدة نفيسة ، موازية للنيل ، ربما لأسباب خاصة باتجاه الشمس ... ولم تبدأ فى اتجاهها من الشرق إلى الغرب إلا فى المرحلة الحديثة : فى عهدى محمد على وإسماعيل باشا ، شارع بولاق ، شقة نابوليون لأسباب عسكرية ليصل ميناء بولاق بمقر القيادة فى قصر الألفى بالأزبكية ! . . وشارع السكة الجديدة فى الجهة الشرقية . . هناك قوانين داخلية يمكن تسميتها بالقوانين السرية الكبرى ! . . فكيف نفسر أن المساجد الكبرى كانت دائماً حول المدينة ، مثل جامع عمرو ، جامع ابن طولون ، السلطان حسن ، الأزهر الحاكم ، المؤيد ! أنظر لوحة (١٤) .

ميدان الإسماعيلية [التحرير] ووسط المدينة :

قلب القاهرة الأوروبية أو القاهرة الحديثة ، التى تطورت وفق نسيج عمرانى مختلف تماماً عن النسيج العمرانى للمدينة القديمة . . كانت الحدائق بحى الإسماعيلية تحتل فى عام ١٨٧٤ أكثر من نصف مساحة الحى (نحو ٦٣ هكتاراً) وكان يمكن اعتبار



لـوحـة (١٤)

شارع بولاق (فؤاد الأول) ثم (٢٦ يوليو) - فى أواخر القرن ١٩

هذا الحى بمثابة حديقة كبيرة ، حيث كان كل مبنى محاطاً بالأشجار والأزهار .

وكان الطريق المؤدى إلى كوبرى قصر النيل ، يسمى شارع الإسماعيلية (التحرير حالياً) نسبة إلى سراى الإسماعيلية التى شيدها الخديو إسماعيل على جزء من الأراضى والأملاك ، التى وهبها إلى قرينته الثالثة « جشم آفت خانم أفندى» والتى تشمل فى معظمها منطقة الإسماعيلية ! أنظر لوحة (١٥) .

وإلى يمين مدخل كوبرى قصر النيل ، كانت « ثكنات قصر النيل » التى شيدها الخديو سعيد ، وكان بها مقر نظارة (وزارة) الحربية ، ثم اتخذت ثكنات للجيش البريطانى عقب الاحتلال ، وكان سعيد باشا قد أقام هذه الثكنات ، فى نفس موقع القصر الذى شيده محمد على لكريمته « نازلى هانم » وعرف باسم « قصر النيل » وفى موقع هذه الثكنات بعد هدمها ، شيد فندق هليتون النيل ومقر جامعة الدول العربية ، وفى عام ١٩٠٢ ، افتتح المتحف المصرى فى موقعه الحالى ، بعد انتقاله من بولاق ثم سراى الجيزة . .

وقد شيد مجمع المصالح الحكومية على جزء من موقع سراى الإسماعيلية ، كما يضم الميدان : المبنى القديم لوزارة الخارجية (سراى الأمير كمال الدين حسين) ابن السلطان حسين كامل ، وإلى الغرب منه ، كان قصر « قوت القلوب الدمرداشية » الذى هدم لتوسعة ميدان كوبرى قصر النيل (ميدان الأمير إلهامى) بن عباس حلمى الأول ، وجامع عمر مكرم شيد فى نفس موقع « جامع العبيط » الذى ذكر على مبارك أنه كان داخل السور الغربى لسراى الإسماعيلية .

ويتصل الجنوب الشرقى للميدان ، بمنطقة الوزارات ومجلس الشعب ، والشمال الشرقى يتصل بالمنطقة التجارية الهامة التى اشتهرت بـ « وسط البلد » !

وتجدر الإشارة إلى أن الاحتياطى العقارى الكبير المتمثل فى حدائق حى الإسماعيلية ، قد شهد تحولات ضخمة ومتباينة ، تبعاً للطلب فى سوق العقارات ، ونوعية الطرز المعمارية ، ففى الفترة من ١٨٧٤ حتى ١٨٩٠ ، بدأ تقسيم الأملاك الكبرى ، وشق شوارع لتوزيع قطع الأراضى الجديدة ، وكانت الطرز المعمارية لعمارات صغيرة مصفوفة



لوحة (١٥)

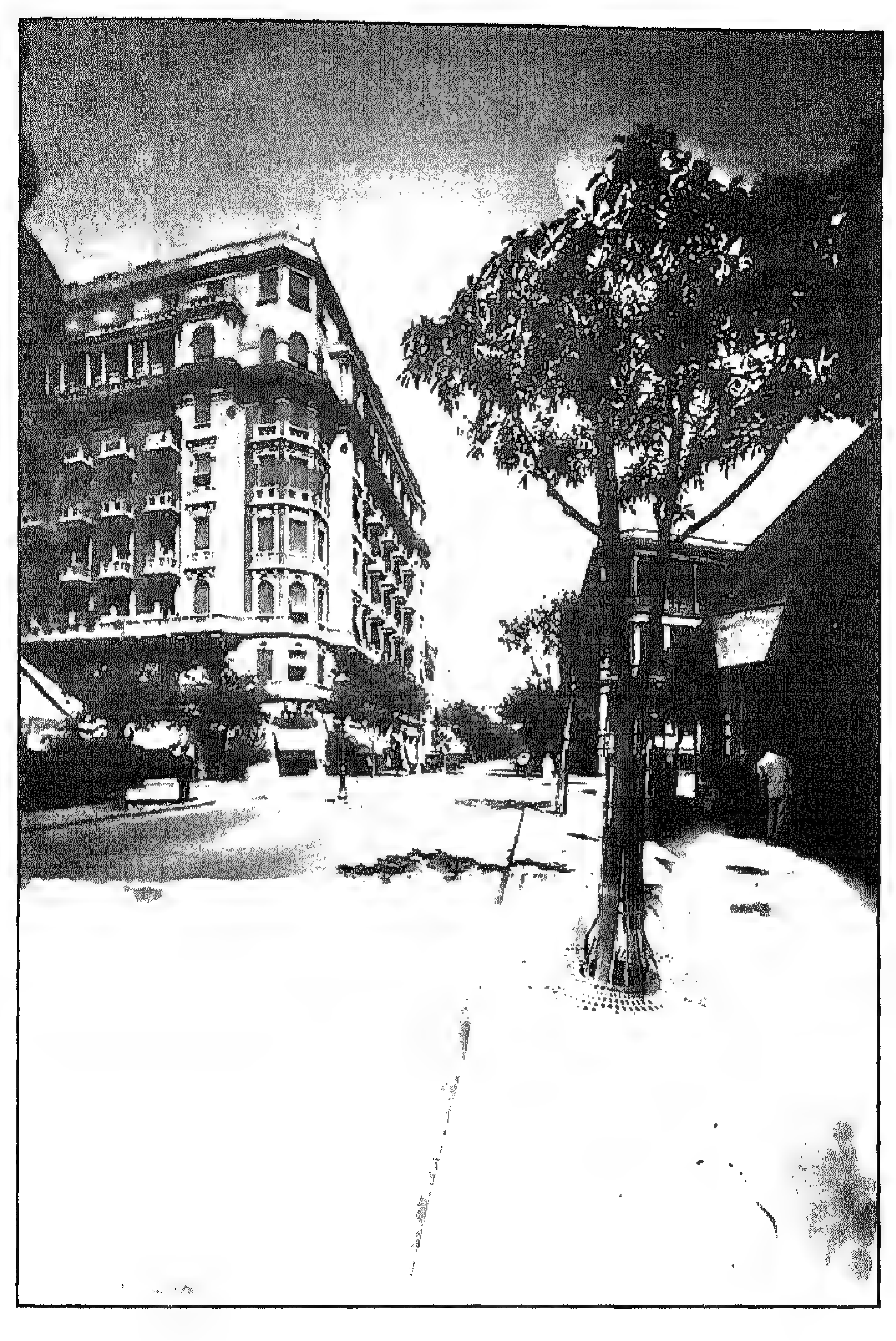
الأميرة جشم آفت هانم الزوجة الثالثة للخديو إسماعيل

أو فيلات ، ومنذ عام ١٩١٠ ، بدأ انتشار العمارات الشاهقة بهذه المنطقة ، فعلى سبيل المثال ، المنطقة التى تحدها شوارع قصر النيل وشريف وثروت وسليمان باشا ، ومساحتها نحو ٥ , ٩ فدان ، وكانت تعد أكبر بلوكات حى الإسماعيلية ، قد شهدت تطوراً عمرانياً مختلفاً ، ففى عام ١٨٧٤ ، تم تقسيمها إلى تسع قطع مختلفة المساحات ، أكبرها نحو ١٢٠٠ متر مربع ، وقد أدى تقسيم البلوك ـ حديقة تلو أخرى ـ إلى ظهور شارع « الشواربى» فى البداية ، ثم افتتح شارعا « البورصة الجديدة » و « الفضل » . . وفى البداية ، كانت قطع الأراضى المطلة على الشوارع الرئيسية ، تحتلها العمارات بالكامل تقريباً ، أما فى الداخل ، حيث الأراضى المطلة على الشوارع الجديدة الضيقة نسبياً ، فكان يتم بناء فيللات ، ثم مع ازدياد الكثافة ، اختفت هذه الفيللات تدريجياً لتحل محلها عمارات متراصة ، تحتل كافة الواجهات . . انظر لوحة (١٦) .

كذلك قصر قطاوى باشا وحديقته ، الذى كان يحتل عام ١٨٧٤ ، جزيره مثلثة تبلغ مساحتها نحو خمسة أفدنة ، قسمت فى أوائل القرن العشرين ، إلى خمسة بلوكات صغيرة ، تفصلها شوارع متسعة ، واحتل القصر ، الذى كان لا يزال قائماً ، إحدى هذه البلوكات ، وسط حديقة تقلصت إلى ممر دائرى !

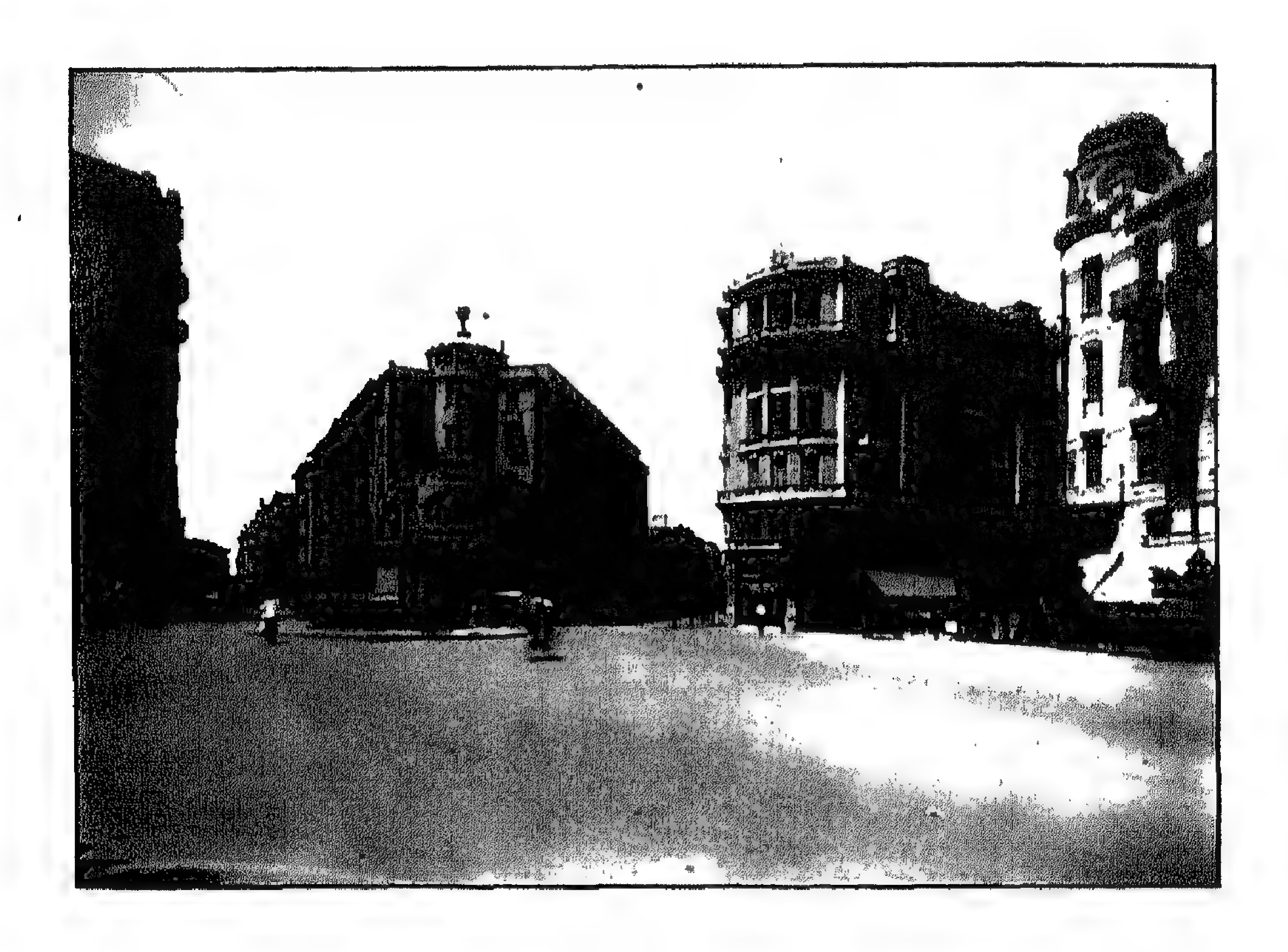
الخطوط العريضة لحى الإسماعيلية ـ الذى أصبح وسط المدينة مستقبلاً ـ أصبحت واضحة المعالم ، بما فيها الشوارع التى لا تزال نشطة للغاية حتى يومنا هذا . . قصر النيل ، عماد الدين ، الفلكى ، قصر العينى ، سليمان باشا ، المدابغ (شريف حاليا) . . وتجدر الإشارة إلى أن مدابغ الجلود بالقاهرة ، كانت بجهة حوش الشرقاوى وسوق العصر ، جنوبى ميدان باب الخلق ، حتى أوائل القرن الماضى ، فتضرر الناس منها ، فنقلت إلى أرض اللوق ، ثم نقلت فى عام ١٨٦٥ إلى موقعها الحالى خلف سور مجرى فم الخليج . .

وحتى عام ١٩٠٠ ، ظلت المدينة على التزامها أساساً بالخطط الموضوعة فى عصر إسماعيل ، وعمرت المنطقة الواقعة غرب الأزبكية ، بالعمارات الزاخرة بالمكاتب التجارية ، التى ملأت الفراغات الكائنة بين الفيللات ، وانتقل وسط المدينة إلى هذه



لوحة (١٦)
شارع عبد الخالق ثروت

المنطقة ، وبالقرب منها ـ جنوباً ـ كان إسماعيل قد شيد وزارة الأشغال العمومية فى موقعها الحالى ، ثم أنشئت عدة وزارات أخرى ، لتكون نواة لمنطقة المنشآت الحكومية المعروفة باسم الإنشا والدواوين ، وإلى الغرب منها شيدت عدة دور على الطراز «الفيكتورى» لسكنى المستشارين الإنجليز . أنظر لوحة (١٧) .



لوحة (١٧)
ميدان سليمان باشا

أوجينى فى سراى الجزيرة :

أنظر لوحة (١٨) .

كلف إسماعيل باشا مهندس البلاط الخديوى « يوليوس فرانس ـ Julius Franz» عام ١٨٦٣ ، بتصميم قصر بجزيرة الزمالك ، فشيد له « سراى الجزيرة » على غرار «قصر الهمبرا » بغرناطة ، بأسلوب رومانسى جديد ، وانتهى منه عام ١٨٦٨ ، واستخدم كمقر لإقامة الامبراطورة « أوجينى وحاشيتها خلال احتفالات افتتاح قناة السويس ، وقد عهد إلى فرانس باشا رئاسة مراسم هذه الاحتفالات ، كما كان فى الوقت ذاته ، يشغل منصب مدير إدارة الإنشاءات بديوان الأشغال العمومية .

وقد وصف على باشا مبارك هذا القصر بأنه « سراى للحريم ، وأخرى برسم سلاملك كبير ، خلاف سلاملك صغير فى الغرب منه ، والاثنان من رسم فرانس باشا النمساوى ، اجتهد فى تشبيهها بالمبانى العربية القديمة ، فى شكلها وزينتها ومفروشاتها، وجعل فى خارج السلاملك الكبير برسم الزينة بلكونات وبواكى من الحديد ، جلبت من البلاد الافرنجية ، وأحاط البستان بسور ، وجعل فيه محلات للحيوانات المتنوعة كالفيلة والسباع والنمور والقردة والنسانيس ، وأنواع الطيور المجلوبة من بقاع الأرض ، وفرش مما شيه بالرمل والزلط الملون ، ووزع فيه فوانيس الغاز . . »

وأشار عبد الحميد بك نافع إلى أن هذه السراى قد شيدت فى نفس موقع قصر إبراهيم باشا « أمام المطبعة الكبرى بجزيرة ابراهيم » وقال إنها كانت من أعظم المبانى التى لم يشيد مثلها ، بما اشتملت عليه بساتينها من الأشجار والنباتات والأنهار والبرك والقناطر والجبلايات ، على مساحة قدرت بـ ٦٠ فداناً .

ومع ذلك نادراً ما كانت الأميرات يتنزهن ويستمتعن بتلك المشاهد الطبيعية الساحرة ، مفضلين الاعتناء بنضارة أجسادهن والجلوس بقاعات الإقامة أو الاستقبال مع ضيفاتهن ، لتدخين السجائر والنرجيلة !

وبحيرة رخامية رائعة تتوسط حدائق السراى ، يحف بها سلالم من الرخام النادر ، وتماثيل لأسود تصب الماء من أفواهها ، قوارب صغيرة فاخرة تسبح على صفحة الماء ،



لـوحـة (١٨)

لقطة نادرة لبحيرة قصر الجزيرة [الماريوت حاليا] - عام ١٨٧٣ م

بين مجموعات البجع والبط والأوز ، بينما تتناثر تماثيل آلهة وآلهات اليونان بين أشجار البرتقال والمانجو ، وتمثال بالحجم الطبيعى للإلهة « سيرا» تحيط به تماثيل لأربعة ملائكة يصبون الماء ، وأسوار من أشجار الفل والحناء والياسمين ، وبنهاية البحيرة ، جوسق من الرخام الأبيض الثمين ، يضم أرائك على شكل ديوان ، يميزها اللونان الأصفر والقرمزى .

ترتيبات إسماعيل باشا لزيارة الامبراطورة « أوجينى » أنظر لوحة (١٩) كانت غير عادية، وسخر كل الإمكانات ليجعل من سراى الجزيرة شيئاً أشبه بقصور الأساطير ، وعندما اشتاقت إلى زهور الكرز التى أحبتها فى أسبانيا ، أمر بغرس شجيرات منها تحت نافذة غرفة نومها بالسراى ، ومن القصص الطريفة التى ذاعت فى القاهرة آنذاك ، أن هدية وداع الخديو لأوجينى ، كانت « مبولة غرفة نوم » من الذهب الخالص ، تتصدرها ياقوتة حمراء نقشت حولها بالفرنسية عبارة « عينى » ، على الأقل . . ستظل معجبة بك إلى الأبد » ! . . مثل هذه القصص عن عصر إسماعيل ، الذى وصفه البعض بالعظمة البيزنطية ، كانت تتردد أصداؤها فى صالونات القاهرة وبين أشجار الليلك بنادى الجزيرة ، ويذهب البعض إلى أن البروتوكول الخاص بزيارة أوجينى لم يسمح بأن يصطحبها «الأمير الشرقى » إلى فراشه ! . . بالإضافة إلى عيون الأميرات و«القلفاوات » والمحظيات فى حريم الخديو اللاتى كن يترصدن تحركاتها ، جعلت حاشيةالامبراطورة من الخدم الإنجليز والألمان ، يتبعون إجراءات مشددة للتأكد من أن طعامها الخاص لم يسمم بيد أميرة أو محظية غيور !

فى عام ١٨٧٩ ، اشترت شركة بهلر للفنادق العالمية : السلاملك الكبير ، وأطلقت عليه « فندق الجزيرة » . . ثم آل إلى أسرة « لطف الله» اللبنانية حتى عام ١٩٦١ ، حيث حولته الحكومة إلى فندق « عمر الخيام » . . وفى عام ١٩٧٥ كان البدء فى إنشاء فندق « ماريوت الجزيرة » حيث تم تجديد ما تبقى من السراى وإضافة مبان جديدة على حدائق السراى ، بعيدة كل البعد عن الذوق والفن !



لوحة (١٩)
الامبراطورة أوجينى

صفحات من تاريخ : دار الأوبرا الخديوية)

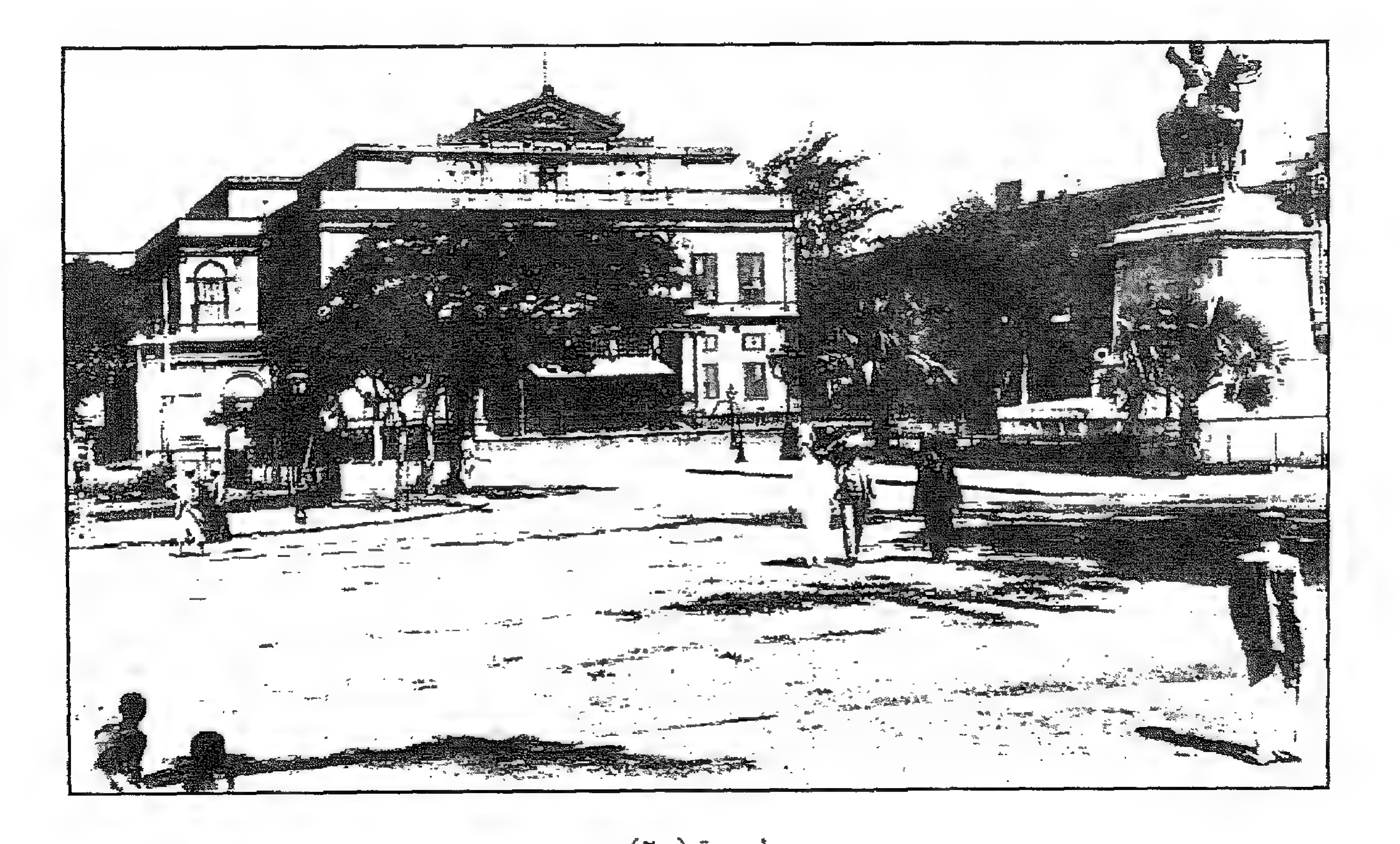
هذه الدار الشهيرة ، التى كانت كالقصر المسحور ، الذى لا تدب فيه الحياة إلا مع انتشار الظلام ، فتزهو وتتألق بالأضواء ، وهى تستقبل علية القوم والسعداء ممن ابتسم لهم الحظ لقضاء أمسية لا تنسى بين مباهج الفن الراقى . .

لم يضن إسماعيل باشا على دار الأوبرا أنظر لوحة (٢٠) بكل ما يحيطها بالروعة ، ويضفى عليها جمال الفن وجلاله ، لتكون إحدى فقرات الاحتفاء بضيوف افتتاح قناة السويس ، فأسند الخديو الإشراف على أعمال البناء إلى المهندس الإيطالى « بيترو أفوسكانى » الذى شيد قصر رأس التين لمحمد على باشا ، وكان أحد مستشاريه المقربين ، كما كان صديقاً لمعظم حكام أوروبا وفنانى عصره ، كذلك أشرف على تنفيذ ديكورات قصور العباسية ، الحلمية ، الجزيرة ، وشبرا ، ومسرح سعيد باشا بقصر القبارى ، ومسرح زيزينيا بالاسكندرية . . وتصميم البناء الرئيسى كان للمهندس الإيطالى « سكالا» . . والمبنى الخلفى من تصميم المهندس « جيوفانى سالومون » واكتمل البناء فى أربعة شهور . . . !

شيدت دار الأوبرا الخديوية على طراز أوبرا « لأسكالا » بميلانو ، وتكلفت نحو خمسة عشر مليونا من الفرنكات ، وكان أساسها من الأحجار ، وباقى المبنى من الخشب المستورد من لبنان ، المغطى بالجص ، بغرض الانتهاء من بنائها فى الوقت المحدد .

افتتحت دار الأوبرا ، فى أول نوفمبر سنة ١٨٦٩ ، بأوبرا « ريجوليتو » وكان بالمقصورة الملكية : الخديو إسماعيل والإمبراطورة أوجينى ونابوليون الثالث وعاهل النمسا الامبراطور فرانسوا جوزيف ، ولى عهد بروسيا ، واحتشدت المقاصير وصالة الدار بكبار الشخصيات فى عالم السياسة والأدب والفن فى أوروبا . . ومن بين فواصل الستائر الفخمة المطرزة باللونين القرمزى والذهبى . كنت تلمح بريق أجمل العيون ، وتيجان مرصعة بالجواهر ، وصدور رائعة تزيد الدر واللآلىء تألقاً . . !

وكانت الدار تسع ٨٥٠ مشاهداً ، وأعدت بها أكثر من استراحة ، وقاعة خاصة للتدخين ، حيث حرم التدخين أثناء مشاهدة العرض ، صيانة لقداسة الفن .



لوحة (٢٠)

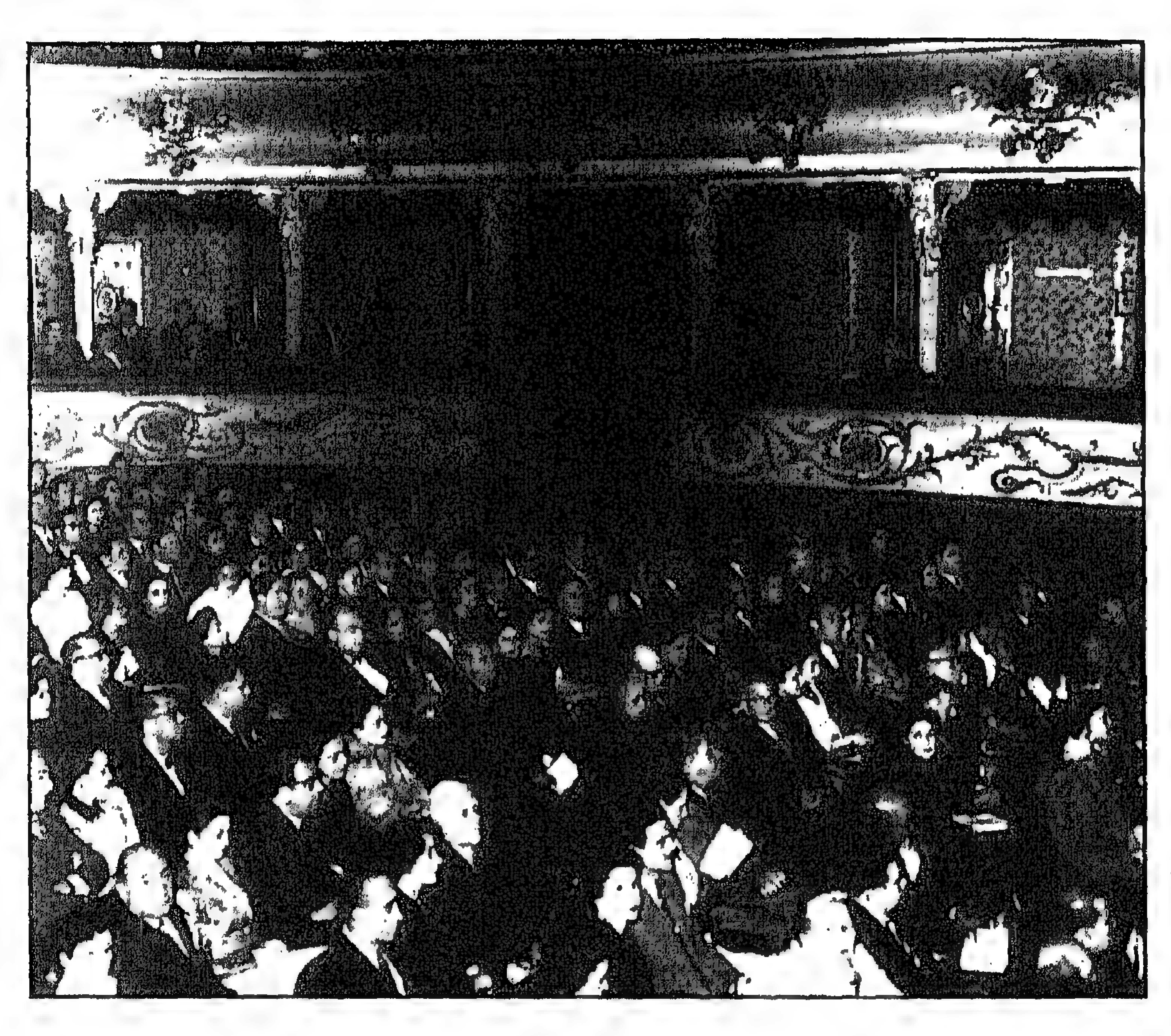
الأوبرا الخديوية - عام ١٨٨٦ م

امتد موسم الافتتاح إلى ١٤ مارس سنة ١٨٧٠ ، وشمل ٧٠ حفلة ! . . وهو عدد من الحفلات لم يكن متاحاً فى موسم واحد وفى دار واحدة ، إلا للنادر من المسارح العالمية ، وقد شملت العروض إبداعات فنية خالدة ، منها : « تروفاتورى » ، « حلاق أشبيلية » ، « فاوست » «هيلين الجميلة » التى كانت موضع إعجاب الخديو ، « اكسير الحب » ، « سميراميس » ، « غادة الكاميليا » و « عروس الأربعاء السمينة » !

كانت سعة القاعة ٣٠٦ مقاعد ، وستين مقصورة موزعة على ثلاث طوابق ، بكل مقصورة خمسة مقاعد على الأقل ، وقد خصصت المقاصير الثلاث الأولى بالطابق الثانى ، على اليمين ، لحريم السراى ، وكانت تتصدر واجهة هذا الطابق : قاعة المآدب الرسمية الفاخرة ، بجوارها قاعة الموسيقيين ، ثم القاعة الفخمة التى كانت شرفتها تطل على الميدان ، وعرفت بـ « قاعة إسماعيل » وهى على شكل مسرح صغير بمقصورتين تمتدان على الجانبين ، وترتفعان بمستوى يكفل حجب الحريم فيهما عن الرؤية ، أثناء الحفلات ذات الطابع الخاص ، سقفها محلى برسوم زيتية ، تتوسطها أربع لوحات لمغنيات أوبرا شهيرات : باتى ، فريتشى ، جريزا لدى ، بيكولومينى . . انظر لوحة (٢١) .

والمقاصير الثلاث التى كانت مخصصة للحريم، كان يُصعد إليها بدرج خاص ملحق بالحديقة ، وقد غشيت بالنقوش المذهبة ، وستائر حريرية غاية فى الفخامة ، وقد وضع أمامها حاجز معدنى مشغول بأشكال نباتية جميلة ، مطلى باللون الأبيض ، متناثرة عليه باقات من الزهور الذهبية .

ومبنى الملحق كان يتكون من ثلاثة طوابق ، الأول خصص لتغيير الملابس ، والطابق الثانى لتخزين المناظر ،بأسلوب روعى فيه الترتيب والتصنيف ، بشكل يسهل معه استخراج المنظر المطلوب ثم إعادته إلى مكانه ، وكان يغلق ببوابة ضخمة حديدية، كأنها لأحد حصون أو قلاع أوروبا فى القرون الوسطى ، وقد قبع فى هذا المخزن ولمدة نصف قرن تقريباً ، نموذج ضخم لسفينة شراعية استخدمت فى أوبرا « الافريقية » للفنان « مايربير» توحى بمشهدها وما أحاط بها من لوحات ومناظر : كأننا وسط ميناء يموج بالسفن ذات الشراع ، بينما طويت لوحات الخلفية كاملة ورصت بعضها فوق



لوحة (٢١)
صالة الأوبرا ومقاصير الطابق الأول .. وملامح عصر انقضى

بعض ، وقد ظل مشهد هذه السفينة راسخاً فى أذهان العاملين بالدار . . أما الطابق الثالث ، فقد قسم إلى عدة غرف ، لحفظ الملابس والأثاثات ، فكان وحده متحفاً يحوى ثروة فنية هائلة ، بما ضمه من وثائق كالخطابات والعقود الموقعة بين فيردى والخديو ، واسكتشات رسمها ماريت لملابس أوبرا عايدة ، ودروع وسيوف وحلى بلغ من روعتها ودقة صنعها حداً يضاهى صحيح الجوهر ، وملابس وأثاثات فخمة تناسب العصور التاريخية المختلفة ، وكان يتولى صنعها فريق من أمهر الحرفيين فى ورشة خاصة بنفس الطابق ، الذى ضم أيضاً مرسماً للمصورين ، وورشة لحياكة ملابس الروايات الجديدة ، وترميم الملابس القديمة . .

فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٧١ ، عرضت أخيراً ، وبعد سلسلة من المفاوضات والعقبات « أوبرا عايدة » بحضور إسماعيل باشا وكبار ضيوفه ، وكانت سعادته تفوق كل وصف ، بالنجاح المذهل الذى حققته عايدة . . مما جعل « درانيت ـ Dranch » أول مدير للدار ، يبرق عقب الفصل الثانى إلى « فيردى » بالبرقية التالية :

« المايسترو فيردى ـ جنوه

لقد لاقت أوبرا عايدة نجاحاً يفوق الخيال ، وقد قوبلت الخاتمة الموسيقية الأولى والثانية وأداء ثنائى السوبرانو والقطعة الموسيقية الكبرى والمشهد العام بحماس رائع ، ولقد حيا الجمهور ، المايسترو الغائب ـ بعاصفة من التصفيق والإعجاب . . كل تهنئتى »

والجدير بالذكر ، أن درانيت كان صيدليًا فى بلاط محمد على باشا ، ومديراً للسكك الحديدية فى عهد سعيد ! . . ثم مديراً للمسرح الكوميدى والمسرح الخاص بقصر النيل . وكان قد بعث إلى فيردى برسالة من الخديو ، نصها : « إن باختيارك أيها المايسترو العظيم ، أن تكون مبدعاً موسيقياً لأوبرا تدور وقائعها فى دولتى ، أكون قد حققت أمنيتى فى أن أخلق إنتاجاً وطنياً ، ربما يصبح واحداً من أمجد الذكريات لعصرى» ! . . وتحققت نبوءة إسماعيل . . !

وكان عالم المصريات الفرنسى الشهير « أوجست ما رييت » قد كتب نص « عايدة »

وأبدع تصميم الملابس التاريخية وبعض المشاهد ، وقد أهدى ابنه « ألفريد» بعض وثائق هذا العمل إلى المكتبة الوطنية بباريس ، وتعرض حالياً بمتحف دار الأوبرا الفرنسية ، ولقد كانت أوبرا القاهرة من أجمل دور الأوبرا فى العالم ، وسرعان ما فاقت شهرتها أعرق دور الأوبرا فى أوروبا :« لاسكالا » بميلانو ، ودار أوبرا باريس ، و«الكوميدى فرانسيز » ودار أوبرا بروكسل ، كذلك لم تشهد أى منها الفرق العالمية ، ومشاهير الضيوف والزوار ، مثلما شهدت تلك الدار التى شيدها إسماعيل !

وأول مدير مصرى لدار الأوبرا ، كان « منصور غانم » لمدة عام ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨ ، وقد تولى هذا المنصب من خلال السلم الوظيفى وليس « السلم الموسيقى » ! ثم خلفه أشهرهم الفنان « سليمان بك نجيب » سليل الباشوات الذى مزج الفن بالواقع فى بساطة وتلقائية ، لمدة ١٦ عاماً ، حتى سنة ١٩٥٤ ، ثم الشاعر « عبد الرحمن صدقى» الذى قال : « إذا كانت القاهرة هى عاصمة مصر ، فدار الأوبرا هى عاصمة القاهرة !» وفى عام ١٩٥٦ ، تولى إدارتها المهندس محمود النحاس ، ثم الفنان التشكيلى « صلاح طاهر » وأعقبه الفنان « صالح عبدون » الذى كان أول مدير أوركسترا سيمفونى حكومى . .

آخر عرض بالدار كان « كارمينا بورانا » لكارل أورف ، وقاد الأوركسترا الفنان «بيلدرد نيللى » وذلك قبل أربعة أيام من إتمامها العام الثانى بعد المائة ، وعقب شهرين من انقضاء مائة عام على مولد « عايدة » . . كانت النهاية الحزينة المريبة !!

كوبرى قصر النيل :

فى كتابه « إسماعيل المفترى عليه » يقول « بيير كرابيتس» الذى كان قاضياً بالمحاكم المختلطة بالقاهرة :

« . . والجسر (الكوبرى) العظيم الذى كان يصل القاهرة بالجزيرة ، والذى أنفق إسماعيل باشا ١٠٥ آلاف من الجنيهات على إنشائه ، قد هدم سنة ١٩٣١ لا لأنه لم يبق صالحاً للاستعمال ، بل لأن سير الرقى وظهور السيارات جعلا ذلك الجسر أضيق من أن يتسع لمقتضيات المستقبل ، لسنا نعلم ، كم من الجسور الأربعمائه والتسعة والعشرين ، التى بناها إسماعيل على الترع النيلية ، لا تزال باقية مخلدة ذكراه . . والمهم أن الجسر الذى كان « ملنر وكولفن وكرومر » يتنقلون عليه كل يوم فى ذهابهم إلى النادى الخديوى (نادى الجزيرة) قد شيده إسماعيل ، لكن أولئك الثلاثة وأعضاء « لجنة كايف » لم يتذكروا هذه الحقيقة عندما تكلموا عن الأموال التى أنفقها ذلك العاهل العظيم . . » !

وكوبرى الجزيرة . . أو كوبرى قصر النيل ، هو أول كوبرى يشيد على نيل القاهرة ، فعندما كان العمل جارياً فى سراى الجزيرة ، لم يعد من اللائق إبقاء العبور من شاطىء إلى شاطىء : على صف من المراكب المربوطة إلى بعضها ، ممدود عليها ألواح من الخشب ، وبات من المحتم تشييد كوبرى يتناسب مع فخامة الأحياء التى سيربط بينها . . انظر لوحة (٢٢) .

فى عام ١٨٦٩ ، عهد إلى شركة « Fives lille » الفرنسية بتنفيذ هذه الفكرة ، ففى ٢٧محرم سنة ١٢٨٦ هـ أصدر اسماعيل باشا ـ أمراً عالياً ـ إلى نظارة الأشغال ، هذا نصه : « القونطراتو المعقود مع مسيو جانجيه ، بالتوكيل عن قومبانية فيف ليل ، وممضى منه ومنكم بالتوكيل عن الحكومة ، بشأن أعمال كوبرى على بحر النيل ، للتعدية للبر الغربى ، من جهة قصر النيل ، بمبلغ وقدره مليونان وسبعمائة . . وخمسون ألف فرنك ، والحسبة المرسولة مع الكونتراتو بيان مواعيد التأدية ، والفايض ستة فى المائة سنوى ، صار منظورى ووافق إرادتى قبول واعتماد ذلك ، من بعد مراجعة الحسبة وتطبيقها والتصديق على صحتها بديوان المالية »



لـوحـة (٢٢)
كوبرى الخديوى اسماعيل [قصر النيل حالياً] كما كان يبدو عام ١٨٧٦ م

ونشر بجريدة « الوقائع المصرية » بتاريخ ١٨ مايو سنة ١٨٧١ :

« اجتمع لتركيب الكوبرى المعدنى الموصل من قصر النيل إلى الجزيرة ، المتعهد به قومبانية فيف ليل ، كل من حضرة سعادة ناظر الأشغال العمومية وبعض حضرات المهندسين والذوات المعتبرين والمدعوين من مسيو جانجيه ، مأمور أشغال ذلك الكوبرى ، فركب أمامهم واستحسنوا عمليته ، وذلك أن الجزء الأول من ظهر الكوبرى البالغ طوله ٥٠٠ قدم ، كان موضوعاً على سطح تراب بطول سور قصر النيل ، مرتفعاً قليلاً عن الأرض بعجلات صغيرة معدنية ، فحركه جماعة قليلة العدد بآلة أداروها يقال لها (الونش) فأخذ فى السير الهوينا على عجلاته بلا مشقة ، جهة المكان اللازم لتركيبه فيه على النيل ، ومهندس ذلك العمل ، قد استعمل الطرق الهنسية اللازمة فى إحكام الكوبى ومتانته ، والذى يراه ذلك المهندس ، بمقتضى سرعة العمل الحاصلة فيه ، أنه يتحقق تمام تركيب أجزائه فى آخر فصل الصيف . . ويمر عليه العالم » !!

وافتتح رسمياً فى ١٠ فبراير سنة ١٨٧٢ ، وبلغ طوله ٤٠٦ أمتار ، وعرضه عشرة أمتار ونصف المتر ، منها ثلاثة أمتار للإفريزين ، وله فتحتان ملاحيتان ، ويدار بالجزء المتحرك منه باليد ، وكان أمر كريم قد صدر إلى نظارة المالية ، فى ٢٩ شعبان سنة ١٢٩٢ ، منطوقه :

« قد علمنا أن الأربعة تماثيل سباع ، السابق توصية الخواجة : جاكمار عنهم برسم وضعهم على رأس كوبرى قصر النيل ، صار حضورهم ، وموجودين والحالة هذه بالبحرية ، وأن أثمانهم ومصاريفهم بلغت ١٦٨٥ كيسه وكسور ، وحيث اقتضت إرادتنا خصم المبلغ ـ المحكى عنها ـ فى هذا الوقت الذى هو زمن النيل ، إلى قصر النيل ، ووضعها به بحالة الحفظ والصيانة حتى ينظر فى تركيبها » !

صنعت هذه التماثيل البرونزية فى إيطاليا ، وبلغ ثمنها وتكاليف شحنها إلى الإسكندريه ما يعادل : ٨٤٢٥ جنيها مصرياً .

فى عام ١٩٢٠ تمت عملية ترميم شامل لجسم الكوبرى ، وفى أول أبريل سنة ١٩٣١ توقف المرور على هذا الكوبرى ، واقتضت الضرورة وضع مشروع الكوبرى

الجديد فى إطار التنفيذ السريع ، ووضع الملك فؤاد حجر الأساس فى ٤ فبراير سنة ١٩٣١ ، وافتتح فى ٥مارس سنة ١٩٣٣ ، بعد أن اقتضت « مكارم جلالة الملك أن يحمل اسم منشئه الكريم : الخديو إسماعيل ، اعترافاً بفضله واحتفاظاً بذكراه »

● **كوبرى البحر الأعمى [الجلاء]**

أنشىء هذا الكوبرى عام ١٨٧٢ ، ويقابل كوبرى قصر النيل على الفرع الغربى ، ويصل الجزيرة بالجيزة . . ونبأ هذا الكوبرى نجده فى « الوقائع المصرية » بتاريخ ١٣ فبراير سنة ١٨٧٢ :

« قبل ختام الشهر الثالث ، بلغنا أن القنطرة الحديد المشتغل بعمليتها منذ مدة بين جانبى النيل ، تجاه قصر النيل ، بمعرفة مسيو (غازه) مهندس القومبانية الفرنساوية المعروفة (فيف ليل) ستفتح بعد أيام قليلة ، وهى من المحاسن الخديوية الجليلة . . »

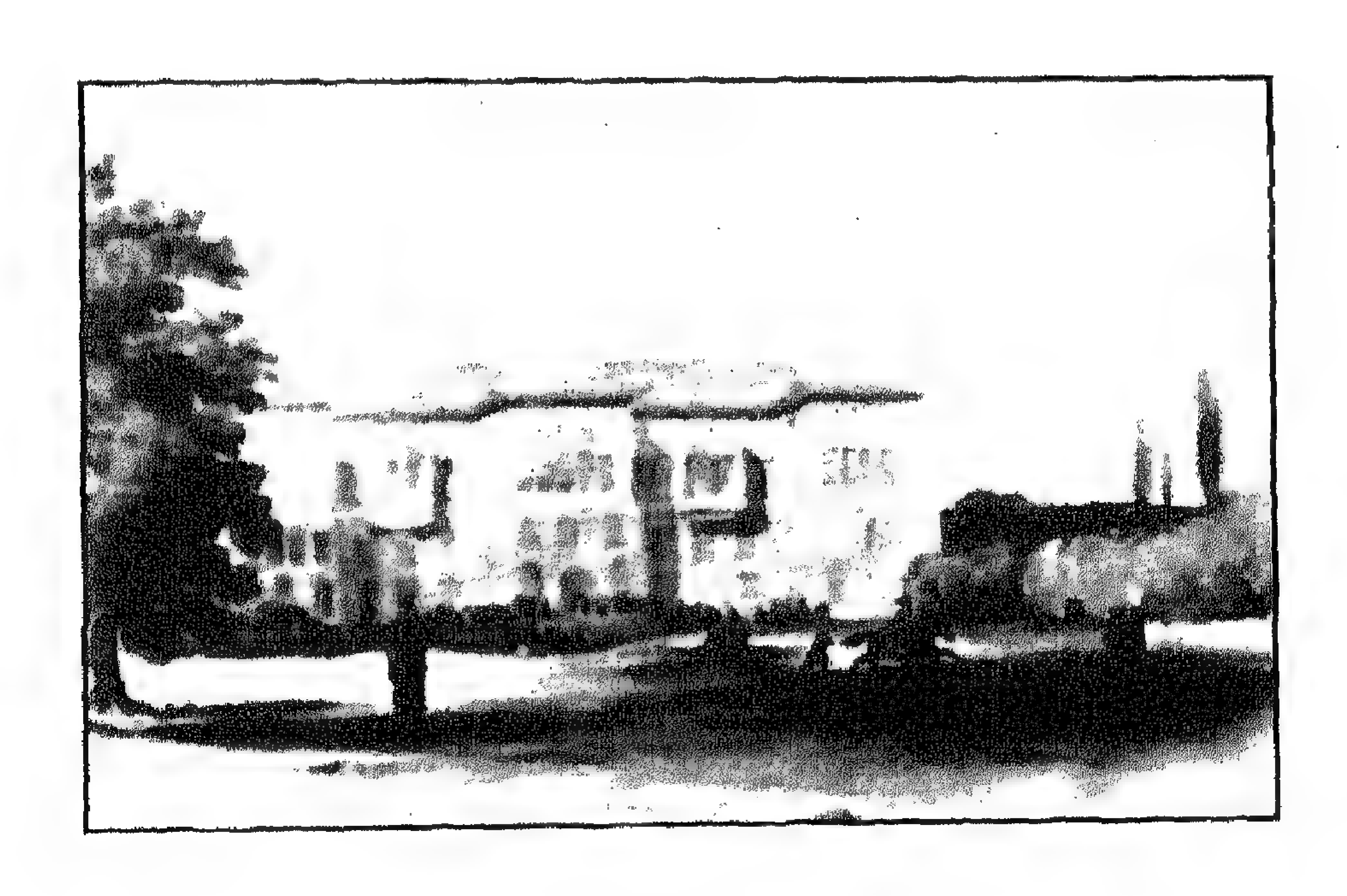
والكوبرى الحالى شيد عام ١٩١٤ ، وسمى : كوبرى الانجليز ، ويبلغ طوله ١٤٥ متراً ، وعرضه ١٩ متراً ، منها ثلاثة أمتار ونصف المتر لكل إفريز ، ثم اشتهر بـ «كوبرى بديعة » حيث كان كازينو الفنانة الشهيرة « بديعة مصابنى » فى موقع شيراتون القاهرة ، وعقب ثورة يوليو ، أطلق عليه « كوبرى الجلاء » .

جاردن سيتى :

أساس هذه المنطقة ، التى وصفت يوماً بأنها « سلة أزهار انبثقت منها القصور الفخمة والدور البديعة » . . هو القصر العالى ، الذى شيده إبراهيم باشا عام ١٨٣٥ ، والقصر الذى شيده لولده الأمير أحمد باشا . .

وكان الحد الغربى للقصر العالى : شاطىء النيل ، ويحده شرقاً : طريق بولاق ـ مصر القديمة (شارع قصر العينى حالياً) وشمالاً : قصر أحمد باشا ، وحده الجنوبى : الطريق الفاصل بينه وبين قصر العينى .

والقصر العالى ، أساسه المنطقة التى كانت تعرف بـ « بستان الخشاب » أدخلها محمد على فى أملاك نجله ابراهيم باشا ، وأقيمت بها ثكنات للجنود ، وعقب عودة إبراهيم باشا من حرب الشام ، أمر بتمهيد أرض هذه المنطقة ، ثم أنشأ قصراً أسماه : القصر العالى أنظر لوحة (٢٣) . .



لوحة (٢٣)
الصورة الوحيدة للقصر العالى

وفى واقع الأمر ، كان القصر العالى مكوناً من قصرين يجمعهما سور واحد ، القصر الجنوبى خصصه لزوجه الأميرة خوشيار هانم قادين ، والدة إسماعيل ، والقصر الشمالى خصصه لزوجه الأميرة شيوه كار قادين ، وقد سكن إسماعيل هذا القصر ، وبه ولد توفيق فى ٣٠ إبريل سنة ١٨٥٢ ، وفيه تمت مراسم أفراح الأنجال التاريخية ، ثم آل القصر إلى الدائرة السنية ، فباعته سنة ١٩٠٦ بثلاثة أرباع مليون جنيه مصرى ! . . إلى شركة « شارل باكوس » . . ونقلت واجهة القصر بالكامل إلى حوش عائلة الوقاد بقرافة المماليك ، وعليها شارات الخديوية ، وقامت الشركة بهدمه وبيع أنقاضه وأثاثه الفاخر وتحفه الثمينة وأشجار حدائقه النادرة إلى كبار الأعيان !

وقد حدد على باشا مبارك شوارع القصر العالى ، وهى تبدأ من شارع مصر العتيقة (قصر العينى) على النحو التالى : شارع الشيخ يوسف (عبد القادر حمزة) وينتهى إلى شارع عماد الدين ، وشارع الداخلية (محمد باشا سعيد ـ حسين حجازى) وينتهى بشارع منصور ، ثم شارع الطرقة (إسماعيل أباظة) وينتهى بشارع الدواوين وشارع الإنشا (صفية زغلول) وكان به سراى الإنشا . .

وقد وهب الخديو إسماعيل هذا القصر إلى والدته الأميرة خوشيار هانم ، بمقتضى أمر كريم فى ١٩ رجب سنة ١٢٨٠ هـ إلى سعادة مصطفى الكريدلى محافظ مصر ، منطوقه :

« نحيطكم علماً أنه اقتضت إرادتنا وهب القصر العالى وسائر الأراضى والأبنية الملحقة به ، المحدودة غرباً بساحل البحر وشرقاً بالطريق الموصل إلى بولاق ومصر القديمة ، وشمالاً بقصر أخينا المرحوم أحمد باشا ، وجنوباً بالطريق الفاصل أرض القصر العالى عن قصر العينى ، لحضرة صاحبة الدولة والعصمة والدتنا المحترمة . . »

وتضمنت حاشية هذا الأمر : « أن الأملاك والأراضى المتعلقة بالميرى الموجودة ضمن الحدود الأربعة المذكورة ، مثل فابريقة السكر وجميع الأبنية الأخرى داخلة ضمن حكم الهبة » كما وهبها مخازن قصر المرحوم أحمد باشا ، بناء على التماس دفعته قرينة أحمد باشا : صاحبة العفة شمس هانم ، بالتنازل عن هذه المخازن ، مقابل منحها أبعدية مقدارها ألف فدان من الأطيان المتروكة .

ووالدة الخديو إسماعيل ، كانت جميلة محبة للمرح والانشراح ، أقامت لفترة مع حاشيتها بسراى الزعفران بالعباسية ، ثم انتقلت مرة أخرى إلى القصر العالى . . ويقول أحمد شفيق باشا فى مذكراته ، عن الحياة الداخلية بسراى الوالدة باشا :

« . . فى أيام الأعياد والمواسم والاستقبالات الكبيرة وفى أفراح الأنجال ، كانت الموسيقى تعزف فى كشك من الخشب متصل بالحريم ، وعند دخول الزائرات تعزف بالسلام ،وبالأدوار العربية والتركية والأفرنكية ، وكان بالبهو الداخلى فرقة أخرى موسيقية وترية مصحوبة بمغنيات مصريات وتركيات ، بالسراويل المزركشة بالقصب ، وفى مكان آخر ، كانت توجد فرقة راقصات فى أحسن زى ، وكلهن من ربات الجمال ، وكان للأميرة خوشيار هانم غرام بالفن الجميل ، وكانت تنتقى الجوارى الحسان . . وهؤلاء الجوارى كن يشترين من بعض الأتراك ، الذين كانوا يأتون بهن من الآستانة ، وأغلبهن من أصل شركى ...

وكل شىء فى هذه السراى كان أميل للطريقة الشرقية ، فكانت الوالده تجلس مع البرنسيسات والزائرات غير الأجنبيات على حشايا مغطاة بقماش مزركش بالقصب ، توضع على الأرض بهيئة دائرة فى وسطها كرسى توضع فوقه صينية من الفضة وأدواتها كذلك ، إلا فى المناسبات الخاصة ، فتكون جميعها من الذهب ، ويقوم بالخدمة جَوَارٍ يرتدين اللباس الفاخر وكان استقبال الزائرات على النظام المتبع بقصر عابدين ، إلا أنه يختلف فى جلوس الزائرات فى غرفة الاستقبال على مقاعد شرقية عالية ، فى حين تجلس الوصيفات على حشايا أرضية ، وتقدم للزائرات القهوة مثلما فى عابدين ، وكان يقدم لهن شبكات التدخين لمن يدخن . . ثم تقاد الزائرات إلى غرفة استقبال الوالدة ، التى ترتدى الملابس الشرقية الثمينة ، وكانت ترحب بهن باحترام وبشاشة ، ثم ترجع الزائرات إلى الصالون ويشربن الشربات أو السوبيا ، وبعدها يرافقهن الأغوات إلى الباب الخارجى »

وسراى الإسماعيلية الصغرى ، بجوار كوبرى قصر النيل ، وسميت بهذا الاسم عندما شرع فى تشييد سراى الإسماعيلية الكبرى . .

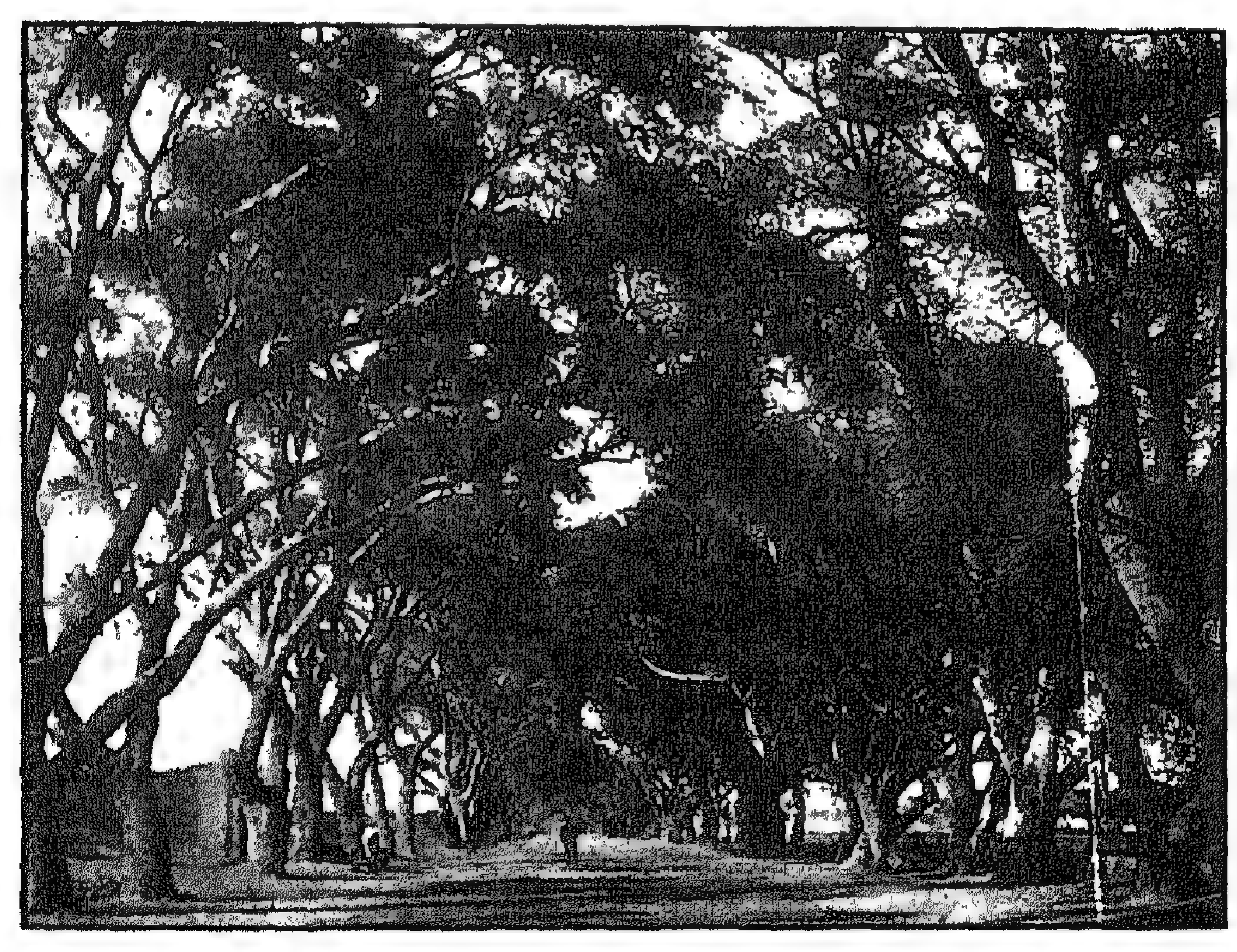
وكان الخديو إسماعيل قد اشترى موقع سراى الإسماعيلية الكبرى أو (السراى المستجدة) في ٦ جمادى الآخرة سنة ١٢٨٨ هـ / ١٨٧١ م ، بمقتضى الأمر الكريم الصادر إلى المالية ومنطوقه : « قد اقتضت إرادتنا أن الأراضى والأملاك التى صار مشتراها بجهة جزيرة العبيط ، التى حدها البحرى : طريق كوبرى قصر النيل ، والقبلى : جنينة أخينا المرحوم أحمد باشا ، والشرقى : طريق الشيخ يوسف الموصل للقصر العالى ومصر القديمة ، والغربى : البحر الأعظم ، جميع ذلك يكتب به حجة شرعية باسم ٣جى هانم حرمنا ، بما فى ذلك الأرض الجارى وسيجرى بها بناء السراى المستجدة هناك . . » وجزيرة العبيط ، كانت أشبه بقرية صغيرة ، يفصلها الماء عن منطقة باب اللوق ، ثم ردمت واختلطت بأرض اللوق ، وهدم إسماعيل مبانيها ، وضم جامع وضريح العبيط بداخل السور الغربى للسراى ، وموقعها الآن فى المنطقة التى تضم مبنى وزارة الخارجية وجامع عمر مكرم (فى موقع جامع العبيط) ومجمع المصالح الحكومية .

بعد هدم القصر العالى ، قسمت أراضيه عام ١٩٠٦ ، بدءاً بمنطقة قصر الدوبارة (مقر السفارة البريطانية) والذى كان قصراً للأميرة أمينة هانم بنت إلهامى باشا ابن عباس الأول ، قرينة الخديو توفيق ، ووالدة الخديو عباس الثانى ، وشيدت القنصلية الانجليزية التى ضمت عدداً من المبانى المطلة على النيل ، وبدأ ظهور القصور والفيلات الفاخرة وسط حدائق رائعة شاسعة ، على شوارع ذات تصميم مستدير على النمط الانجليزى ، ومن أجمل القصور التى كان يتألق بها حى جاردن سيتى ، على سبيل المثال : قصر الأميرة نعمة الله ابنة الخديو توفيق ، وقصر الأمير عباس حليم ، وقصر إلهامى حسين زوج الأميرة شويكار . ثم شهد الحى ، فى مرحلة تالية ، عمارات حديثة ومقار للبنوك والمكاتب التجارية بين القصور والفيلات التى هُجرت حدائقها وتآكلت واجهات مبانيها !

حدائق وشارع شبرا :

كانت شبرا فيما مضى هى « فردوس القاهرة » هكذا وصفها الأديب الرحالة البريطانى « دوجلاس سلادين » فى منتصف القرن التاسع عشر ، وأشاد بالقصور المشيدة على الطراز الإيطالى ، محاطة بأندر النباتات والزهور وأشجار النخيل ، والبرتقال والموز والتين . . وأشار إلى أن شبرا كانت المقر المفضل والمحبب إلى محمد على باشا .

وتحت عنوان « ذكرى من شبرا » . . يصف الأديب الرحالة الفرنسى الشهير : جيرار دى نير فال ، انطباعاته التى سجلها عن رحلته فى الشرق ، فيقول : « منذ سنين زرت فى القاهرة ، مقر والى مصر ، وهو مقر جميل فى شبرا ، جعل منه محمد على : جنة الشرق » ! . . ووصف شارع شبرا بأنه « لا مثيل له فى العالم » ! انظر لوحة (٢٤)



لوحة (٢٤)
صورة نادرة لشارع شبرا كما كان يبدو عام ١٨٧٣ م

ويصف الفنان الرحالة الفرنسى « مونتبار» حدائق شبرا ، بأنها « شانزليزيه Champs Élysées - الشرق» . . ترتادها الطبقة الراقية من القاهريين ، والعربات الفخمة تجرها الجياد المجرية المطهمة ، تحمل أفراد الأسرة الخديوية ، والأمراء وكبار الأعيان ، يتقدمها قمشجية (سيّاس) بستراتهم المزركشة يفسحون لهم الطريق .

وإذا اطلعنا على خريطة القاهرة ، التى وضعها علماء الحملة الفرنسية عام ١٨٠٠ ، سيتبين لنا أن قسم شبرا : كان أرضاً زراعية بها كثير من البساتين وبعض المساكن المتناثرة بجزيرة بدران . وعندما شيد محمد على قصر « شبرا الخيمة » . . تم تمهيد طريق تحفه أشجار الجميز والأكاسيا أطلق عليه « سكة شبرا » وافتتح عام ١٨٠٨ ، وفى الفترة من عام ١٨٣٠ م إلى عام ١٨٣٥ م ، لوحظ انتشار كبير للقصور والحدائق على جانبى شارع شبرا ، فقد كان لشق الترعة البولاقية وخليج الزعفرانى ، وتطوير نظام توزيع المياه ، أثر كبير فى زراعة ونمو الحدائق ، رغبة من الأمراء فى الاقتداء بالوالى والالتفاف حوله ، أو التواجد بالقرب منه ! . . وكان محمد على قد أنشأ شمالى سكة شبرا ، قصراً لابنته زينب هانم ، وقصراً آخر لنجله حليم باشا .

ثم أنشأ الخديو سعيد « قصر النزهة » عام ١٨٥٨م ، كما شيدت حرمه « انجوا هانم» قصراً ومسجدًا بجزيرة بدران ، عام ١٨٦٥ م ، وشيد شيكولانى قصره الشهير عام ١٨٧٣م . .

وفى عهد الخديو إسماعيل ، شهدت شبرا نمواً عمرانياً متزايداً ، وكان قد أهدى قصر النزهة « بطريق شبرا والأراضى الموجودة بداخل سور القصر إلى صاحب الدولة طوسون باشا » فى ٢٩ شعبان ١٢٧٩هـ ، وقد زار السلطان عبد العزيز هذا القصر (مدرسة التوفيقية الثانوية حالياً) فى ٢٢ شوال ، فى ضيافة الأمير عبد الحليم باشا عم إسماعيل ، بعد أن رأس حفل توديع المحمل المصرى إلى الحجاز ، وفى عام ١٨٦٩م ، شيد الأمير طوسون بن سعيد باشا ، ووالد الأمير عمر طوسون ، قصره الشهير ، بجوار مصنع المبيضة الذى أمر بإنشائه محمد على ، بشارع أبى الفرج وهذه السراى تحتلها اليوم مدرسة شبرا الثانوية ! . . ثم تبعه عدد من الأمراء والأميرات وكبار التجار والأعيان ، فشيدوا القصور الفخمة والبساتين الزاهرة على جانبى شارع شبرا ، ثم

امتدت حركة العمران إلى شاطىء النيل وجسر السكة الحديدية وترعة الإسماعيلية ، وأصبحت ضاحية للإقامة والنزهة ، وانتشرت بها بعض المقاهى ، مثل قهوة « سى خليل » . .

وفيما بين عامى ١٨٦٣م و ١٨٦٥ م ، تم تنفيذ بعض الأعمال الهندسية لتحويل مجرى النيل إلى الشرق ، تجاه القاهرة وبولاق ، لتظهر أرض جديدة « طرح النهر » عام ١٨٦٦م غربى شارع أبى الفرج وجسر طراد النيل القديم ، وهذا الطرح هو ما يعرف بروض الفرج والساحل .

فى عام ١٨٨١ م ، تم تمهيد شارع شبرا بالحجر الجيرى ، وفى العام التالى . تمت إنارته بمصابيح الغاز ، . وفى عام ١٨٩٢ م ، ظهر أول تقسيم للأراضى فى شبرا ، بين خط سكك حديد الصعيد وشارع جزيرة بدران ، بالقرب من ورش السكك الحديدية ، وبدأ العمران يزحف من الجنوب إلى الشمال على جانبى شارع شبرا ، ليحل مزيد من تقسيمات المبانى للإسكان الشعبى محل الحدائق ، والقصور والدور الفخمة بدأ أصحابها بهجرها، مع بداية القرن العشرين ، وتحول قصر شيكولانى إلى مصنع للسجاير ! . . وترك تطوير شبرا للشركات العقارية وشركات البناء الخاصة ، وينتعش المشروع الحضرى ، بحصول الشركة البلجيكية لترام القاهرة ، على امتياز بمد خط من باب الحديد ، يمر بكوبرى شبرا ، إلى نهاية شارع شبرا ، يتفرع منه خط إلى ساحل روض الفرج ، واحتفل بافتتاحه فى ١٩ مايو سنة ١٩٠٣م ، بعد أن أعيد تمهيد الشارع بحجر البازلت .

وهكذا أفرزت حدائق شبرا ، مدينة كانت عناصرها الوحيدة : شارع شبرا والترعه البولاقية ،التى ردم الجزء الجنوبى منها عام ١٩٠٥م ، أما الطريق العرضى الوحيد ـ شارع روض الفرج ـ فقد أنشىء عام ١٩٠١ م ، بعد نزع ملكية عدد من العقارات ، ليخدم الميناء الذى أقيم فى بداية هذا القرن .

حلوان ـ التوفيقية

تحت وطأة النمو السكانى المتزايد ، كان من الطبيعى أن يتسع عمران القاهرة فى ذلك العهد ، وإن تركز هذا التوسع فى المناطق التى أدمجها إسماعيل باشا فى إطار مشروعاته لتطوير القاهرة ، وشهدت المنطقة الواقعة غرب حدائق الأزبكية حركة عمرانية نشطة ، حيث تزاحمت وتلاصقت فيها المبانى التجارية والمؤسسات المالية والاستشارية ، لتتكامل مع العمارات السكنية والفيلات ـ كما سبق أن أشرت ـ وامتدت المنطقة التجارية من حى الموسكى حتى ميدان الأوبرا غرباً ، وسرعان ما تمكن التجار اليهود واليونانيون والأرمن ، من بسط سيطرتهم على مركز التجارة الأوروبية فى هذه المنطقة .

وتحول شارع درب الجماميز بحى السيدة زينب ، إلى منطقة تزينها العمارات الأنيقة وبدأ استكمال حى الحلمية ، الذى كان أبرز معالمه : قصر الحلمية ، الذى بناه عباس حلمى الأول ، ثم آل إلى حفيدته الأميرة أمينة هانم قرينة الخديو توفيق . .

وكانت منطقة حلوان قد حظيت باهتمام الخديو إسماعيل ، وكانت عيون المياه المعدنية (الكبريتية) التى اكتشفت فى عهد عباس الأول عام ١٨٥٠م ، قد نالها الإهمال ، إلى أن قام الخديو بزيارتها عام ١٨٧١م ، فأمر بضرورة الاهتمام بها ، وإنشاء حمامات بجوار العيون ، على هيئة أكشاك خشبية ، وبناء فندق للمسافرين ، وحوض سعته ٥ آلاف متر مكعب ودار للاستشفاء ، وقد أشارت جريدة « الوقائع » فى عددها الصادر بتايخ ١٣ يناير سنة ١٨٧٤م ، إلى ما شهدته حلوان من إقبال وعمران « . . والآن نرى تلك الجهة كل يوم فى زيادة العمارية ، فى الظلال الوارفة الخديوية ، وبها محل الماء يكون من جملة الحمامات المعدودة الشفائية ، والمتنزهات العامة لجميع البرية »

وشيد الخديو قصر « الوالدة » . . وفى ٢١ يناير سنة ١٨٧٧م ، افتتح خط سكة حلوان من ميدان محمد على إلى حمامات حلوان .

وحتى نهاية عصر إسماعيل ، ظل هناك جيب كبير من الأراضى المعدة للبناء ـ داخل نطاق المدينة ـ عبارة عن مثلث يحده جنوباً شارع بولاق (فؤاد) وشرقا شارع نوبار ،

وفى الشمال الغربى ترعة الإسماعيلية ، وهذه المنطقة كانت أسفل مجرى النيل ، قبل أن يغير اندفاع الفيضان مساره إلى جهة الغرب ، وظلت أرضاً منخفضة تتجمع بها المستنقعات ومياه الرشح . . إلى أن أمر الخديو توفيق بتصريف مياه تلك المستنقعات وتسويتها وردم الترع الفرعية التى كانت تتخلل هذه المنطقة ، التى بدأت حركة العمران تزحف إليها ، إلى أن تكاثفت ليظهر إلى الوجود الحى الذى نعرفه الآن « حى التوفيقية » والذى يمثل جزءاً هاماً من المنطقة المركزية الحالية أو ما يمكن أن نسميه : قلب القاهرة الأوربية !

أفول نجم إسماعيل :

كانت طموحات إسماعيل فى إنشاء مدينة حديثة على الطراز الأوربى ، بكل مظاهر تلك الحضارة ، ومحاولات تحديث وتطوير القاهرة القديمة ، وتعميم المرافق ، وتشييد القصور الفخمة ، وإنشاء البساتين والمتنزهات العامة ، وتمهيد الشوارع الجديدة ، وإقامة الحفلات الصاخبة ، ومشروع قناة السويس ، فضلاً عن ضخامة الجزية التى كانت تنتزعها استانبول ، ثمناً لكل امتياز جديد من امتيازات الحكم الذاتى التى منحتها له . . كل ذلك كان له آثاره المباشرة فى رفع مصروفات الحكومة المصرية إلى مستوى غير معهود ، مما أدى إلى اتساع الفجوة بين النفقات المتضخمة للحكومة الخديوية ومواردها ، فلجأ إسماعيل إلى الاستدانة من بيوت المال الأوروبية ، الأمر الذى أدى إلى رهن نصيب مصر من أسهم وأرباح شركة قناة السويس . .

وتصاعدت الأزمة المالية عام ١٨٧٥م ، وتفاقمت أحداثها ، إلى أن سارع «ديزرائيللى » رئيس وزراء بريطانيا آنذاك ـ دون انتظار لموافقة مجلس الوزراء ـ لشراء كل أسهم مصر فى قناة السويس ، مقابل أربع ملايين من الجنيهات ! . . دفعها «روتشيلد » أحد ذئاب الرأسمالية اليهودية العالمية ، ليحقق دزرائيللى أعجب « صفقة » مالية فى التاريخ ! . . كانت سبباً مباشراً فى تدخل انجلترا لإدارة الشئون المالية لمصر ، حتى انتهى الأمر فى عام ١٨٨٢م باحتلالها العسكرى للبلاد .

وفى عام ١٨٧٨م ، تحول الخديو إسماعيل إلى « ملك دستورى » بمقتضى نظام «الرقابة الثنائية » الذى فرضته بريطانيا وفرنسا ، للإشراف على الموارد والإنفاق ، ثم تحولت السلطة الحقيقية إلى مجلس النظار ، الذى ضم ناظراً بريطانيا للمالية ، وآخر فرنسياً للأشغال العامة ، وذلك بعد أن ألغى نظام الرقابة الثنائية . .

فى ٢٦ يونيو عام ١٨٧٩م ، أعلن السلطان التركى ـ بضغط من بريطانيا وفرنسا ـ عزل إسماعيل عن عرش مصر ، فرحل إلى إيطاليا ، ووافته المنية فى ٢ مارس عام ١٨٩٥م باستانبول ، ودفن بجامع الرفاعى فى ١١ مارس .

وهكذا هوى نجم الخديو إسماعيل ، بعد أن منح القاهرة وجهاً جديداً متألقاً ، فى السنوات الاثنتى عشرة الأولى من حكمه ، ولكنه فقد عرشه فى السنة السادسة عشرة !

معالم السياسة الحضارية :

فى السطور التالية ، سأحاول أن أعرض - فى إيجاز - أهم معالم القاهرة وما أبدعه إسماعيل باشا - فى إطار سياسته الحضارية - فى مجالات الخدمات والمرافق العامة ، واستكمال مابدأه جده محمد على باشا فى مشروعات البنية الأساسية القومية : شبكة هائلة من الترع والجسور والقناطر والأهوسة ، وشبكة الطرق الرئيسية ، وشبكة السكك الحديدية ، والعديد من المؤسسات الدستورية والعلمية والثقافية . .

ففى عصره الزاهر ، فتحت أهم شوارع القاهرة :

● محمد على (القلعة) كلوت بك ، الفجالة، عبد العزيز ، العباسية ، السكة الجديدة ، قصر النيل ، عماد الدين ، المغربى (عدلى) المناخ (عبد الخالق ثروت) المدابغ (شريف) الشيخ حمزة (هدى شعرواى) سليمان باشا (طلعت حرب) وشارع الأهرام ، وإعادة تمهيد شارعى شبرا وبولاق .

● شيد حدائق : الأزبكية ، الأورمان ، الجزيرة ، الأسماك ، الحيوان ، ومتنزهات شبرا .

● أسس أحياء جديدة : الإسماعيلية ، الأزبكية ، عابدين ، الفجالة ، وشملت خطط التطوير أحياء الحلمية ، الموسكى ، السيده زينب ، الجيزة . .

● أنشأ ميادين : إبراهيم باشا (الأوبرا) الإسماعيلية (التحرير) عابدين ، وأعاد تخطيط ميدان القلعة وغرس به الأشجار .

● كان أول من قام بعمل تماثيل فى الميادين العامة فبالإضافة إلى تمثال محمد على باشا بميدان (القناصل - المنشية) بالاسكندرية ، أقام تمثالاً لإبراهيم باشا بميدان الأوبرا حالياً ، وآخر لسليمان باشا .

● جدد أسوار قلعة صلاح الدين ، وتجديد وتوسيع المشهد الحسينى ، كما شرع فى تشييد جامع الرفاعى ، الذى تكفلت بنفقاته الأميرة خوشيار هانم (الوالدة باشا) .

● أولى إسماعيل السكك الحديدية اهتماماً عظيماً . . حيث أصدر « إرادة لنوبار

باشا ناظر الأشغال العمومية » فى ٩ رجب سنة ١٢٨١ هـ : « كما هو مبين فى أمرنا الصادر إلى سعادتكم رقم ١ قد صار توجيه نظارة ديوان الأشغال العمومية الذى تأسس حديثاً لتنظيم الأمور والمصالح المؤدية لتقدم بلادنا على الوجه اللائق إلى فطانتكم ، حيث إن مصلحة السكة الحديدية هى من أعظم أسباب وبواعث تمدن وعمران البلاد وتقدمها ، فبناء عليه قد اقتضت إرادتى ضم هذه المصلحة إلى مأموريتكم وجعلها من فروع الديوان المذكور » وكانت خطوط السكك الحديدية ، قبل توليه العرش ، تبلغ ٢٤٥ ميلاً ، وفيما بين عامى ١٨٦٣ ـ ١٨٧٢ م ، وصلت الشبكة إلى ١١١٢ ميلاً .

● شراء مكاتب البريد الإيطالية ، التى كان يديرها مسيو موتسى ، وصدور أمر عال بتاريخ ١٤ يناير ١٨٦٥م بإقرار الصفقة وضم الأرباح إلى إيرادات الدولة ، وشيد المبنى المركزى لمصلحة البريد بالعتبة عام ١٨٧٤

● شراء المطبعة الأميرية « على اسمه وذمته » بمبلغ ٢٠ ألف جنيه فى ١٥ رمضان ١٢٨١ هـ ، بناء على إرادة لناظر الدائرة السنية ، وكانت قد أهديت فى عهد سعيد باشا إلى عبد الرحمن رشدى بك « . . . حيث إن هذا المحل من الآثار الجليلة ومنافعه وفوائده للعامة عظيمة ، وأن المروءة والإنسانية لا ترضى ولا تقبل أن تشاهد هذا الأثر الجليل مشرفاً على الخراب وأن تنظر تعطيله واندراسه . . »

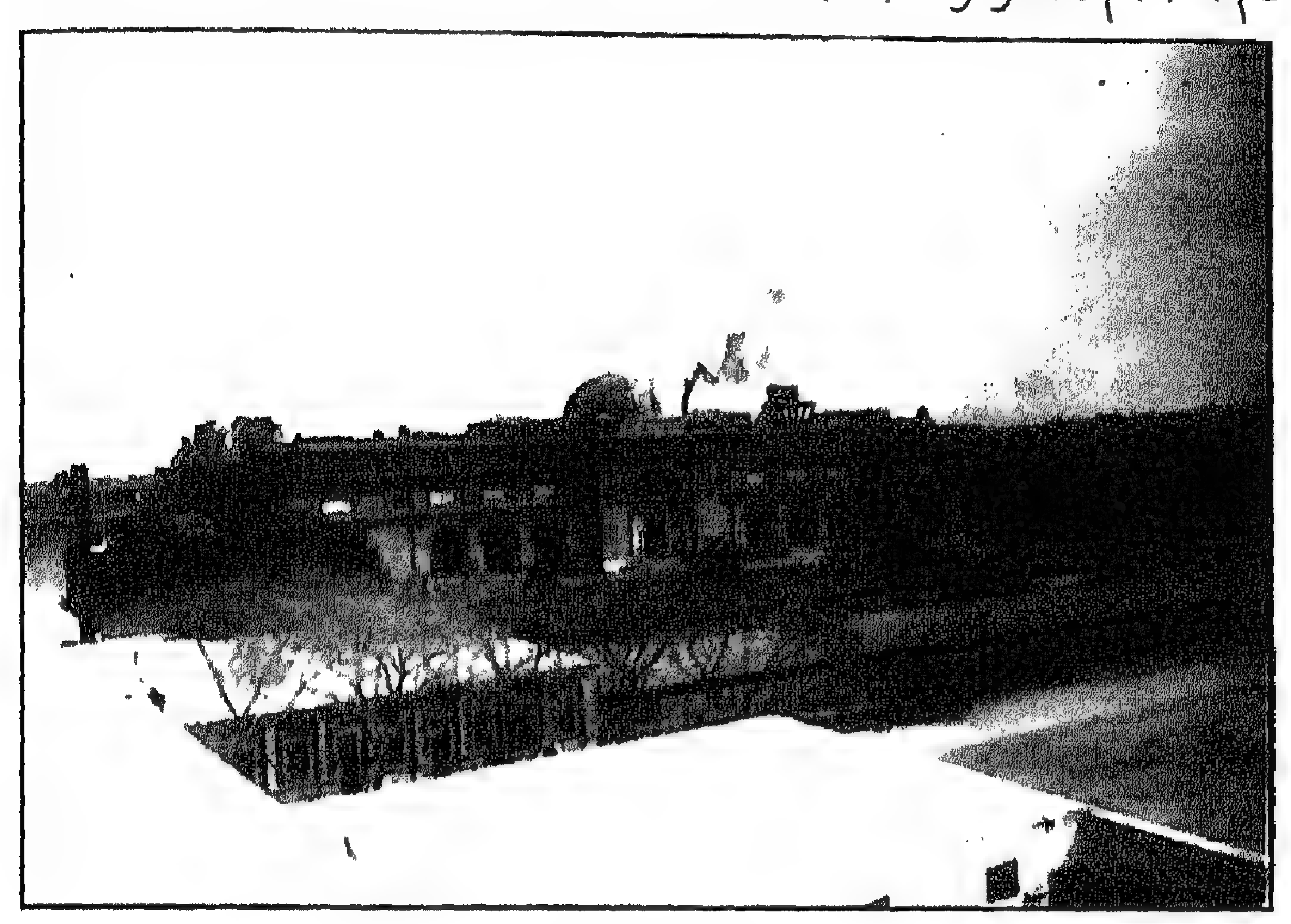
● تشكيل ديوان المدارس ، وإنشاء المدارس التجهيزية والمبتديان ، بمقتضى الأمر العالى الصادر فى ٢٦ يناير ١٨٦٣م ، وكان مقرها بسراى العباسية ، كما أنشأ عدداً من المدارس الحربية بالعباسية : البيادة (المشاة) السوارى (الفرسان) الطوبجية (المدفعية) ومدرسة أركان الحرب ، ومدرسة صف الضباط .

● أعاد تنظيم مدرسة الطب ، ومدرسة المهندسخانة خلال عام ١٨٦٥ م .

● أنشأ عدداً من المدارس العليا : مدرسة الإدارة والألسن (الحقوق) فى ابريل ١٨٦٧م ، ومدرسة المساحة والمحاسبة فى يناير ١٨٦٨م ، ومدرسة اللسان المصرى القديم (علم المصريات) علم ١٨٦٩م ، وكان أشهر خريجيها عالم المصريات أحمد كمال باشا ، ودار العلوم فى أغسطس ١٨٧٢ م .

● فى عهده أقيمت أول مدرسة للبنات فى مصر : مدرسة السيوفية للبنات ، فى يناير ١٨٧٣ ، شيدتها زوجه الثالثة : الأميره جشم آفت هانم .

● افتتاح الأنتيقة خانة (دار العاديات ـ المتحف المصرى) ببولاق ، فى ١٨ اكتوبر عام ١٨٦٣م ، أما المتحف الحالى بميدان التحرير ، فقد افتتحه عباس حلمى الثانى عام ١٩٠٢م . أنظر لوحة (٢٥).



لوحة (٢٥)
المتحف المصرى وجزء من ثكنات قصر النيل ـ عام ١٩١٤ م

● فى ٤ يناير ١٨٦٨م ، افتتح المسرح الكوميدى بالأزبكية ، وفى الأول من نوفمبر ١٨٦٩م ، افتتح إسماعيل باشا : دار الاوبرا الخديوية ، وفى نفس العام ، أصدر أمراً عالياً بإنشاء دار الآثار العربية ، وعهد بتنفيذ المشروع إلى فرانس باشا كبير مهندسى الأوقاف ، إلا أن هذا المشروع صادف بعض العقبات ، إلى أن افتتح فى ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٠٣م ، وعقب ثورة يوليو ، أطلق عليه : متحف الفن الإسلامى .

● أنشأ دار الرصد خانة (المرصد) بالعباسية عام ١٨٧٩م ، نقلت فيما بعد إلى

حلوان، وعهد برئاسة الرصدخانة إلى العالم الشهير : إسماعيل باشا الفلكى ، كذلك أنشئت مصلحة المساحة ، وعهد بإدارتها إلى سيركلفين ، ثم الجنرال استون باشا رئيس هيئة أركان حرب الجيش المصرى .

● أنشأ « الكتبخانة الخديوية - دار الكتب المصرية » عام ١٨٧٠ م ، وكانت تشغل الطابق الأرضى بسراى مصطفى فاضل باشا بدرب الجماميز ، إلى أن نقلت إلى ميدان باب الخلق عام ١٩٠٤ م .

● شيد كوبرى قصر النيل (قنطرة الجزيرة) وكوبرى البحر الأعمى (الجلاء) عام ١٨٧٢م .

● أسس « الجمعية الجغرافية الخديوية » فى ١٩ مايو ١٨٧٥م .

● شيد العديد من القصور الفاخرة ، التى كانت إحدى سمات عصره :

ففى القاهرة شيد سرايات : الجزيرة (عمر الخيام - ماريوت) الإسماعيلية ، عابدين التى ولد بها الملك فاروق فى ١١ فبراير ١٩٢٠ ، الجيزة ، الزعفران (مقر إدارة جامعة عين شمس) النزهة ، سراى الوالدة باشا بحلوان ، التى أهداها قصر العباسية (الحصوة) وقام بتجديد سراى القبة ، وقصر المسافر خانة الذى ولد به فى ٣١ ديسمبر ١٨٣٠م . . وسراى القصر العالى ، الذى شهد أفراح الأنجال الأمراء : محمد توفيق باشا أنظر لوحة (٢٦) ، حسن باشا ، حسين كامل باشا ، والأميرة فاطمة هانم ، فى ١٥ يناير ١٨٧٣م ، كما شهد من قبل الاحتفال بزواج الأميرات : جميلة هانم ، توحيدة هانم ، فائقة هانم ، عام ١٨٦٩م .

● شيد عدداً من السرايات للأميرات بناته :

- سراى الأميرة توحيدة هانم ، حرم منصور باشا عضو المجلس المخصوص ، والذى أطلق اسمه على شارع سكة حديد حلوان ، وكانت السراى تمتد من شارع جامع البنات إلى درب سعادة ، فى موقعها الآن : مديرية أمن القاهرة ومحكمة مصر وسراى أخرى بشارع الفلكى (وزارة الإنتاج الحربى) . أنظر لوحة (٢٧) .



لـوحـة (٢٦)

الخديو توفيق باشا الإبن الأكبر للخديو اسماعيل . . ونرى فى الصورة والدته شفق نور هانم وقرينته أمينة هانم وأولاده الأميرة خديجة والأمير عباس حلمى [الخديو فيما بعد] والأمير محمد على توفيق .



لـوحـة (٢٧)

الأميرة توحيدة هانم

ـ سراى الأميرة جميلة هانم ، حرم محرم باشا بن كنج شاهين ناظر الجهادية (وزير الحربية) وكانت مقر المدرسة السعيدية الثانوية حتى الحرب العالمية الأولى حيث استخدم كمستشفى للقوات البريطانية ، ثم مقراً لمدرسة محمد على للبنات ، ثم لوزارة المعارف العمومية ، وبموقعه الآن وزارات : التموين والتجارة الداخلية ، الإسكان ، والبحث العلمى .

ـ سراى الأميرة فائقة هانم ، الإبنة المتبناة للزوجة الثالثة : الأميرة جشم آفت هانم ، وكانت فائقة هانم تتمتع بمكانة خاصة لدى إسماعيل ، اقترنت بمصطفى باشا بن إسماعيل صديق المفتش ، ثم تزوجت محمد عزت باشا ، والواجهة الشمالية للسراى تطل على شارع الطرقة الغربى (إسماعيل أباظة) والواجهة الشرقية على شارع الفلكى ، وهى الآن مقر وزارة التعليم . .

وفى رسالته للدكتوراه ـ غير المنشورة ـ بعنوان : تحديد المواقع لمدينة حديثة من ١٨٦٧ إلى ١٩٠٧م ، يقول الباحث الفرنسى : جان لوك أرنو : « كان إسماعيل أهم الملاك فى الناصرية وكانت المساحات الأربع التى يملكها تجتمع على طول شارع قصر العينى ، جنوبى هذا الحى ، عام ١٨٧٤ ، وكان قد شيد ثلاثة قصور لبناته على هذه الأراضى ، بينما كان القصر الرابع قيد الإنشاء فى المواجهة بمحاذاة النيل ، وكان شارع قصر العينى هو المحور الرئيسى لهذا التجمع ، وكانت مدرسة البنات النبيلات مجرد مشروع فى تلك الآونة » . . وقد ظهرت مواقع السرايات الثلاث على خريطة « جران بك» ١٨٧٤ ، فى المنطقة الواقعة بين شارع قصر العينى وشارع منصور ، جنوبى شارع الطرقة الغربى .

ـ سراى الأميرة فاطمة هانم ، حرم الأمير طوسون باشا ابن الخديو سعيد ، وكانت إلى الجنوب من سراى عابدين عند مدخل شارع البرامونى وكان إسماعيل قد أهداها سراى بولاق الدكرور ، وقد تبرعت الأميرة بالأرض والأموال ومجوهراتها الخاصة من أجل إنشاء الجامعة المصرية ـ جامعة القاهرة الآن !

ـ سراى الأميرة زينب هانم ، وكانت بالقرب من سراى القصر العالى ، فى موقع السفارة الأميركية بجاردن سيتى . هذا بالإضافة إلى سرايات أشقائه : أحمد باشا

ومصطفى فاضل باشا ، وسراى شقيقه فى الرضاع : إسماعيل صديق باشا ، ناظر المالية ، وكانت عبارة عن ثلاثة قصور ، على الطراز الفرنسى ، تحيط بها حدائق رائعة وسور شاهق ، وقد أشار على باشا مبارك إلى أن هذه السراى قد تحولت إلى مقار لدواوين المالية والحقانية (العدل) والداخلية .

وحتى يمكننا الوقوف على التطورات الحضارية الهائلة التى شهدتها القاهرة ، فى ذلك العصر، وكثير من هذه الأحياء والشوارع والمعالم ، مازال يشكل وجه القاهرة الحديثة فى يومنا هذا ، علينا أن نرجع إلى خريطة « جران بك ـ Grand Bey » التى وضعها عام ١٨٧٤م بأمر من الخديو إسماعيل ، وهذه الخريطة اعتمدت بالأساس على خريطة القاهرة فى كتاب « وصف مصر » وسجل بها التعديلات الضخمة التى طرأت على المدينة، منذ بداية القرن التاسع عشر حتى عصر إسماعيل ، وخريطة جران بك هى التى اعتمدها « هرتس باشا » مدير لجنة حفظ الآثار العربية ، وهو يضع خريطة الآثار الإسلامية بمدينة القاهرة عام ١٩١٤م .

وإذا كانت القاهرة الإسلامية تزهو بآثار وروائع خلفائها وسلاطينها . . فإن القاهرة الحديثة سجل لتاريخ إسماعيل باشا ومرآة لعصره .

●● " فارمان " فى عاصمة الخديو !

- ☒ استقبال الخديو لفارمان بقصر الجزيرة .
- ☒ مشاهد من الحياة الاجتماعية بالقاهرة فى عصر إسماعيل .
- ☒ صوم رمضان وخروج المحمل .
- ☒ أفول نجم أفنديتا ورحيله عن مصر .

« ألبرت فارمان » فى عاصمة الخديو

اعتمدت المعرفة الغربية عن الشرق ، كتابات الرحالة والأدباء والمغامرين وتقارير العلماء والمستشرقين والقناصل .

ومن أبرز الكتابات التى استوقفتنى كثيرا ، ما أبدعه « ألبرت فارمان » قنصل عام الولايات المتحدة الأمريكية فى مصر ، إبان عهد الخديو إسماعيل وبداية حكم ابنه الخديو توفيق ، وقد وصل إلى مصر فى ٢٨ إبريل سنة ١٨٧٦م ، ودامت إقامته بها خمس سنوات ، وتوطدت خلالها أواصر صداقته بـ « أفندينا » وقد رصد « فى كتابه المتفرد «مصر وكيف غدر بها » أدق تفاصيل الحياة السياسية والاجتماعية فى « عاصمة الخديو » على حد تعبيره . . . . . فى ذلك العصر المفعم بالأحداث والتطورات الهائلة ، ووصف لنا فى براعة وموضوعية استقبال سمو الخديو وزياراته المتعددة له ، ومراسم القصور الملكية وتقاليد الأسرة الخديوية ، والاحتفالات بالمناسبات الدينية والقومية فى إطار التقاليد الموروثة للشعب المصرى :

« هيأ لى الصباح مشاهدة أول منظر لمدينة القاهرة . وكان الفندق (الكونتننتال) وهو بناء ضخم ، من بين الممتلكات الخاصة للخديو فى ذلك الوقت فقد أقيم أصلا لكى يتسع لإقامة الضيوف الذين حضروا الاحتفال بافتتاح قناة السوييس وكان له شرفة ذات أرضية من الرخام حيث يستطيع الضيوف أن يجلسوا ، وقد أظلتهم خميلة تحميهم من وهج الشمس ، ويشاهدوا المناظر العابرة التى تنطق بالفتنة الجارفة ، كما يستنشقون الهواء الصحى الذى يمتاز به هذا الجو الممتع ، حقا ، إن ـ الزائر الذى يملك وقت فراغ كاف يستطيع أن يقضى الساعات والأيام فى هذا المكان ، ينعم بمشاهدة مناظر متجددة تتكشف أمام ناظريه على الدوام . أنظر لوحة (٢٨) .

والشوارع مكتظة بالمارة يتجاوب فيها باستمرار وقع أقدام خليط كبير من الناس وهم يسرعون فى طريقهم . هنالك توجد الحمير لركوب السائحين أو النساء المحجبات



لوحة (٢٨)
فندق الكونتننتال وجانب من ميدان ابراهيم باشا [ميدان الأوبرا حالياً]

اللاتى يرتدين ملابس سوداء واللاتى ينتمين إلى القشرة الدنيا من الطبقة المتوسطة ، ويسرع خلف الحمير المكاريون يستحثونها بصرخاتهم العالية أو يلهبون ظهورها بسياطهم. وتوجد أعداد كبيرة من الجمال محملة بالحبوب ، وأخرى أسرع منها تحمل بعض البدو على ظهورها كما توجد عربات يركبها بعض النسوة الجميلات من حريم الخديو تغطى وجوههن غلالات رقيقة ويرافقهن أغواتهن . وهناك عربات أخرى أقل فخامة تحمل بعض النساء الأكثر تحفظا (هن زوجات وبنات البكوات والباشوات) ويرافقهن كذلك أغواتهن .

أما السقا أو « حامل الماء » فهو يسير حاملا قربته مملوءة بالماء يرش بها الشارع ، أو يوزع جرعات من الماء على المارة فى أكواب مصنوعة من النحاس الأصفر وهو ينادى «يعوض الله » آملا فى أن ينال صدقة يسيرة . أنظر لوحة (٢٩) .

ويمر القناصل والباشوات فى مواكب حافلة يتقدمهم سائسون يرتدون ملابس مزركشة ويسرعون الخطا ، كما يتقدم موكب الخديو حراسه على صهوة جيادهم وسائسوه وهم يصيحون : « أفسحوا الطريق » .

وإلى جانب ذلك يوجد بعض الجنود تصاحبهم فرق الموسيقى وترى إلى جانب ذلك الشحاذين القذرين ، وتسمع وقع أقدام لا ينقطع من اليهود والأقباط والمسلمين والعرب والأتراك والسوريين والأرمن والعجم والأوروبيين وكل منهم فى زيه الذى يتميز به ، هذه هى المناظر اليومية لذلك الشريط الذى لا ينتهى من المناظر الخلابة التى تجرى فى شوراع القاهرة .

وتكتنف شرفة الفندق من كل جانب حدائق مليئة بأشجار ونباتات المناطق الحارة . وعبر الشارع فى قلب الحى الأوروبى ، تقع حديقة الأزبكية ببحيرتها ونافورتها وجبلاياتها ، ومغاراتها ، وتحتل عشرين فدانا أو يزيد . كما تتخللها الطرقات الجميلة ، والشجيرات والأشجار العديدة النادرة التى تجلب أغلبها من الهند .

ومن بين هذه الأشجار يوجد عدد كبير من أشجار « البنيان » تتدلى فروعها إلى الأرض وتمتد أغصانها إلى باطن الأرض فتكون أصولا جديدة وإنك لتسمع صوت البط



لـوحـة (٢٩)
السقاءون ومشهد اختفى تماماً ولم يعد له وجود إلا فى ذاكرة القاهرة

فى مجارى المياه الصناعية وترى البجع الأبيض والأسود وهو يتهادى فى رشاقةعلى سطح البحيرات ، كما تشاهد قوارب النزهة الصغيرة تشق الماء ويمرح فيها الأطفال .

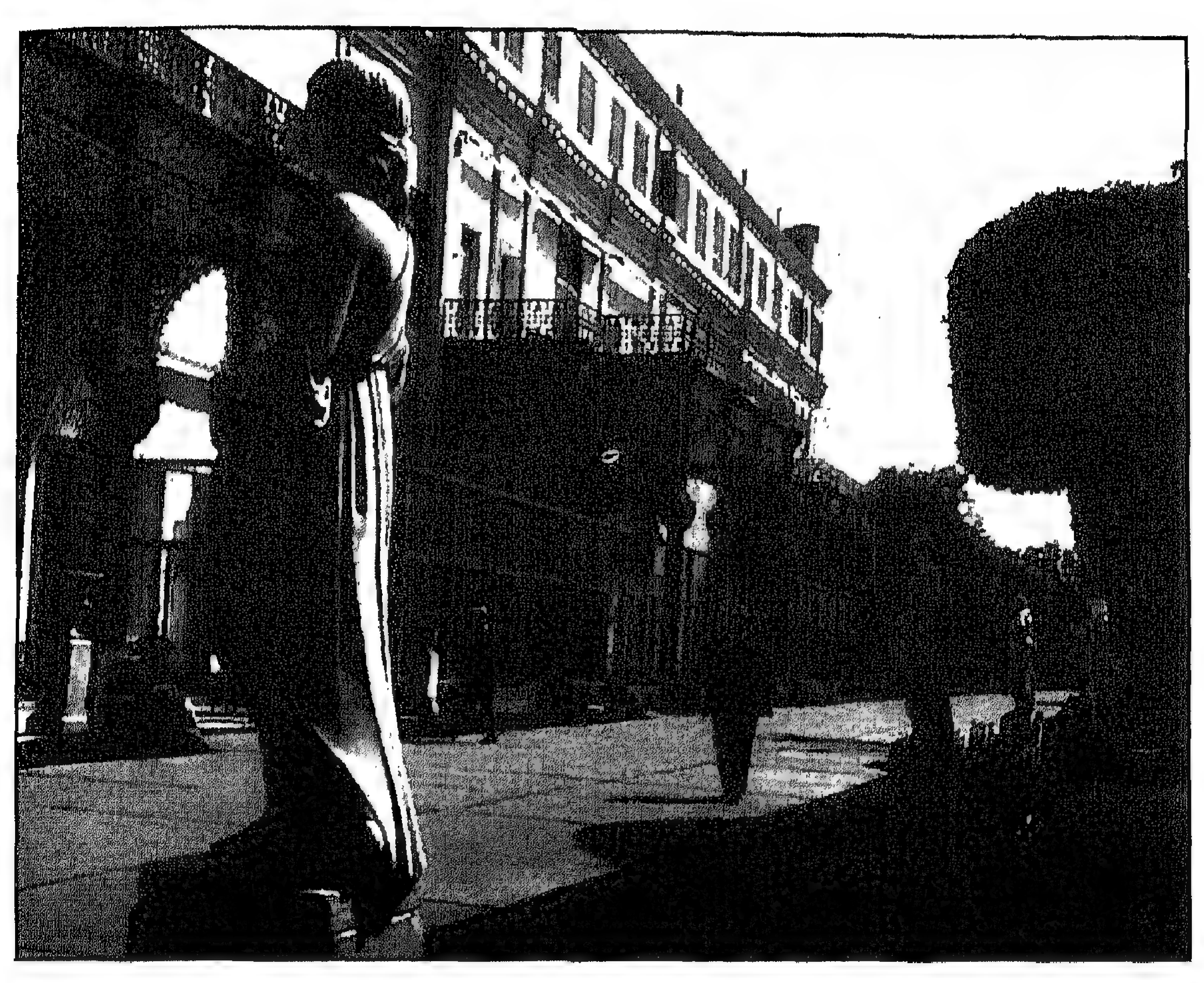
ويتدفق القاهريون الذين ينتمون إلى الطبقتين الوسطى والدنيا ، عصر كل يوم ومساءه ، إلى هذه الحديقة لكى يستمتعوا بصوت الموسيقى ويشاهدوا ألعاب الشعوذة . وبهذه الوسيلة يتيحون للأجنبى فرصة عجيبة لكى يشاهد خليطا من الناس ـ من كل الأشكال والألوان والأديان والجنسيات ـ الذين يتكون منهم سكان القاهرة كما يحيط بالحديقة من جميع الجوانب مبان فخمة ، من بينها دار الأوبرا .

ولقد تركت نزهة الصباح القصيرة أثراً طيباً فى نفسى عن مقر إقامتى المؤقت كما منحتنى أملا ، تحقق بعد ذلك بأكمل معانيه ، فى إقامة سارة فى عاصمة الخديو !

استقبال سمو الخديو لفارمان بقصر الجزيرة :

كان أول واجب أقوم به فى القاهرة هو زيارة الخديو إسماعيل باشا . ولقد تم ذلك فى قصر الجزيرة الواقع على الشاطىء الغربى للنيل فى مواجهة المدينة . ولقد أحاط شريف باشا ـ وزير الخارجية ـ سموه علما بوصولى ، وتحدد ميعاد ومكان هذه المقابلة غير الرسمية .

ولقد عبرت النيل على ذلك الجسر الفخم إلى تلك الجزيرة الطويلة البيضاوية الشكل حيث اتجهت إلى اليمين مخترقا شارعا عريضا تفصل بينه وبين شاطىء النيل أشجار نخل باسقة . وعلى الجانب الآخر ، أى الجانب الأيسر ، تقع حدائق النباتات والحيوانات . وتشتمل الأخيرة على مختلف أنواع الحيوانات الواردة من أفريقية وآسيا من بينها قطيع صغير من الفيلة يقوم على خدمتها حراسها الهنود ، وقد أرسلت هذه الفيلة فيما بعد ، بناء على نصيحة الجنرال ستون إلى مناطق أعالى النيل لكى تقوم بمهمة النقل . وفى آخر هذا الطريق المتسع يقع قصر الجزيرة ، وهو قصر صغير نسبيا ، ولكنه مسكن رائع منيف ، بدىء فى بنائه أثناء حرب الاستقلال التى اشتعلت فى بلادنا بينما كانت مصر منتشية بسبب ثروتها المفاجئة الناشئة عن ارتفاع ثمن القطن ولقد أنشأ إسماعيل باشا هذا القصر خصيصاً لملذاته لمدة محدودة من كل عام . وكان يتصل به حدائق غناء ، كما أقيم به كشك قد زين على الطراز المراكشى . وعلى مسافة قصيرة من القصر أقيم بناء خاص بالحريم . أنظر لوحة (٣٠) .



لوحة (٣٠)
سراى الجزيرة

ولقد أقام فى هذا القصر أيام الاحتفال بفتح قناة السويس سنة ١٨٦٩ ، الامبراطورة يوجينى أولا ثم فرنسيس جوزيف امبراطور النمسا بعد ذلك ، كما أقام فيه بعض الشخصيات البارزة أمثال « البرنس أوف ويلز » . أنظر لوحة (٢٨) .

ولقد بيع القصر واستبدل بفندق يشرف على إدارته بعض الضباط الانجليز ، هذه الجزيرة تكون على هذا الحال فى وقت فيضان النيل فقط ، ذلك أن الفرع الغربى للنيل يجف فى الأوقات الأخرى

دخلت القصر فتقدمنى كبير التشريفات على سلم كبير صنع من الرخام (الكارارا) حيث لقينى الخديو فى غرفة استقبال فاخرة . ولقد استقبلنى سموه عند الباب استقبالا حارًا . وبعد التقديم والتحية المعتادة اتخذت مقعدى عند طرف إحدى الأرائك الكبيرة وأخذ الخديو مقعده فى الطرف الآخر وقد امتدت قدماه أمامى على الطراز التركى .

وكان حديثنا يدور حول موضوعات عامة ورحب بى الخديو فى بلاده وسألنى ما إذا كنت مسرورا بزيارتى ، كما سأل عن صحة رئيس الولايات المتحدة وحالة البلاد العامة ثم تمنى لى أن أستمتع باقامة طيبة فى بلاطه ، كما أبدى استعداده لعمل كل ما بوسعه لجعل زيارتى مريحة . ولما كان لايتكلم الانجليزية فقد كانت محادثتنا باللغة الفرنسية التى كان يتكلمها بطلاقة .

لم يكن إسماعيل باشا جذاباً من الناحية الجسمانية ، فقد كان يبلغ من العمر حوالى السابعة والأربعين ، قصير القامة ، عريض المنكبين ، ضخم الجثة ، ولون بشرته أكثر سمرة من لون بشرة الأوروبيين : أما جفناه فكانتا مرتخيتين ، وجفنه اليسرى أكثر ارتخاء من اليمنى . وعندما تكون ملامحه ساكنة تبدو عيناه وكأنهما نصف مغلقتين . وكان حاجباه فاحمتا اللون ، خشنتان ، كثة الشعر ، بارزتان إلى الأمام . أما لحيته البنية الداكنة فكانت قصيرة وكانت أذناه كبيرتين وليست من الحسن بمكان وكان يرتدى حلة إفرنجية سوداء ، غير أن معطفة كان من الطراز « الاستامبولى » أى أنه معطف « بصف واحد » ذو ياقة منتصبة ، كما كان يرتدى على رأسه الطربوش الأحمر .

ولا يظهر الأتراك عراة الرؤوس قط ، إذ أن هذا العمل يعتبر دليلاً على المهانة

البالغة. ولقد أخبرنى شاب كان أبوه أحد وزراء السلطان ، وكان هو نفسه يعمل فى إحدى المصالح فى القاهرة ، أخبرنى أنه لم يظهر أمام والده عارى الرأس مطلقا ، حتى ولا فى طفولته المبكرة ، وأنه لا يجرؤ على مثل هذا العمل ، ذلك أنه لا يستطيع أن يعرض أباه لمهانة بالغة .

ولقد أخبرنى رياض باشا ، الذى أصبح رئيسا للوزراء فيما بعد ، فى معرض الحديث عن أول زيارة له لأوروبا ، أنه دهش حينما طلب منه موظف الكنائس فى ألمانيا ، وكان يزورها فى ذلك الوقت ، أن يخلع طربوشه ، ولو تصادف أن دخل مسلم أحد المساجد وهو عارى الرأس لطرد على الفور ، ولكان محظوظا إذا لم يصبه سوء !

ويلبس الطربوش أو العمامة فى المسجد ، وفى حفلات الاستقبال العامة والخاصة وفى الولائم ، والواقع فى كل مكان يذهب إليه التركى أو المسلم . أما المرأة التى تبدو فى الشارع فينبغى عليها لا أن تكون محجبة فحسب بل عليها أن تغطى رأسها كله . ويعتبر خرقا صريحاً لآداب اللياقة أن تظهر المرأة الجزء الخلفى من رأسها ، تماما كما لو أظهرت وجهها . فإن أقدمت على شىء من ذلك كانت فضيحة العمر !

وكان للخديو عادة التحدث وإحدى عينيه مغلقة ، بينما يمعن النظر بعينه الأخرى فى أدق تفاصيل ، وحركات ، وطريقة الحديث ، وحتى أفكار هؤلاء الذين يتحدث معهم .

ورغم كل نقائصه ومساوئه الجسمانية ، كان محدثاً ممتعاً ، يبتسم فى كثير من الأحيان، بشوشاً دائماً ، ومثيراً للاهتمام . كان صوته هادئاً يبعث على السرور وألفاظه منتقاة ومعبرة . وكان فائق الذكاء ، ولديه معلومات دقيقة حتى عن التفاصيل التى تخص حكومته وشئونه الخاصة الشاسعة . ، وتبرهن نظراته الحادة الثاقبة (حينما تكون عيناه مفتوحتين من أثر حديث شائق) وإجاباته السريعة الدقيقة ، ومعلوماته الخاصة بموضوعات ليس من المفروض أصلاً أن يكون ملماً بها ، تبرهن لكل هؤلاء الذين استمتعوا بالحديث معه ، أنه رجل يمتاز بقدرة غير عادية .

وحسب العرف الجارى فى البلاد لم يكن فى مقدور أى أمريكى أن يتقدم إلى الخديو

إلا عن طريق ممثله الدبلوماسى . وقد أتيحت لى الفرصة فى أن أقوم بهذا الواجب مراراً أثناء السنوات الخمس التى أقمتها فى القاهرة ، وكثيراً ما كان يدهش الزائر لما كان يلمسه من ذكاء الخديو النادر . فعندما قدم له قائد إحدى البوارج الأمريكية، أخذ . الخديو يوجه إليه سلسلة من الأسئلة التى تخص سفينته ، ولم يستطع القائد أن يجيب على بعضها ، ثم تطرق إلى وصف سفنه الخاصة وصفاً تفصيلياً .

وقد عبر القبطان وغيره من الضباط الذين كانوا برفقته عن بالغ دهشتهم بعد أن انصرفوا من حضرة سموه ، نظراً لما لمسوه منه من معلومات حربية وكان القول نفسه ينطبق على غير ذلك من الشئون . ولذا كان العسكريون والمدنيون على السواء يدهشون من معلوماته المفصلة . أضف إلى ذلك أنه كان يملك القدرة النادرة على أن يكتسب ثقة زائره بأن يزيح عن كاهله كل حرج ممكن ويجعله على طبيعته تماماً .

وقد تأجلت مقابلتى الرسمية مدة طويلة نظراً لعدم وصول أوراقى الضرورية من ـ القسطنطينية ، ذلك أنه من الوجهة الاسمية يعتبر الخديو من رعايا السلطان ، ولذلك قبل أن يعترف رسميا بممثل حكومة أجنبية فى مصر ، لا بد من الحصول على موافقة أو إذن السلطان . ويتم هذا عن طريق الحكومة التى ترسل ممثلها . ومن ثم تتصل حكومة السلطان بحكومة الخديو لكى تؤكد ما إذا كان المرشح مقبولاً ، أى ما إذا كان «شخصا مرغوبا فيه»

كما أن أعمال الدواوين فى القسطنطينية غاية فى البطء ، وربما تكون أبطأ من أعمال أية دواوين لأية حكومة فى العالم ، أضف إلى ذلك أن مقتل السلطان عبد العزيز الذى حدث عقب وصولى بأسبوعين ، قد أدى إلى زيادة تعطيل وصول الوثائق الرسمية المطلوبة ، وحال كذلك دون وصول الأوراق عاجلاً ، كما أدى إلى زيادة التعطيل موت طوسون باشا ، وزير البحرية وزوج الأميرة فاطمة هانم ، ابنة الخديو الثانية التى كان يؤثرها على غيرها .

وكانت الأوراق التى أرسلها هوراس ميلنارد وزيرنا المفوض لدى « الباب العالى » تتضمن فرماناً موجها إلى الخديو وتوجيهاً مرسلا إلى يحدد امتيازاتى الرسمية ، وقد كتبت

هذه الأوراق باللغة التركية بأسلوب منسق وبحروف كبيرة ، كما كانت سطورها المتعاقبة مختلفة الألوان ، وهى الآن ضمن الهدايا الكثيرة التى تلقيتها فى مصر ، ولقد قمت بترجمة هذا الفرمان إذ أنه مثل عجيب على التعبيرات الشرقية :

« إلى وزيرى النبيل ، سمو الخديو ، المثل الأعلى ، والمدير القدير لأعمال الدولة منبع الحزم والإنسانية ، بل ومؤسس صرح العزة والمجد ، أنت يا مدعم قواعد السعادة والخلاص ، خليل العناية الإلهية ، خديو مصر ، مزداناً بنياشين الدولة العثمانية والمجيدية من الدرجة الأولى ، وزيرى إسماعيل باشا ، الأمير الجليل القدير ، الذى اختارته قدرة الله . عند استلام هذا الأمر ليكن معروفا لديك بأن البعثة الدبلوماسية للولايات المتحدة التى تقطن عند بوابتنا السعيدة قد قامت برفع تقرير تحيطنى فيه علماً بوفاة المستر بيردسلى الذى كان قنصلاً عاماً للولايات المتحدة فى مصر، والتى تشرف على أعمال التجار التابعين للولايات المتحدة الذين يروحون ويغدون فى هذا القطر ، كما أحاطتنى بترشيح مستر ألبرت فارمان الذى اعتمد منى بأمر سلطانى ذلك الأمر الذى قدم إلى الوزير المفوض ليحفظه لديه . ولقد أعطاه أمرى السلطانى هذا سلطة الإشراف على أعمال المدنيين والتجار التابعين للولايات المتحدة المترددين على هذه البلاد ، كما نص على أن يعامل ، دون أى تدخل من جانب أى شخص غريب طبقا للشروط المنصوص عليها فى المعاهدات المبرمة حالياً . لقد أعطيته فرماناً آخر ولسوف تعامله شخصيا وفقا للمعاهدات المبرمة، وأنت أيها الخديو ، لسوف تتصرف بمقتضى نصوص هذا الأمر المشار إليه ، وتسمح له بجمع الضرائب القنصلية المستحقة على الواردات والصادرات التى يتعامل فيها التجار الأمريكيون ، وعليك ألا تسمح بأى نوع من أنواع التداخل فى حقوق القنصلية .

خاتم السلطان

كبير الوزراء

ولقد تجنب الباب العالى ذكر اختصاصات القنصل العام فى مصر وتعتبر واجبات المعتمد البريطانى والقنصل العام للولايات المتحدة فى مصر واجبات دبلوماسية

وقنصلية وإن كانت الأولى هى أهمها أساساً . والمعتمدون والقناصل العامون التابعون لدول أوروبا الكبرى التى لها قناصل يقومون بالواجبات القنصلية تعتبر وظائفهم دبلوماسية محضة . وعلى كل فإن الباب العالى لا يعترف بهؤلاء الممثلين الدبلوماسيين إلا على أنهم قناصل عامون ويعتبرون فى نفس مرتبة غيرهم من المعتمدين والقناصل العامين لدى الخديو .

وفى حفل الاستقبال الرسمى الذى أقيم فى قصر عابدين قدمت خطاب اعتمادى شخصياً إلى الخديو بناء على التعليمات الصادرة إلى وكان هذا الخطاب موجهاً من رئيس الجمهورية الجنرال جرانت . وكانت وزارة الخارجية فى واشنطن قد أرسلت نسخة منه إلى شريف باشا لهذا الغرض . وكان نص الخطاب كما يلى :

ـ من يوليسيس س . جرانت ، رئيس جمهورية الولايات المتحدة إلى سمو خديو مصر صديقى العظيم البار لقد وقع اختيارى على البرت . أ. فارمن ، من مواطنى الولايات المتحدة كمعتمد وقنصل عام للولايات المتحدة الأمريكية فى مصر ، لكى يقيم فى القاهرة ويشرف على مصالحنا ويبذل كل مافى وسعه من وسائل شريفة كى ينمى ويحافظ على الألفة والنية الصادقة بيننا .

ولذا ألتمس من سموكم أن تعامله على هذا الأساس وأن تمنحه الاحترام اللازم وأن تواليه بالثقة التامة فى كل ما يمثله من قبل حكومته وعلى الأخص عندما يؤكد لسموكم توافر الصداقة الخالصة بيننا .

حرر فى واشنطون فى ١٣ من أبريل سنة ١٨٧٦م

بأمر رئيس الجمهورية

وزير الدولة	صديقك المخلص
ج . ل . كادوالدر	ى . س . جرانت

وقبل تقديم الخطاب قمت بإلقاء كلمة قصيرة أكدت فيها لسمو الخديو الصداقة الحارة من قبل الرئيس ، ورغبته فى دوام علاقات الصداقة الموجودة بين حكومة مصر

وحكومة الولايات المتحدة ، فأجاب الخديو بالفرنسية مبيناً تقديره لعبارات الصداقة ، كما سماها ، التى ألقيتها باسم حكومتنا ، ، راجيا منى تبليغ مشاعر الصداقة إلى جناب الجنرال جرانت ،كما عبر عن رغبته التى لا تقتصر على دوام العلاقات المخلصة بل ترمى إلى تقوية هذه العلاقات بمختلف الوسائل بين كل من الولايات المتحدة الأمريكية ومصر ، كما أكد لى أنه على استعداد لمساعدتى فى إنجاز المهمة التى كلفت بها من قبل حكومتى .

فى هذه الزيارة كان يصحبنى طبقا للعرف الجارى ، الوزير المفوض المساعد وسكرتيرى الخاص وأربعة من المترجمين ، ولم تكن وظائف هؤلاء المترجمين سوى وظائف فخرية فحسب ، وذلك لأنهم لا يقومون بخدماتهم إلا فى بعض المناسبات الرسمية العامة . ولقد كانوا أشخاصاً من ذوى النفوذ والمال الذين يقومون بخدمات صغيرة من حين إلى حين فى مقابل ما يتمتعون به من حماية ، ولما كانوا ملحقين بالمفوضية كان لهم حق التمتع بحقوق وامتيازات المواطنين الأمريكيين ، وعليه فقد كان هذا سبباً فى تخلصهم من طلبات الابتزاز للحكام وغيرهم من الموظفين المحليين لتلك الحكومة الاستبدادية .

والدولة العثمانية تسمح بأربعة من المترجمين لكل وزير مفوض جرياً على التقاليد القديمة وهم من الوجهة النظرية يكونون جانباً من حاشية الوزير المفوض . والواقع أنهم سكرتيروه ومترجموه ومساعدوه .

وبعد تقديم خطاب الاعتماد كان من بين الحاضرين ، وهم من الموظفين المصريين شريف باشا ، وقد جلس الجميع على أرائك تركية ، وقدمت إليهم نراجيل مرصعة بالماس أجسامها مرتكزة على أطباق من الفضة . وكانت اللايات طويلة بشكل يسمح للإنسان باستخدام النرجيلة بطريقة ملائمة . وبعد أن أخذوا بضعة أنفاس قدمت إليهم القهوة التركية وبعد حديث قصير بينى وبين الخديو قام سموه ورافقنى حتى باب غرفة الاستقبال . وعندما كنت على وشك الخروج أبدى أسفه على أن الظروف قد حالت بينه وبين استقباله لى بالطريقة المألوفة ، ثم أردف قوله : إنه سوف يكون سعيداً إذا ما قام بهذا العمل فى المستقبل .

كنت أعتقد أن هذه المقابلة سوف تكون بديلا لحفل الاستقبال الفخم المألوف الذى يقام طبقا لما يجرى به العرف فى مصر ، ذلك أنه لم تكن قد انقضت مدة الحداد وهى أربعون يوما على وفاة المرحوم طوسون باشا ، ولذا فإننا قد أبلغنا فى الخطاب الذى حدد مكان وميعاد الاستقبال بأنه سوف يتم دون « أى احتفال »

وفى الوقت المحدد للاستقبال النهائى ، حضر زكى باشا ، كبير التشريفات إلى مقر إقامتى بصفته ممثلا للخديو ومعه عربتان : إحداهما ، وهى العربة الملكية وخصصت للباشا ولشخصى ، وكانت مطلية بطلاء ذهبى وتجرها جياد بيضاء مزركشة يصاحبها بعض السائسين والحراس . أما العربة الأخرى فكانت لحاشية القنصل وكان الباشا محوطاً بعدد من رجال السوارى على جياد بيضاء وشهباء ساروا فى حراستنا حتى القصر. وعند مدخل القصر ظهرت فصيلة من المشاة على جانبى الميدان وعندما اقتربنا بدأت طلقات المدافع تدوى من القلعة وبدأ الجنود يحيوننا عند مرورنا .

وعند مدخل القصر استقبلنا طونينو بك مساعد كبير التشريفات يصحبه آخرون من أتباع الخديو . وحينما ارتقينا السلم الضخم ، استقبلنا الخديو وقادنا إلى غرفة الاستقبال وبعد أن تبادلنا مع سمو الخديو قليلا من كلمات المجاملة جلسنا جميعا ودارت علينا ـ الغلايين وفناجين القهوة كما حدث فى المناسبة السابقة وحينما استأذنت للانصراف قدم لى الخديو سيفاً مقوساً ذا نصل دمشقى وغمد مرصع بالذهب »،كرمز لسلطتى فى بلاده وعندما غادرنا القصر مررنا بين صفوف الجند الذين قاموا بتحيتنا مرة ثانية ، ووصلت إلى مقر إقامتى بنفس الطريقة التى حضرت بها ، يصحبنى نفس الأشخاص الذين رافقونى إلى القصر ، ثم تبادلت الزيارات بعد ذلك ، كما جرت العادة ، مع شريف باشا ومع أبناء الخديو وغيرهم من الشخصيات البارزة .

وفى الصباح التالى ترتب على هذه المقابلة أن حضر إلى سائقو العربات والسائسون وغيرهم من خدم الخديو وخدم ناظر التشريفات ووزير الخارجية الذين أسعدهم الحظ بحضورهم هذه المقابلات . وقد حضروا جميعا لتناول « البقشيش» الذى كان من حقهم كما يقتضى العرف فى مثل هذه المناسبات . وقد حدد العرف المبالغ التى تعطى لهم فيما يلى : سائق الخديو ، ستة جنيهات استرلينية ، السائق الثانى ،أربعة جنيهات ،

السائسون ، أربعة جنيهات ، حرس ناظر التشريفات ، خمسة جنيهات حرس وزير الخارجية ، عشرة جنيهات ، سائق الوزير وسائسوه وخدمه ، خمسة جنيهات الحرس القنصلى ، جنيه واثنا عشر شلنا ، فيصبح المبلغ الكلى خمسة وثلاثين جنيها واثنى عشر شلنا استرلينيا ، أو مائة وثلاثة وسبعين دولاراً .

ولقد منح الخديو القائم على خدمتنا (حسن) ستة عشر نابليوناً (تقدر بما يزيد على ستين دولارا) وذلك ليشترى بها حلة رسمية جديدة من المفروض أنه يحتاج اليها عند دخوله الخدمة لدى القنصل العام الجديد . وكان من عادة الخديو حينئذ أن يقوم بإهداء أى قنصل عام جديد ـ بمناسبة استقباله الرسمى ـ جواداً رشيقاً ، جهز سرجه ولجامه على أحسن طراز شرقى ، فقد وشى سرجه الكبير بالذهب بينما زخرف بقية الطاقم بنفس الأسلوب الفاخر .

ولقد قبل القناصل العامون لكل الدول هذه الهدية بما فيهم قناصل الولايات المتحدة، فيما عدا سلفى الذى تلقى تعليمات بألا يقبل الهدية وقد تكرر هذا الحظر فى التعليمات التى صدرت إلىّ . ولما كان من المعلوم أن الحصان لا يمكن قبوله لم يقم المسئولون بتقديمه إلىّ . وعلى كل فقد سبق أن سألنى شريف باشا فى حديث جرى حول هذا الموضوع . . عن الحق الذى يكفل للولايات المتحدة ان تتدخل فى عاداتهم القديمة ، ثم لمح بأنه ينبغى عليه أن يقدم الحصان ، تاركاً لى أمر رفض الهدية .

ولم يتوان سائس الخديو عن أن يحضر إلى لكى يتناول نصيبه من « البقشيش » كما لو كان قد تبعنى من القصر مقتاداً الجواد ، وكما لو كنت قدقبلت الهدية ، ولم يكن ذنبه أن حكومةالولايات المتحدةقد اتخذت قراراً يفيد بأن هذه الهدية عمل غير دستورى بعد أن كانت قد سمحت بقبول الجواد لأمد طويل .

وإهداء الحصان عادة قديمة يرجع أصلها إلى الزمن الذى لم يكن فيه ثمة طرق ممهدة للعربات فى مصر ، حتى ولا فى المدن الكبرى مثل الاسكندرية والقاهرة ، ولذا كان وجود الحصان ضرورة بالنسبة لأى شخص ذى مكانة وعندما وصلت لم يكن ثمة طرق للعربات خارج هاتين المدينتين وضواحيهما القريبة وليس هناك الآن سوى بضع طرق

قليلة أطولها ـ على حد معرفتى ـ الطريق الممتد من القاهرة إلى الأهرامات وهى مسافة تبلغ حوالى تسعة أميال .

وقبل حفل الاستقبال الرسمى الذى أقيم لى ، كثيرا ماقمت بزيارة الخديو الذى أشعرنى بأنى على صلة وثيقة بسموه بفضل شخصيته الاجتماعية اللطيفة . وكان ينبغى على أكثر من مرة أن أقوم بواجب غير سار ، وهو المطالبة غير الرسمية ـ وان كانت بطريقة ملحة مهذبة ـ بدفع التعويضات الأمريكية ضد الحكومة المصرية، و على حين أننى كنت أقوم بهذا العمل أمام وزير الخارجية أو وزير المالية ، كان من الضرورى فى بعض الاحيان أن أثير الموضوع أمام الخديو شخصيا ، وكانت الحكومة المصرية فى ذلك الوقت فى ضائقة مالية شديدة ، ولذا كان مجرد ذكر أى تعويض مالى لابد وأن يسبب بعض الضيق . وعلى كل ، لم يكن بى حاجة للمطالبة بشىء آخر خلاف ذلك ، فى الوقت الذى كان فيه الممثلون الأوروبيون لا يلحون فى طلب التعويضات المالية فحسب ، بل يقومون كذلك بتنفيذ مشروعات سياسية ، ذات أهمية حيوية بالنسبة للخديو ، الأمر الذى أدى فى النهاية إلى أن يفقده عرشه .

وعندما أعلن نبأ وصولى فى القصر، لم يكن الخديو يخشى مطلباً مجحفا أو مؤامرة سياسية من جانب حكومتى ،ولذا لقينى بإخلاص تام دون أى خوف من تعريض مصالحه للخطر . والواقع أن الولايات المتحدة وروسيا كانتا فى ذلك الوقت الدولتين الكبيرتين الوحيدتين اللتين لم تكن لهما مطمع سياسى مباشر أو غير مباشر بالنسبة لمصر، مثل هذه الظروف ساعدت كثيراً فى دفع التعويضات الأمريكية التى سويت أخيرا بطريقة مرضية ، ودفعت عن آخرها . ولقد كنت مدينا بهذه النتيجة لصداقة الخديو .

مشاهد من الحياة الاجتماعية بالقاهرة فى عصر إسماعيل:

وينتقل بنا « البرت فارمان » إلى وصف انطباعاته عن مشاهداته عن معالم القاهرة وتفاصيل الحياة اليومية وغرائب العادات والتقاليد فى المعتقدات الشعبية المصرية :

« مصر بلد العجائب ، والقاهرة مدينة ساحرة فاتنة ، من أجمل مدن العالم . وقلما تجد مدينة تضاهيها فى بهجتها وقلما تجد مملكة حديثة العهد فى مظاهرها وروعتها كمصر، بل قلما يجد الباحث وراء اللذة أو الباحث وراء العلم ما يضاهيها . ففى كل زاوية من زوايا البندر أو الريف تجد المدهش العجيب والجديد اللذيذ ، فالمساجد وقباب المساجد لسلاطين المماليك ، ومقابر العائلة المالكة وجبانة العرب ، والقصور العتيقة والشوارع المكتظة بالكتل البشرية المتحركة ذهاباً وإياباً ، ومبانيها ذات الطراز العربى ، والأسواق العجيبة الممتلئة بالبسط والسجاجيد الشرقية الفاخرة ، ومجموعة الآثار الفرعونية والقلعة بقصورها ومسجد محمد على المبنى من المرمر والمناظر الباهرة والصحارى والغابات المتحجرة والصخور الفسفورية البيضاء بجبل المقطم والأهرامات وأبى الهول والأضرحة العتيقة الرائعة والنيل ، والحقول المحيطة بواديه وعادات أهله المختلفة، كل ذلك يجتمع ليحدث أثراً ليس له نظير فى أى مكان آخر فوق سطح المعمورة .

ولقد نقشت هذه المناظر على الذاكرة أثراً لا يبلى ، وذلك أنه بعد مضى سنين عديدة على تلك المناظر يشتاق « الإنسان الذى شرب من ماء النيل مرة » أن يمرح ثانية فى طقس مصر الجميل ويعود إلى مسراتها وملذاتها التى تظهر له حينما يسرح الطرف فيها وكأنها حلم لذيذ عن أرض عجيبة تضيئها أشعة مصباح علاء الدين السحرية ! ...

وإبان إقامتى فى القاهرة أقيمت بمناسبة فيضان النيل أعياد واحتفالات كثيرة يرجع أصلها إلى الأزمنة التى كان النيل فيها لا يزال سراً من الأسرار الخفية ومحلا للتقديس والاحترام ، ففى ليلة ١٧ يونية سقطت دمعه الإلهة إيزيس من السماء إلى نهر النيل مسببة فيضانه كما كان يعتقد المصريون القدماء ، والواقع أن النيل كان يبدأ فيضانه السنوى فى هذا التاريخ من كل عام ، هذه الليلة ـ ولو أن حفلاتها كانت أقل بهجة من

العام الماضى ـ فقد احتفل بها هؤلاء الأهالى المقيمون على ضفتى النيل ومعهم أصدقاؤهم الذين ساهموا معهم فى هذه الاحتفالات التى أقيم فيها عديد من الطقوس الخرافية .

ومن أهم الاحتفالات التى شاهدتها كان قطع الخزان الذى كان يقام كل عام فى فصل التحاريق على قناة « الخليج » التى كانت تمد مدينة القاهرة بالمياه قبل حكم إسماعيل باشا وقبل مد شبكة من أنابيب المياه ، وكانت هذه القناة تمد عدداً كبيراً من الأهالى بمياه الشرب حتى وقت قريب ـ هؤلاء الذين كانوا يفضلون فى شربهم النظام العتيق معتقدين اعتقاداً خاطئاً بأنه أصح لهم من النظام الحديث .

ولقد كانت القناة عميقة الغور ، وتجرى مبتدئة من مصر القديمة فى مواجهة جزيرة الروضة مخترقه الجزء القديم من المدينة الحالية . ويقال إن عمرو بن العاص قائد أمير المؤمنين هو الذى أنشأها بعد غزوه لمصر فى عام ٦٤١م بعد الميلاد بقصد توصيل النيل بالبحر الأحمر ـ ولقد أوصلها حتى أصبحت على مقربة من بوبسطة ، حيث اتصلت بقناة قديمة تصب فى البحيرات المرة ومنها إلى البحر بالأحمر .

وتمتلىء هذه القناة ـ فيما عدا ذلك الجزء الذى يخترق مدينة القاهرة ثم تصب بعد القاهرة مباشرة فى تلك الترعة الكبيرة مباشرة التى توصل المياه العذبة إلى قناة السويس عند الإسماعيلية ثم بعد ذلك إلى السويس .

هذه القناة القصيرة التى تمد مدينة القاهرة بالمياه كانت دائمة الجريان بسبب عمليات التطهير المستديمة ـ ولقد كانت تجف عدة شهور من كل عام ـ فى حالة الفيضان كانت تملأ الصهاريج الضخمة المقامة على جوانبها على طول القناة حيث تنقل المياه إلى المستهلكين بواسطة السقائين طوال أيام السنة وأنك لتشاهد السقائين يبيعون المياه بصفة مستديمة فى الطرقات وكذلك يهبونها للمارة بدون مقابل أو بمقابل زهيد ، كما يتراءى للشارب، وكانت تباع من القرب غالباً أو الأوانى الفخارية (القلل) فى بعض الأحيان ، وفى كلتا الحالتين تقدم المياه فى أكواب نحاسية تضرب إحداهما فى الأخرى لتحدث رنيناً شديداً يلفت الأنظار !

وقبيل سفرى إلى أوربا فى أول صيف قضيته فى القاهرة دعانى محافظ المدينة إلى حضور احتفالات قطع الخزان ، وكان ذلك حوالى منتصف أغسطس عندما يفيض النيل إلى درجة تضر بالمحصول . ولقد كان يحتفل بهذا الفيضان بفرحة حقيقية تبدو فى غالب الأحيان على وجه الطبقة العامة فى أعيادهم الصاخبة بفيضان النيل .

ولقد أقيم الاحتفال الرئيسى فى الصباح المبكر عند رأس القناة بمصر القديمة حيث استيقظ أهالى مدينة القاهرة عن بكرة أبيهم قبيل الفجر . . فكنت ترى الأولاد يحملون الأعلام وينضمون إلى المنادين الذين يعلنون الأنباء السارة ـ أنباء فيضان النيل العميم .

ولقد مررنا فوق طريق قد فرش بالرمال الناعمة يبلغ طوله حوالى ثلاثة أميال . . وقد اخترقنا مختلف الأحياء العامرة حتى وصلنا إلى السد عند مدخل مصر القديمة ، ومما يعرف الآن عن مصر القديمة أنها تلك البلدة الصغيرة المقامة حول حصن بابليون الذى أنشأه الرومان فى مصر . . و كان حصناً شاسعاً يعسكر فيه جنود الرومان لضمان خضوع مصر لروما ولأباطرة بيزنطة ، حتى فتحها عمرو بن العاص بعد حصارٍ طويل ولقد كان هذا المكان يسمى بالفسطاط فى أوائل العصر الإسلامى . ولا تزال توجد جدران هذا الحصن المتهدمة ومعها الجزء الهام من المدينة الحالية بما فى ذلك عدد من المنشآت والكنائس والأديرة القبطية .

وعند وصولى إلى السد وجدت زحاماً شديداً من الأهالى يبلغ الآلاف من أفراد الطبقة العامة قضوا هناك ليلتهم ـ ولقد كانت الخيام مقامة على طول شواطىء النيل والقناة ـ وكانت القوارب تروح وتغدو محملة بالأهالى فى ذلك الفرع الصغير من النيل الذى يفصل جزيرة الروضة عن الشاطىء الأصلى .

ولقد كان سرادق الحاكم الذى دعيت إليه مقاما على شاطىء القناة مباشرة فوق السد وقد بنى أمام إفريز يستوى مع حافة المياه . . وكان يقوم بحراسة هذه السرادقات الجند الذين رافقوا المحافظ . وكان يشغلها هو وأعوانه وبعض الأوروبيين ، ومن هذا الإفريز كنت ترى منظراً عاماً على الشاطىء الغربى للنيل لجزيرة الروضة بأسوارها المرتفعة ، وحدائقها الغناء . . ونخيلها ومقياس نيلها وخلف ذلك على مسافة بضعة

أميال، فى الجانب الآخر من الوادى كنت ترى الأهرامات ، وقد حجبت عنا منظر مآذن الجوامع وقبابها ، كما حجبت عنا أبراج الكنائس القبطية وأسوار أديرة مصر القديمة .

ومظلات بائعى الحلوى والفاكهة والخبز وغيرها من المأكولات التى تشاهد عادة فى أيام المواسم والأعياد كان يؤمها زحام شديد ، ولقد كان رنين الأطباق بأيدى السقائين الذين لا ينقطعون عن تلك الأماكن ، والنغمات المختلفة للموسيقى البلدى وأصوات القاهريين والصدى العام لهذا الزحام الشديد بغير شك أكبر مظهر من مظاهر الفرح والسرور الذى يشبع غريزة كل أعرابى محب للجلبة والضوضاء ، وإن كان لايفوق جلبة اليوم الرابع من شهر يوليو بالولايات المتحدة الأمريكية .

وقد كان عدد كبير من الرجال يشتغلون ليلا فى حفر هذا السد من الجهة البحرية حاملين التراب فى محاقب إلى البر . وكانوا يعملون فى حذر وبكل احتياط ، بل وعلى أهبة الاستعداد لترك العمل عند سماعهم أول إنذار ، فما كنا لننتظر طويلا حتى انفجرت المياه منسابة مكتسحة أمامها كل ما يعترضها من حواجز منهمرة بقوة هائلة إلى القناة حيث تغمرها حتى يصل مستواها إلى مستوى النيل تقريباً .

هنالك ظهر محافظ المدينة على حافة الإفريز وبذر قروشاً جديدة فى عرض المياه قيمة الواحد منها خمسة سنتات ، ظاهرها من الفضة والواقع أنها خليط من المعادن . فى تلك اللحظة يخلع الكثير من الأعراب كساءهم البسيط ثم يقفزون إلى الماء بحثا عن العملة . والبعض منهم كان غير قادر على مقاومة التيار والبعض الآخر كان يندفع بسرعة السمكة إلى القاع جالبا معه تلك القطع الفضية اللامعة . وفى لحظات قليلة كنت ترى القناة قد ملئت بالرجال يسبحون فيها ويتنازعون من أجل مكان فى هذا المحتشد .

وعند قطع السد يكتسح التيار أحيانا بعض الرجال وقد يكون سببا فى إغراقهم ولو أن الكثير منهم بارع فى السباحة . وكان إلقاء العملة الفضية فى الماء عادة قديمة بقيت دون غيرها من العادات . وقد استمرت هذه العادة لترضى اعتقاد الناس الخرافى بأن لها أثراً عظيماً فى جلب فيضان النيل .

وفى حديث لى مع المحافظ فى مناسبة مشابهة أخبرنى أن مسألة التخلى عن عادة إلقاء النقود فى النيل كانت موضع نظر ولكن لم يرغب أحد من المحافظين أن يأخذ على عاتقه مسئولية إلغاء هذه العادة علماً منه بأنه إذا جاء الفيضان منخفضاً على إثر ترك هذه العادة ، سيعتبره الكثيرون السبب فى انخفاض مياه النيل ، وهكذا تتأثر سمعته ونفوذه بين عدد كبير من الناس .

وكانت قناة الخليج قد ملئت حديثا وستصبح الاحتفالات بقطع السد من الآن فصاعداً لا يذكرها إلا التاريخ . ونقلاً عن أقاويل المسلمين كان الأقباط قبل فتح عمرو بن العاص لمصر ، يقدمون فى هذا المكان ضحية لإله النيل هى عبارة عن عذراء جميلة يلقى بها فى النيل كل عام ـ ولكن لم تثبت صحة هذه الأقاويل ، ذلك أن بعض الكتاب قرروا أن الضحية التى كانت تلقى فى النيل إنما هى صورة عذراء لا عذراء حقيقية . وبالفعل لم يحصل شىء من هذا القبيل فى موسم الاحتفالات التى حضرتها .

وبمجرد أن ملئت القناة شرعت القوارب التى أخذت أبهى زينتها ، تبحر من النيل إلى القناة وهَمَّ المحافظ وحاشيته بالانسحاب وأخذ الجمهور ينتشر فى مختلف الجهات ، ولقد ظهرت جزيرة الروضة التى تقع على مقربة من القناة ـ هى الآن تزار لمشاهدة مقياس نيلها المشهور .

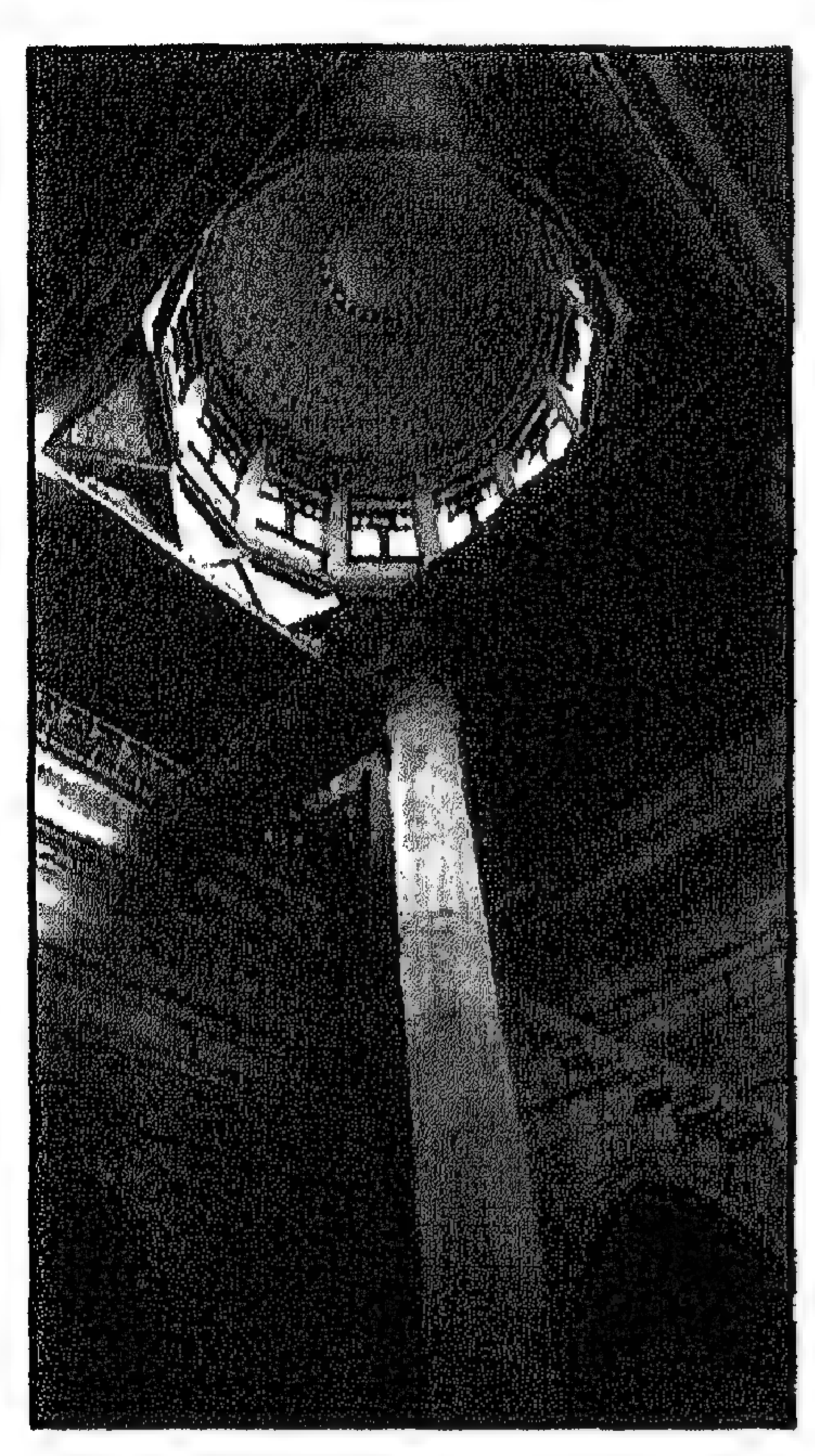
والشائع عند العرب أن ابنة فرعون قد وجدت موسى على شاطىء هذه القناة بين هذه الأعلام ، مما يزيد من أهمية هذه الجزيرة كما يوجد على هذا الشاطىء (شجرة موسى) و (شجرة القديسة مندورة)

ولقد عمرت هذه الشجرة أجيالا طويلة وهى لا تزال قوية شهية والاعتقاد السائد أن لها قوة عجيبة فى شفاء المرضى ، تبرىء الأعرج وتجعل الأعمى مبصراً ـ هذا ولم تكن قاعدة مسلما بها أن كل زائر متعبد كان ينشر ملابسه فوق فروع هذه الشجرة يشفى مرضه وعاهته ، إلا أن هذه الحقيقة لم يكن لها أى تأثير على شهرة هذا النطاسى البارع ، وأن واحداً من كل عدة آلاف من الكاثوليك المتعبدين الذين يزورون معابد اللورد ، يدعى بأنه قد استفاد صحياً من الزيارة ، على أن هذا لم يمنع مئات الآلاف من

المهاجرين المعتقدين فى قدسية هذا المكان من زيارته سنوياً ، حيث يعتقدون أن العذراء قد ظهرت فيه للراعية دوبرناديت سوبيروس ، فإذا كانت أغلبية المستنيرين الذين يعيشون فى هذا الجيل المثقف تعتقد فى هذه الأماكن المقدسة هذا الاعتقاد فمن ينكر على العربى المسكين السلوى التى يستمدها من مثل هذه الخرافة ؟!

ويبلغ طول جزيرة الروضة التى تأخذ شكلاً مستطيلاً حوالى ميلين ، ويبلغ عرضها ميلين عند المنتصف ، وهى محاطة بسور مرتفع ، وقد كانت هذه الجزيرة ملجأ للأقباط عندما فقدوا حصن بابليون الذى كان متصلا بجسر من الزوارق ـ وبعد هذا الارتداد شرعوا فى المفاوضات مع الفاتح عمرو بن العاص ، وأخيرا عقدوا شروط التسليم ـ ولقد عوملوا بكل إنسانية وسمح لهم باسترداد أملاكهم ، والواقع أن الكثير رحبوا باتباع النبى وذلك لراحة أنفسهم من حكامهم البيزنطيين الظالمين ، ولقد كانت الجزيرة فى أول أمرها بسبب برودة هوائها ، مصيفاً لعائلات بعض الباشوات القاهريين الذين كانوا يملكونها ، وقد ازدانت بالحدائق الغناء المليئة بنباتات المنطقة الحارة كالبرتقال والليمون والموز والحناء وقد علتها جميعا أشجار النخيل، وشجر الحناء هى تلك الشجرة التى يصنع من أوراقها طلاء الحناء الذى كان يستعمله المصريون منذ زمن بعيد فى طلاء أظافرهم وأيديهم ، ويقع مقياس النيل فى الجزء العلوى من الجزيرة ـ ولقد عبرت النيل فى زورق حتى وصلت إلى سلم حجرى ، وما أن ـ صَعَدت إلى أعلى حتى وجدت نفسى أمام حديقة قد رصفت ممراتها بالحجارة الصغيرة فى أشكال زخرفية ، وبعد تجوال قصير بين الأشجار والأزهار ، قادنى المشرف على الجزيرة إلى هذا المقياس العجيب لارتفاع النيل وانخفاضه ، ولكن أى سر فى هذا الاختراع البسيط لتحديد عمق مياه النيل ؟ إنه بئر على شكل مستطيل كبير ذى جدران مبنية من الحجارة يبلغ طول كل جانب منه خمس ياردات ، فى وسطه عمود مثمن الشكل قد نقشت عليه كتابة بالخط الكوفى . ويخرج من قاعدة ممر يؤدى إلى النيل ، والواقع أن عدداً قليلا جداً حتى من بين المتعلمين العرب يعرف قراءة الخط الكوفى . والشخص الوحيد فى مصر الذى كان يجيد قراءته كان رجلاً انجليزياً تخصص سنين عديدة فى دراسة العملة الإسلامية ولكن السر لم يكن فى الكتابة المنقوشة على العمود وعلى جوانب البئر، بل كان فى الآيات القرآنية ،

ومن العجيب كما ظهر لنا ـ النزر اليسير جداً من أهالى القاهرة كان يمكنه أن يعرف فيضان النيل بالضبط !أنظر لوحة (٣١) .



لوحة (٣١)
مقياس الروضة من الداخل

وانخفاض النيل عام ١٨٧٧ الذى لم يسبق له نظير قد هيأ لنا الأسباب التى يصح أن نتخذها أساساً لأخطر النتائج ، حيث إن أكبر ارتفاع أمكن الحصول عليه فى هذا العام هو سبعة عشر ذراعاً وثلاثة قراريط ، وطبقا للتقارير الرسمية الخاصة للاثنتين والخمسين سنة السابقة التى أمكن الحصول على التقارير الخاصة بها كان هذا الانخفاض فى فيضان النيل أقل من أى انخفاض آخر حدث خلال هذه المدة بثلاثة أقدام وثلاث بوصات وأقل من متوسط الفيضان بعشرة أقدام تقريباً .

لقد قرر المختصون أن ٥٠ ألف فدان من الأراضى التى تقدر بربع أراضى الوجه القبلى لم يستطع ريها ، وبطبيعة الحال كان لابد من تركها بلا زراعة ولقد علمت أن التقارير الرسمية لم تكن كافية لإعطاء مقاييس صحيحة . ولما كنت أريد أن أقدم تقريراً صحيحاً للمستر أفارتس وزير الخارجية فى ذلك الحين عن هذا الحدث الهام فقد باشرت الحقائق المضبوطة بنفسى .

ولقد طلبت هذه المعلومات من الجنرال « ستون» الذى كان بصفته رئيساً لموظفى الخديو يرأس وزارة الحربية بالقاهرة . . يحتفظ بسجل لفيضان النيل وانخفاضه سنين عديدة مستخلصاً أرقامه من القوائم التى كانت تنشر يومياً فى الجريدة الرسمية .

وبالفعل كان قد أعد خرائط للرجوع إليها فى الشئون العسكرية قائمة على أساس هذه المعلومات التى كانت تبين ارتفاع مياه النيل عن كل شهر لعدة سنين ولقد وجدت أنه لا يعرف شيئا عن مقياس النيل فيما عدا أن ارتفاعه حوالى ٢١ بوصة . . وأنه يعتقد أن كل التقارير مبنية على هذا الأساس . إلا أننى طلبته من محافظ العاصمة حيث إنه المختص بمقياس النيل فأجابنى بأنه شخصياً ليس لديه أى علم بكيفية قياس فيضان النيل وإن هذه الأسرار لا يعرفها إلا الأسرة التى تختص بمقياس النيل . . وقد تبين لى من حديث جرى مع شريف باشا وزير الخارجية آنذاك أنه هو ذاته لا يفقه شيئا عن هذا الموضوع .

هذا وأن السنة التى بدأ فيها الفيضان ينخفض عن المعتاد فى ذلك الوقت هى سنة ١٨٣٣ وأن النتائج السيئة لفيضان عام ١٨٧٧ الذى جاء منخفضاً أيضا تظهر لنا الأهمية البالغة للفيضان العادى للنيل .

ويقول هيرودوت فى حديثه عن النيل « إذا لم يرتفع النيل زيادة قدرها ١٥ أو ١٦ ـ ذراعا على الأقل فإنه لا يفيض على البلاد » وقد أشار إلى المقياس المقام فى ممفيس على مسافة عشرة أميال من جزيرة الروضة . وبعد ذلك بخمسمائة أو ستمائة عام أى فى عصر حكم الرومان كانت الحالة تستلزم هذا الارتفاع .

ومن بين الرسوم العديدة التى كانت على العملة المصرية فى ذلك الحين كان إله النيل ، يتمثل راقدا على الأرض ممسكاً بيده عنقوداً من العنب ، وعلى مقربة منه تشاهد تمساحا أو فرس بحر . ولقد أضيف حرفان يونانيان إلى هذه العملة عندما ارتفع مقياس النيل إلى ١٦ ذراعاً معمارياً فى السنة التى سكت فيها هذه العملة . ويمثل الحرفان الرقم ١٦ دالين بذلك على أن العام كان عام خير ويسر . ويحتمل أن يكون مقياس الذراع فى ذلك مماثلا للذراع الحالى . فإذا كان الأمر كذلك فإن ارتفاع المياه المطلوب لغمر الدلتا يماثل الرقم الذى ذكر سابقا .

صوم رمضان وخروج المحمل :

من أمتع المناظر التى يشاهدها الأجنبى فى القاهرة هو منظر الحجاج المسافرين إلى مكة والمدينة من كل عام ـ أى رحيل قافلة الحجاج وعودتها وما يلحق بها من أفراح .

ويسبق هذا شهر رمضان المقدس الذى يبدأ فيه سفر الحجاج ،حيث يعدون أنفسهم للقيام بهذا الواجب المقدس ـ شهر رمضان هو ذلك الشهر التاسع من شهور السنة العربية ويشتمل على ثلاثين يوما خصصها المسلمون لفريضة الصيام ولو أن مسلماً تراخى فى القيام بالفروض الرئيسية الدينية، إلا أنه شديد التمسك بالصيام المفروض .

فلربما يمتنع عن الزكاة ويفرط فى فريضة الحج أو فى الاشتباك فى حرب مع الكفار ، ولربما ينسى القيام بالخمس صلوات فى أوقاتها المعلومة ، ولكنه لا يمكن بحال من الأحوال أن يفرط فى صوم رمضان . وأنه ليعتقد أن القرآن قد أنزل على محمد فى ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان المعظم ـ ذلك الشهر الذى تفتح فيه أبواب السماء ويلبى الله فيها دعوات التائبين ويغفر لهم خطاياهم .

هذا هو الشهر الذى أنزل فيه الوحى على إبراهيم وبعث فيه بالتوراة إلى موسى وبالإنجيل إلى عيسى . وتشتمل السنة الهجرية على اثنى عشر شهرا قمرية أو ثلاثمائة وأربعة وخمسين يوما . ولها ثلاثة أعوام كبيسة كل ثلاثين عاما حيث تزداد السنة الكبيسة يوماً واحداً على معدل أيام السنة . ولذا فأى تاريخ هجرى ثابت إذا ما نسبناه إلى تقويمنا الإفرنجى ، وجدنا أنه يأتى عادة مبكراً عن السنة الإفرنجية بأحد عشر يوماً تقريباً وتختلف السنة القبطية عن السنة العربية ، فالسنة القبطية لا تزال مستعملة عند اليونان وتبدأ عادة فى اليوم الثانى عشر من شهر يناير ، وكأن هذا لم يزد مسألة التواريخ بمصر تعقيداً ـ ذلك أن الحكومة إبان قيام نظام المحاكم المختلطة كانت تتبع التقويم الجريجورى الذى كان يستعمل فى وزراة المالية والمحاكم المختلطة كما كان يستعمله الأوربيون .

كل هذه النظم كان يستعملها الأفراد على اختلاف جنسياتهم ودياناتهم . فاليوم

العربى يبدأ من غروب الشمس والشهر العربى يبدأ من وقت ظهور الهلال . ولإثبات أول يوم فى رمضان يجب رؤية الهلال عملياً . وحقيقة ظهوره يجب أن تقرر بعد المغرب بقليل . وهذا الأمر ليس بصعب فى جو صاف كجو مصر، حيث يخرج الرجال إلى التلال العالية خلف القلعة وبمجرد أن يشاهدوا تمام الهلال من فوق جبال ليبيا يقفلون راجعين . ولابد من إثبات ذلك كتابة ، بل لابد من صدور قرار بشأنه وإعلانه على أصحاب المقامات العالية الذين يجتمعون بمنزل القاضى .

وسرعان ما تطلق المدافع من القلعة وتتحرك المواكب فى مختلف أنحاء العاصمة مصحوبة بالموسيقى معلنة بدء صيام رمضان فى كل مكان . وفى طليعة فجر اليوم الثانى يعلن المنادى الصيام فى كل حى ويسمع صوت المؤذنين من المآذن من مختلف أنحاء العاصمة تعلن بدء الصيام .

وصيام المسلمين هو فى واقع الأمر الامتناع عن الطعام والشراب والتدخين ما بين شروق الشمس وغروبها طوال مدة الصيام ، ولا يعفى من الصيام إلا المرضى والجنود فى ميدان القتال .

وبسبب قصر فصول الشتاء فى مصر يأتى شهر رمضان فى فصل الحرارة سنين متتابعة ، والامتناع عن الطعام والشراب فى أيام قد اشتد فيها الحر والجفاف طوال شهر كامل من شهور فصل الصيف ليعتبر تضحية عظيمة . وهذا الامتناع عن الطعام والشراب يؤثر فى حالة الأهالى الطبيعية حيث تشاهد عليهم توعك المزاج من جهة العمل وسرعة التأثر والانفعال الذى يسبب المخالفات فى بعض الأحيان .

ويعوض صيام النهار بإفطار الليل ، وأنه لمن المؤلم أن يشاهد الإنسان الناس فى بعض الأحيان وهم يلاحظون غروب الشمس بفارغ صبر فى يوم قد طال أمده واشتدت حرارته ، وعندما توشك الساعات المضنية من النهار على الانتهاء ينتظرون فى صمت مطبق دوى المدافع التى تطلق من القلعة معلنة أن الصيام قد انتهى ، حينئذ تشعل السجائر ويعد البلح والفاكهة وتكثر الطلبات على حمالى المياه حيث أن الظمأ هو أول ما يجب إطفاؤه فى مثل هذه اللحظة ، هنالك يلقى العامل عدته ويقفز سائق العربة

من عربته والجمال من فوق جمله والكل ينتظر بفارغ صبر جرعة من ماء النيل المقدس .

وعندئذ يأتى الإفطار حيث ينغمس كل شخص فيما أعد الله له من نصيب ، فى رمضان تؤجل الأعمال الشاقة إلا أن المقاهى والمطاعم تصبح فى أشد حالات رواجها ، وتزدان الطرقات بالأنوار وتصدح الموسيقى العربية والإفرنجية فى كل مكان وتتبادل الأحاديث والأغانى حتى الهزيع الأخير من الليل ، وقبيل الفجر بساعة تسمع صيحة المآذن مؤذنة ، بالإعداد للصيام وعندئذ تعد أكلة السحور وهى الوجبة الهامة فى شهر رمضان تلك التى تتعارض مع عوائد الشرق فى جعل وجبة الصباح المبكر بسيطة إلى أقصى حد ممكن .

وإنها لثلاثون يوما طويلة إلا أن مدفع القلعة يعلن أخيرا انتهاء الصيام ـ وفى الصباح من اليوم التالى لانتهاء الصيام الموافق أول شوال وهو الشهر العاشر من السنة الهجرية تبدأ أيام العيد الثلاثة ويعرف : بالعيد الصغير وهو موسم الزيارات والمقابلات والحفلات وتقديم الهدايا للأطفال والخدم وارتداء الثياب الجديدة .

وفى يوم العيد يسمح الخديو بالمقابلات ابتداء من الساعة السادسة صباحا حيث يقابل ضباط الجيش ـ بعد ذلك يتقدم الزوار على اختلاف درجاتهم بترتيب قد أعد من قبل ، فيبدأ بمقابلة رؤساء المصالح وكبار الموظفين ثم رجال الدين فرجال القضاء الأهلى فممثلى التجار والأعيان والوجهاء فأصحاب المقامات على اختلاف درجاتهم ثم قضاة المحاكم المختلطة وأخيراً حوالى الساعة الحادية عشرة يتقدم إليه ممثلو الدول الدبلوماسيون هم دون غيرهم الذين يحظون بشرف الجلوس بين يدى الخديو حيث تقدم إليهم القهوة ويدخنون الشُبك ويتبادلون الحديث مع سمو الخديو ويقدمون له التهانى بمناسبة حلول العيد .

وعقب حلول العيد الذى لا تهمل فيه التقاليد الدينية تعد العدة لسفر الحجاج الذى لابد منه فى اليوم الثالث والعشرين من الشهر . وتحمل قافلة الحجاج أردية جديدة فى كل عام تسمى بالكسوة ، وهى أبسطة فخمة تغطى بها جدران الكعبة الخارجية فى كل عام .

وما الكعبة إلا بناء صغير يقع داخل السور بمكة المكرمة ، ذلك الذى يطوى بين جدرانه الحجر الأسود المقدس . وتصنع الكسوة عادة من الحرير الأسود المشجر وتوشى بالذهب وتزين بالآيات القرآنية . وتصنع عادة بالقاهرة ، وهى تستمد فخامتها من تلك الحقيقة التى تقرر أن الحكومة المصرية إنما تكلفها ٢٣,٣٠٠دولار . ومصاريف الحج التى تنفقها الحكومة المصرية تزيد على ٣٣٠,٣٠٠ دولار وهو مبلغ يساوى ضعف المبلغ المقرر للمدارس القائمة تحت الإدارة الأوروبية على وجه التقريب ، وتصنع الكسوة من قطع صغيرة ترسل فوراً بعد العيد الصغير إلى مسجد الحسين لحياكتها بعضها ببعض ، وعند الانتهاء من أجزاء الكسوة توصل بها حاشية عريضة فاخرة وستار يعلق على باب الكعبة كما تأخذ القافلة معها رداء من القماش المزخرف لاستخدامه غطاء لمقبرة إبراهيم عليه السلام ، وكذلك بعض القطع الأخرى المصنوعة من القماش الأخضر الموشى بالذهب والحرير على اختلاف الوانه لوضعها داخل الكعبة . كما ترسل الكسوة من دمشق لتغطية قبر محمد عليه الصلاة والسلام بالمدينة المنورة ، كما تأتى قافلة ثالثة من بغداد ـ والقوافل الثلاث ترحل من مدنها فى وقت واحد على وجه التقريب حيث تدخل حدود الصحراء العربية العظيمة بعد بضعة ايام ، وتسير جنوبا حتى تصل إلى مكة بعد حوالى ٤٠ يوما .

وتختلف المناظر والاحتفالات بالقاهرةفى شكلها العام عند سفر الحجاج من كل عام اختلافا يسيراً ، حيث ترسل الدعوات الرسمية إلى الممثلين الأجانب بالحضور ، وسأروى لكم ما شاهدته فى إحدى المناسبات :

يصل الضيوف المدعوون فى الصباح المبكر إلى قصر محمد على بالقرب من القلعة حيث تبدأ القافلة بالرحيل . . هنالك كنت تشاهد فرقاً من مختلف طبقات الجيش قد اصطفت كما تنتظم الجماعات الدينية المختلفة ـ فى الأماكن المجاورة ـ فى موكب كبير .

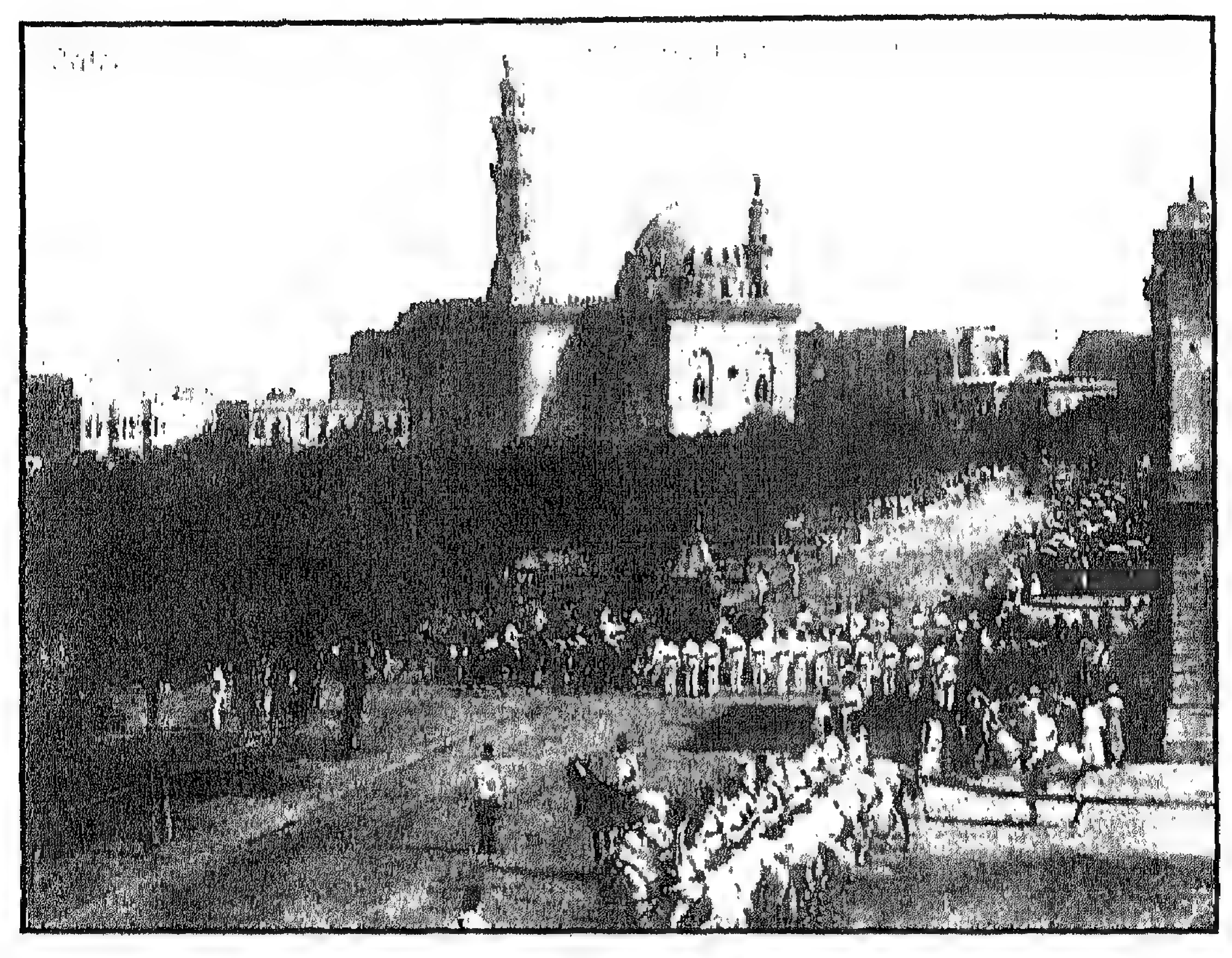
هذا و قد أعد للخديو أو من ينوب عنه سرادق من القطيفة الحمراء والذهبية اللون ، وكذلك للوزراء وفضيلة القاضى والمفتى وبعض الشخصيات الكبير ة من العسكريين ورجال الدين ثم الملكيين . وكان سمو ولى العهد الأمير توفيق باشا يمثل الخديو .

لم يحضر الخديو إسماعيل بنفسه هذه الحفلات الدينية العامة بل كان يمثله فيها

توفيق الذى كان يعتبره المؤمنون أكثر إيماناً من أبيه ! . . وعندما تولى توفيق الحكم استمر فى الحضور فى كل مناسبة من هذا القبيل ، وعند وصول سموه اتخذ مقعده فى وسط السرادق ـ محاطا بالموظفين والمدعوين ـ وسرعان ما تقدم الجزء الذى كانت فيه الكسوة محمولة من الموكب فوقف الجمل أمام سرادق الخديو . هناك تقدم سمو الأمير وأمسك الجمل من مقوده حيث سلمه إلى فضيلة الشيخ أمير الحج . وبهذا العمل يكون قد أولى ثقته إلى أمير الحج ومنحه السلطة على جميع من معه . أنظر لوحة (٣٢)

والمحمل ما هو إلا محفة على جانب من الأبهة والفخامة ذات قمة هرمية عالية ، زينت بأبهى الزخارف ، وهى مغطاة بقماش موشى بالذهب و قد نقش على كل من جانبيها آيات من القرآن ـ وهذه المحفة تحمل الآن كرمز للملكية ولقد كانت تصنع فى أول الأمر خصيصا لنساء الخلفاء اللاتى كن يقمن بالحج ـ ويقال إن المحمل إنما ظهر لأول مرة فى عهد الملكة الجميلة الحكيمة « شجرة الدر » التى أدت الحج سنة ١٢٥٠ ميلادية فى محفة فخمة محمولة على جملين ، واستمرت المحفة تصحب الحجاج سنويا إلى مكة منذ قرون ، وهى تعتبر مقدسة بالنسبة للمسلمين البسطاء الذين يزجون بأنفسهم فى الزحام للمسها والتبرك بها . أما البعير الذى يحمل الكسوة فيزين بأفخر زينة ويقود القافلة فى الصحراء بل ويصبح مقدساً إلى حد ما ، فلا يصح استخدامه لأى غرض آخر بل يستمر مخصصا لحمل المحمل مادام قادراً على ذلك .

ثم يعقب المحمل شيخ غريب الشكل وهو قائد الجمال الذى يصحب الحجاج فى كل عام ، ولقد كان شيخاً عربياً متين البنية ، شعره مضفر طويل وجسده عار حتى خصره ، ويمتطى جمله متمايلاً تارة إلى الخلف وأخرى إلى الأمام بعينيه المسبلتين كأنما هو فى نشوة روحية ، يعقب ذلك الحجاج ، كل على جمله ، وفى بعض الأحوال أسر كاملة بكافة لوازمها وخيمها وبعض المواد الضرورية لرحلة الصحراء . ولقد كانت الجمال مزدانة بمختلف الزينات وسعف النخيل وإذا كان شعرها الخشن الطويل قد ابيض من تأثير الشمس فإنه يسترد لونه الطبيعى النحاسى بواسطة استعمال كميات كبيرة من الحناء .



لوحة (٣٢)

وصول موكب المحمل عند جامع السلطان حسن ـ عام ١٨٩٨ م

والقسم الرئيسى من الموكب المختص بتكريم الحجاج عن طريق اصطحابهم خارج المدينة ، كان يمثل الطليعة متقدماً الموكب بأسره مخترقا الشوارع الضيقة للأحياء الوطنية بالمدينة متجها نحو باب النصر ، بوابة الخروج التى تبعد حوالى ميلين عن مقر القلعة . ولم أنتظر شيخ السنانير الذى يسير على مقربة من المؤخرة وهو يسير نصف عار كشيخ الجمال ويشبهه من حيث خشونة المظهر وغرابته ويمتطى جمله العالى وقد أحيط بسلال قد ملئت بعدد كبير من القطط ذاهبة لأداء فريضة الحج المقدس . وهى تطل على الجماهير حيث تقابل بالتهليل والفرح ويبدو عليها أنها تدرك ذلك الامتياز الذى يفضلها على بقية بنى جنسها من السنانير ! . .

فى مثل هذا اليوم كانت توقف جميع الأعمال حيث تقفل الحوانيت والمحال الكبيرة وتزدحم الشوارع بالآلاف من الأهالى فى أحسن ملابسهم . هنالك يقفون على جانب الطريق الذى يمر منه الحجاج حتى أنك لتشاهد النساء يندمجن فى هذا الزحام .

وقد كان هذا الحى الوطنى من مدينة القاهرة بشوارعه الضيقة ومبانيه الأنيقة المنسقة على الطراز العربى أكثر إثارة للاهتمام من غيره ، وعلى الأخص فى تلك الفترة التى يمر فيها موكب الحجاج حيث تزدان المبانى بأبهى المظاهر ، إذ رفعت بجانب فروع النخيل الأعلام والبيارق على اختلاف أنواعها وأشكالها . ولقد كانت الأسطح والمنافذ مكتظة بالأهالى من كلا الجنسين رجالا ونساء ومن مختلف الطبقات والأعمار وقد تاقت أنفسهم لمشاهدة الموكب أثناء مروره . بل لقد كان المنظر على الجانبين منظراً عاماً لوجوه البشر المفعمة بالسرور وقد لفت أجسادهم بأفخر الثياب الشرقية .

ثم تركنا طريق الحجاج مارين بشارع جانبى مسرعين إلى البوابة الخارجية للحصول على منظر ذلك الجزء من الموكب الذى كان قد سبقنا ، فإذا بنا نشاهد فصائل من الجنود المشاة والسوارى تتجه إلى خارج المدينة بالصحراء . ولقد كان يتقدم كل قسم من أقسام الموكب فرقة من الموسيقى وقد امتطى رجالها ظهور الجمال ، كما شاهدنا رجال القضاء ورجال العسكرية وغير ذلك من الشخصيات البارزة ما بين ملكية ودينية بملابسهم الرسمية الفاخرة ونياشينهم المذهبة . والكثير منهم كان مصحوباً بحراسة فى

زيه الرسمى ، ولقد كانت هناك طوائف من الدراويش كل طائفة تختلف باختلاف لون عمامتها ، فمنها الأزرق والأخضر ومنها الأبيض والأحمر وقد حملت الأعلام والبيارق المزدانة بأجمل الزخارف . وقد اشتغل البعض منهم بنوع مخصوص من العبادة حيث كانوا يتلون صلاتهم وهم يتمايلون ذات اليمين وذات اليسار وقد أصبحوا فى حالة استغراق كامل، وآخرون كانوا يأكلون الثعابين ويبتلعون قطع الزجاج ويمشون على أطراف السيوف الحادة ، وآخرون يرشقون أسياخاً من الحديد فى وجوههم فتخترقها من خد إلى آخر !

وينبغى أن نضع فى اعتبارنا أنهم كانوا يقومون بهذه الحركات تحت ستار الدين زاعمين أن الضر لا يصيبهم بمعجزة من السماء !

وكان من بينهم رجال أنصاف عراة مدججون بالسيوف وطوائف أخرى ملكية على اختلاف أصنافهم ، فمنهم راكبو الخيل والحمير ومنهم راكبو الجمال من العرب المدججين بالرماح والدروع بأرديتهم المزركشة يتخللهم عدد من الجنود .

هذه كانت بعض معالم ذلك الطابور الطويل من المؤمنين الذى استغرق أكثر من ساعتين لمروره من باب النصر .

وهؤلاء الذين كانوا يقومون بالحج ،إنما كانوا يعسكرون خارج المدينة بالصحراء هنالك يقضون يومين أو ثلاثة فى عمل الترتيبات الأخرى والاحتفالات الدينية ، فكان الدراويش الذين يذكرون ويرقصون ، يواصلون كل ليلة طقوسهم العجيبة . وهكذا كانوا يشجعون ويثيرون مشاعر هؤلاء الذين كانوا على وشك القيام بتلك الرحلة الطويلة الخطيرة إلى المدينة المقدسة للقيام بذلك الواجب المقدس الدينى الذى تهون من أجله كل تضحية لدى كل مسلم حقيقى ، والحج يعتبر تضحية فعلية ، بسبب الأمراض المعدية ، وبسبب الحرمان مدى تسعين يوما بالصحراء يخفق الكثير من الحجاج فى العودة . وإنك لترى مكة ورمال الصحراء الممتدة فى الطريق المؤدية إليها قد بعثرت بعظام البشر من المؤمنين .

وأول يوم فى الرحلة يمرون ببركة الحج التى تبعد مسافة عشرة أميال . هذا ويرافق

الدراويش القافلة حتى هذا المكان حيث يقضون الليلة الأخيرة فى الذكر والتعبد ، ثم يعقب ذلك وداع الأقارب والأصدقاء فالرحيل .

وعند ترك القاهرة متجهاً نحو الشرق ، يجد الإنسان نفسه فى طريق صحراوية تسمى « درب الحاج » تخترق قنال السويس على مقربة من أطلال « ارسينو القديمة » وتبعد عن السويس شمالاً بعشرة أميال ، وعند ذلك يستمر قليلا إلى الجنوب الشرقى عبر شبه جزيرة سيناء ، حتى يصل إلى رأس خليج العقبة . ثم يسير فى الطريق على مقربة من شاطىء الخليج وشاطىء البحر الأحمر حتى يصل إلى مكة . وهذا الطريق الصحراوى رملى تكتنفه الصخور والنباتات الخضراء فى بعض جهاته . وفى مكة تتلاقى القوافل الثلاث بالحجاج الذين أبحروا عن طريق البحر الأحمر من بلاد العجم والهند وتركيا وولايات أفريقيا الشمالية بما فى ذلك مصر حتى يرسوا فى جدة على مسافة يومين سفراً من المدينة المقدسة ، ويبلغ مجموع عدد الحجاج الذين يجتمعون من مشارق الأرض ومغاربها حوالى ١٠٠ ألف حاج

وبعد تأدية المراسم الدينية العادية فى مكة ، تلك التى تصل أبهتها وفخامتها إلى حد ليس له نظير ، يتجه الحجاج نحو الشرق حوالى ست ساعات وذلك لصعود جبل عرفات .

وهنا ، طبقا للعقيدة «الإسلامية» ، أعد إبراهيم عليه السلام ابنه إسماعيل للذبح .

والمسلمون يعتبرون إسماعيل أباً للجنس العربى . فهنالك بعرفات يتسلق الحجاج جبل عرفات ، ويقضون به ليلة ، وفى اليوم التالى وهو العاشر من الشهر الثانى عشر الهجرى ، يضحون بكبش كبير إحياءً لذكرى التضحية التى قام بها ابراهيم تنفيذاً لأمر ربه كما يفسر العلماء ، فى تلك الليلة على سفح جبل عرفات تقوم مذبحة كبيرة للخراف ويحتفل بهذا اليوم ، يوم الضحية ، فى جميع أنحاء العالم الإسلامى .

وهؤلاء الذين ليس لديهم المقدرة على شراء كبش أو لحم من أى حيوان يحل ذبحه ، يتلقون العون ممن هم أوفر منهم حظاً . ويوم الضحية هو يوم العيد الأكبر ، عيد القربان الذى توزع فيه الصدقات على الفقراء والهبات على الخدم والأزياء الجديدة على

الأطفال وهو يوم المقابلات الخصوصية والرسمية وتبادل التهانى وإقامة الأفراح والحفلات وبالاختصار يحتفل به كما يحتفل بعيد نهاية رمضان .

هذا وتستغرق القافلة ستين يوما فى العودة ، حيث تسير ببطء إلى المدينة لزيارة قبر النبى (ﷺ) وقضاء مدة طويلة بالحجر الصحى على مقربة من السويس ثم تسير حتى تصبح على مقربة من القاهرة فى آخر صفر ، وهو الشهر الثانى من العام الجديد حيث يلتقى الحجاج على مسافة من المدينة بأقاربهم وأصدقائهم وقد أحاطت بهم الموسيقى ومظاهر الأفراح ، فتسمع حينذاك دوى الطبل وغيره من الأدوات الموسيقية الوطنية وطلقات البنادق . . كما تسمع نواح وعويل النساء والأطفال الذين أتوا للترحيب بأزواجهن وآبائهم فيجدون مكانهم فى الموكب خالياً . ويظلون معسكرين خارج المدينة حتى يحل الميعاد للاحتفالات الختامية فتدخل القافلة المدينة بنفس الموكب والمظهر الذى رحلت به .

كما أن الكسوة التى كانت قد سافرت مع القافلة تحل محلها الكسوة والأغطية القديمة وتقطع إلى قطعها الأصلية وتوزع على المساجد والمشايخ بمثابة آثار مقدسة . ويدخل الموكب المدينة عند البدء فى الاحتفالات الدينية التى تقام بمناسبة مولد النبى محمد (ﷺ) فى اليوم الثانى من شهر ربيع الأول وهو الشهر الثالث من العام الهجرى . ويجتمع فى هذه المناسبة عدد كبير من مختلف الهيئات الدينية وعلى الأخص من الدراويش من مختلف أنحاء الديار المصرية . وعندئذ تظهر القاهرة فى أبهى حللها وتستمر الاحتفالات بمولد النبى فى الحادى عشر من شهر ربيع الأول عند الاحتفال بـ «الدوسة» .

وتكتظ الشوارع بالأهالى فى أبهى حللهم يتوسطهم بعض الأجانب من الرعايا والسياح ، كما تُشاهَدْ فى الاحتفال بمولد النبى صفوف طويلة من الأكشاك عامرة بمختلف الألعاب وأشهى الأطعمة من خبز إلى كعك وقهوة وبطيخ وشمام إلى غير ذلك من الفواكه والمأكولات ، كما تكثر فى ذلك الحين أنواع الملاهى الوطنية ، كالموسيقى والشاعر (فى المقاهى) والمراجيح واللعب بالعصا ـ هناك تمر الجماعات من الجند والمواكب من الدراويش تتقدمهم الموسيقى وتظلهم الرايات والأعلام الزاهية الألوان .

ويعقب حرارة النهار مساء جاف جميل . ويبدو أن كل الناس قد خرجوا إلى الشوارع وكانت مظاهر الفرح بادية فى أجلى مظاهرها ، والمنشدين فى كل منعطف من المنعطفات وترى الدراويش يحملون المصابيح المختلفة الألوان ، وعربات الحريم تمر بسرعة تتقدمها المشاعل البراقة يحملها المشاعلية الذين يهرعون صائحين : «افسحوا الطريق »

ولقد أعدت أماكن فسيحة ضربت فيها خيام ضخمة لكل طائفة من الطوائف الصوفية . هنالك كان يطوف فى مختلف أنحاء هذه الأماكن أعداد غفيرة من البشر آناء الليل وأطراف النهار ، كما كنت تشاهد الدراويش الراقصين وهؤلاء الذين يعرفون باسم المداحين ، يقومون بعملية الذكر بلا انقطاع مهذبين بذلك نفسية المسلم وباعثين التسلية والإشفاق فى نفس الأجنبى .

ولقد قضينا الليالى الثلاث الأخيرة فى مشاهدة اللعب بالنار ، وهو فن قد برع فيه العرب ، وحيوية الكتل البشرية المتحركة ، والسرادقات المضيئة وقد فتحت من أحد جوانبها حيث ترى الدراويش بحركاتهم الإيقاعية والأنوار والزهور المعلقة على أحبال مختلفة الأطوال والارتفاع ، وكل طائفة يميزها لونها ، كل هذا إلى جانب الشموع الرومانية والصواريخ وغير ذلك من مختلف الألعاب النارية يحدث منظراً غاية فى الروعة. وكان الحاضرون يمثلون مختلف الطبقات ـ وكان الأمير ولى العهد فى سرادقه محاطاً بكبار الموظفين وأعضاء أسرته الذكور . وكان يمر عدد كبير من العربات الفاخرةتحمل حريم الخديو وقد ارتدين أبهى الثياب وتسترن بحجاب خفيف ، إلى جانب حريم الباشوات والجاليات الأجنبية . هذا وقد اختلط المزارعون بالعمال والصناع ،كما اختلطت الطبقات الغنية بالفقيرة ، كما ظهر هنالك السائح المتنقل على حماره أوْ على قدميه أو فى عربته ،كل بحسب مزاجه وقدرته المالية !

أفول نجم أفندينا ورحيله عن مصر :

عقب تلك الأحداث المريرة التى سبقت عزل إسماعيل باشا ، اجتمع أعضاء الوزارة - بالسراى حيث ظهر إسماعيل باشا أمامهم ، وقبل رسمياً اعتلاء ابنه عرش مصر ، ثم أرسلت مذكرات رسمية عاجلة إلى الممثلين السياسيين بشأن تغيير الحاكم فى مصر مصحوبة بدعوتهم لمقابلة سمو توفيق باشا ، بعد ظهر ذلك اليوم بسراى الإسماعيلية ، ومرافقته إلى القلعة للاحتفال بإعلان تنصيبه خديوياً .

وفى الساعة المحددة وصلنا إلى السراى حيث استقبلنا سمو الخديو ، وكان الجميع بملابسهم الرسمية عدا ممثل الولايات المتحدة الذى كان مضطراً إلى الظهور فى هذه المناسبة كما هو الحال فى المناسبات السياسية الأخرى ، مرتديا حلة بسيطة ، وقد أدى افتقار أعضاء مجلس الكونجرس إلى المعلومات الخاصة بعادات الدول الأخرى ورغبتهم فى تطبيق أفكارهم بالإكراه على العالم كله إلى حرمان ممثليهم فى الدول الأجنبية من حق ارتداء الملابس الرسمية التى تقضى بها العادات الدبلوماسية العالمية .

وانضم إلينا بعد ذلك فى القصر قضاة المحاكم الجديدة أو المحكمة الدولية الذين كانوا موجودين فى القاهرة . وكانوا يرتدون ملابسهم الرسمية التى كانت تتكون من الطربوش الأحمر والرداء الاستامبولى (وهو عبارة عن معطف ذى صف واحد بياقة منتصبة) ثم وشاح قرمزى عريض تنتهى أطرافه بشرابات ذهبية اللون ، وكان الوشاح يلتف فوق الكتف الأيسر ومثبتا عند الخصر الأيمن . وقد وضعوا على صدورهم دبوساً كبيراً قد حفر عليه بالنقش البارز «الشمس البازغة» وكتب عليه باللغة العربية بالطلاء الأسود الكلمات الآتية : « العدل أساس الملك » . وكان الخديو الجديد وأخواه (الأمير حسين والأمير حسن) وأعضاء الوزارة وموظفو البلاط ، وكبار الضباط يرتدون ملابس زاهية ، وكان العلماء والقضاة الأهليون وغيرهم من الأعيان فى ملابسهم الوطنية الفضفاضة .

وقد غادر الخديو السراى فى عربة صغيرة فى رفقة أخويه وشريف باشا . وسارت فى أعقابهم عربات القناصل العاملين والقضاة يتبعهم موكب طويل من الأوروبيين وقليل

من الأهالى ، وكانت القلعة تقع على مسافة تزيد على ميلين وعلى مرتفع فى أقصى الجنوب الشرقى من المدينة ، وكانت جماعات السوارى محتشدة على جانبى الشارع المؤدى إلى السراى كما اصطف بعض الجنود على مسافة طويلة قبل الوصول إلى القلعة .

ولم تذع الأنباء الخاصة بتبديل الحكومة على الجمهور حتى الساعة الثانية بعد الظهر، وسرعان ما انتشرت الأخبار واشتد الزحام عند نهاية الطريق ، حتى أن الجند لم يستطيعوا إفساح الطريق إلا بصعوبة . وحينما كنا نرتقى ذلك التل المرتفع فى تؤدة عن طريق ممر ضيق تحوطه جدران سميكة على الجانبين ، أطلقت مائة مدفع وواحد معلنة للجمهور بدء الحكم الجديد والنهاية المحزنة لعهد إسماعيل باشا الذى بدأ بداية زاهرة منذ أكثر من ستة عشر عاماً .

وعندما وصلنا القمة شاهدنا المدينة ممتدة أمامنا بحدائقها العديدة ، وأسقفها المنبسطة ، ومداخنها الممتدة ، ومقابر المماليك والسلاطين والخلفاء والباشوات والبكوات التاريخية ، ومساجدها العديدة بقبابها ومآذنها . وكانت صورة فريدة رائعة لمدينة شاسعة تشمل حوالى نصف مليون من السكان ويجرى فى الجهة الغربية من المدينة نهر النيل تمتد وراءه الحقول الخضراء ، وفى الجانب الآخر من الوادى توجد الأهرامات وجبال صحراء ليبيا ، وكان أمامنا مباشرة مساجد وقصور القلعة محوطة برمال جبال المقطم الصفراء . . . .

وكانت العادة تقضى بإقامة احتفال رسمى عند وصول الفرمان ، ولذا كان احتفالا صغيرا يتكون أساساً من قراءة الرسالة الامبراطورية أمام الوزراء والعلماء وكبار الموظفين والأعيان ومستخدمى الحكومة ، ثم استقبال الشخصيات الهامة فى البلاد من أجانب ووطنيين .

وقد استقبلت الهيئات الدبلوماسية والقنصلية أولاً . . وكان الخديو الشاب وإخوته والوزراء جالسين فى غرفة استقبال فسيحة . وعند دخولنا وقف سموه ، وتقدم لاستقبالنا وألقى عميد السلك السياسى خطاباً موجزا باللغة الفرنسية بالنيابة عن نفسه وعن زملائه ورد عليه الخديو باللغة نفسها .

ثم جلسنا ندخن ، ونشرب القهوة وتبادلنا بضع كلمات ، ثم استأذنا فى الانصراف ثم تقدم القضاة بعد ذلك ثم الهيئات المدنية والدينية والعسكرية المختلفة يقدمون ولاءهم لسلطانهم الجديد ، وقد انبطح عدد كثير منهم فى حضرته ، ولم يتقدم لأخذ القهوة أو الغلايين سوى الممثلين الدبلوماسيين .

وكان إسماعيل فى ذلك الوقت فى قصر عابدين ، فتوجهت من القلعة مباشرة لزيارته وقد أكون القنصل العام الوحيد الذى فعل ذلك . وكان مركز الصداقة التى بيننا إبان المشاكل التى لا قاها سموه يسمح لى بأن أفعل ما لم يستطع غيرى من القناصل العامين الآخرين الذين يمثلون الدول الكبرى أن يفعله ، فيما عدا ممثل روسيا ، وتحدث سموه بصراحة عن الموقف وقال إنه ينبغى عليه أن يبحر يوم الأحد أو الاثنين القادم ويتوجه مباشرة إلى القسطنطينية حيث يتوقع أن يقضى بقية أيامه ، ولما كنت أعلم أنه تربى فى فرنسا وأنه يحب المدنية الأوروبية فقد تجاسرت بأن أقترح عليه بأن دولة أوربية خلاف تركيا قد تكون أكثر ملاءمة له . فأجاب قائلا : « نعم ، قد تكون أكثر ملاءمة لى شخصياً ، أما بالنسبة لعائلتى ، وبالنسبة لعاداتنا ، فإن هذا لن يكون ملائماً ، بل سيكون مستحيلا » !

وحينما كنت أستأذن من سموه أثناء زياراتى السابقة ، كان يصطحبنى حتى باب غرفة الاستقبال فقط . وفى هذه المناسبة رافقنى وهو يتحدث بلا انقطاع ، خلال الصالة إلى رأس السلم ، وشرع فى النزول معى قبل أن أتحقق من غرضه ولم أسمح له بالسير أبعد من هذا . واستجابة لعدم موافقتى قال وهو يشد على يدى ونحن نفترق : «لم أعد خديو » !!

وكان يقدر عبارات المجاملة ، وقد أراد أن يتنازل عن كل حقوقه التى كان يتمتع بها إبان سيادته عن طريق مرافقته لى . وبعد ذلك بيومين ، أى يوم السبت ، قمت بزيارة سموه مرة أخرى حيث أخبرنى أن ـ السلطان رفض التصريح له بالذهاب إلى القسطنطينية ، وكان يشعر بخيبة أمل كبيرة ولكنه قال إنه ينبغى عليه أن يغادر القاهرة صباح يوم الاثنين وأن يغادر الاسكندرية مساء ذلك اليوم . وفى خلال أربع وعشرين

ساعة من تنازله عن العرش زاره القنصل الفرنسى العام لكى يستفسر عن ميعاد رحيله، وهو يتعلل بأنه يود أن يصدر الأوامر إلى السفن الحربية الفرنسية الراسية فى ميناء الاسكندرية لكى تؤدى له التحية التى تليق بمقام الملوك عند سفره !

وفى مساء يوم السبت زاره مرة أخرى مع القائم بأعمال القنصل العام الانجليزى خشية أن يكون هناك بعض التأخير ، كما زارا الخديو الشاب وأصرا على أن يغادر إسماعيل البلاد فوراً . وقد طلبت الدولتان كذلك أن يغادر الاميران حسين وحسن البلاد ، كما أخبرانى بذلك، وهكذا طلب من الخديو عن طريق أولياء أمره المسيحيين، أن يقوم لا بنفى أبيه فحسب ، بل أخويه كذلك اللذين كانا فى سنه نفسها واللذين لم يشك فيهما أحد . وكان قرار النفى هو تقريباً أول قرار رسمى يصدره ، وبعد اعتزال العرش بأربعة أيام أبحر المنفيون من الاسكندرية مع عائلاتهم إلى مكان مجهول !

ولم يكن هناك أى شعور بالابتهاج فى مصر بسبب تبديل الحكومة ، بل بعض آثار العطف والاحترام للحاكم المخلوع . وعلى الرغم من العادة الشرقية بالتخلى عن المخلوع وتركه لمصيره ، إلا أن قصر إسماعيل كان مزدحماً - منذ يوم اعتزاله العرش - بالزائرين الذين وفدوا للتعبير عن مشاركتهم الوجدانية ، كما رافقه إلى المحطة جماهير غفيرة من الناس . وهناك كان الفراق بين أفراد العائلة منظراً محزناً فقد احتضن الخديو الشاب والده وأخويه ، واغرورقت عيون المشاهدين بالدموع وكان الأب هو الوحيد الذى استطاع أن يتمالك عواطفه . وكان اللقاء الأخير مع ولده الذى ضحى من أجل ضمان اعتلائه العرش بمبالغ باهظة هى قيمة الهدايا التى قدمها للسلطان ورجال بلاطه !

وكانت هناك حشود غفيرة على طول الطريق إلى الاسكندرية ، وكلها تبدى عطفها واحترامها . وقد بلغ الازدحام أشده فى الاسكندرية حتى اضطر الخديو أن يصل إلى السفينة عن طريق غير متوقع .

وأطلقت السفن الحربية الراسية فى الميناء التحية الملكية المعتادة ، وصعد عدد كبير من الناس على ظهر الباخرة يودعونه ، فا ستقبلهم سموه بكل ود وهدوء . وكان يودع الواحد تلو الآخر بأن يصافحه ويقول كلمة رقيقة إلى الأشخاص الذين كان بينه وبينهم

صداقة ، وبين كل حين وحين كان يعانق أحد الأصدقاء القدامى المخلصين ، كما هى العادة المتبعة فى الشرق .

وقد وقفت قليلاً على سطح الباخرة ، أتحدث إلى الأميرين وأنا أشاهد البعض يقبل يد الخديو السابق بينما الآخرون يقبلون ثيابه ، كان ينحنى له عدد كبير باحترام بالغ . وهكذا ودع الواحد بعد الآخر ، لمدى أكثر من ساعتين ، أفندينا السابق الوداع الأخير . . . وحان وقت إبحار السفينة . . . فتحركت ـ المحروسة ـ التى كانت باخرة سموه المفضلة السريعة إبان سطوته ، والتى أرسلت لكى تصحبه وعائلته إلى منفاه . . بعيداً عن الميناء وسط دوى المدافع من جديد !

القاهرة فى عهد إسماعيل

نصوص مختارة من الكتاب التذكارى :

« إسماعيل بمناسبة مرور خمسين عاماً على وفاته »

محاضرات ألقيت بالجمعية الجغرافية الملكية

فى الاحتفال بمرور خمسين عاما على رحيل إسماعيل

عام ١٩٤٥ بحضور

الملك فاروق :

الأعمال الهندسية والمنشآت العامة

لحضرة صاحب الدولة حسين سرى باشا

مولاى ، صاحب الجلالة .

لعل المشاركة فى الاحتفال ، بذكرى عاهل مصر العظيم ، ساكن الجنان ، المغفور له الخديو إسماعيل ، بمناسبة مرور خمسين عاما على وفاته تبدو ـ (لأوّل وهلة) ـ يسيرة سهلة ؛ لأن إدارة الحديث فى عظمة إسماعيل ، قد لا تكلف جهدا ، ولا مشقة ، وبخاصة إذا تناول الحديث ، أعماله المادية ، من منشآت عامة ، وهندسية .

ولكن الواقع ، أن عظمة إسماعيل ، ـ (وإن جاءت وليدة استعداد فطرى ممتاز ، ونشأة عملية رصينة ، وتجربة عملية واسعة) إنما تعتمد فى تفرّدها ، على كيفية مواجهتها للظروف الدولية ، والمحلية التى اكتنفت إسماعيل العظيم ، بعد أن ولى مقاليد الأمور فى مصر ، فلا غرو بعدئذ ، أن يقتضى الكلام شيئا من التأمل ، وإنعام النظر .

ليس من شك ، فى أن تاريخ مصر الحديث ، إن هو إلا تاريخ محمد على ، وإسماعيل ، وفؤاد . فقد أرسى محمد على ، أسس النهضة الحديثة فى مصر ، ثم جاء إسماعيل ، ينظم بعبقريته ، معالم هذه النهضة ، ويكيف بذوقه المرهف صورتها ، ويدفعها بقوّته الجبارة ، إلى الأمام دفعا ، مازلنا إلى اليوم ننعم بآثاره ؛ إذ اعتزم إسماعيل ، أن يجعل من مصر أمة متحضرة ، ودولة مستقلة ، بل امبراطورية واسعة قوية ، ومضى قدما يهدف إلى تحقيق أمانيه موفقا ، لا يعرف الموانع والعقبات ،

مستعينا على ذلك ، طورا بكياسته وسياسته ، وطورا بصرامته وقوّة شكيمته ، واضعا نصب عينيه فى الحالين ، أمرا واحدا ، هو بلده ، وخير بلده .

ولكن إسماعيل بعظمته ، استثار الحقد السياسى من كل جانب ؛ فاستغلت بعض الدول ، فرصة القروض التى عقدها ، لمواجهة الإنفاق على مشروعاته ، وتدخلت فى نظام الحكم فى مصر ، وبسطت إشرافها كاملا ، على مالية الدولة ، إيرادا ، وصرفا ، ومن ثم على سياسة مصر كلها ؛ فأدّى ذلك إلى مغادرة إسماعيل بلاده ، إلى إيطاليا ، فتركيا .

وهكذا شاء القدر الساخر ، أن يحرم هذا المصلح العظيم ، من أن يجنى بنفسه ثمار غرسه ، وتعاون خصومه (وما أكثرهم إذ ذاك !) على نشر أسوأ الدعايات حول سياسته؛ فاتهموه بالبذخ والإسراف ، حيث يجب القصد ، ورموه بالبذل والإنفاق ، حيث يجب الإمساك .

ولئن وجدت هذه المزاعم فى إبانها ، من يستجيب لها ، أو على الأقل من يمدّ أذنه ، ليستمع إليها ؛ لقد أظهر الزمن بعد ذلك بطلانها ، وكشف عن بواعثها ، ومراميها ، حتى تخاذلت ، وانهارت ، وبقيت أعمال إسماعيل بين ذلك ، قائمة كالطود ، تعلن نفسها بنفسها ، وتنطق عن عظمة صاحبها .

وهل أدل على ذلك وأهدى ؛ من أننا (نحن أبناء هذا الجيل) قد أصبحنا ولا خلاف بيننا ، حول عظمة إسماعيل ، وغدونا والإجماع منعقد فينا ، على أننا مازلنا إلى اليوم ، وسنظل إلى غد ، وبعد غد ـ ننعم بالعيش فى كنف مشاهد هذه العظمة ، ونستمتع باستغلال آثارها الخالدة على مر الزمان .

ولم يكن بدّ (وقد جاشت نفوسنا بهذه الحقائق الماثلة) من أن نردّ بعض الفضل لصاحبه ؛ فنذكر الجميل لصانعه ، ونحيى ذكرى إسماعيل باستعراض مآثره .

لم يقتصر نشاط إسماعيل ، على ميادين السياسة ، والإدارة ، والاجتماع ، بل جاوزها إلى ميادين التجارة ، والزراعة ، والصناعة ؛ فهيأ لها وسائل النموّ ، والازدهار، ووفر لها أسباب النهوض ، والانتشار ، بشق الترع ، وإقامة الجسور ، وتجميل المدن ،

وتشييد القصور ، وما إلى ذلك ، بحيث لم يترك شيئا من مرافق الدولة ، إلا شمله بتفكيره ، واختصه بعنايته ، ومدّ إليه يد الإصلاح ، حتى ظفرت مصر ، بل ظفر وادى النيل جميعا ، بأوفر قسط من عونه وفضله ، يستوى لديه فى ذلك ، أن يكون المشروع من مشروعاته ، أو من مشروعات أسلافه ؛ إذ مناط الرعاية عنده ، أن يكون المشروع مصدر خيرا أيا كان صاحبه .

ولى إسماعيل حكم مصر ، والعمل جار بقناة السويس ، فمضى فيه ، وشجع القائمين عليه ، حتى افتتحها للملاحة ، فى ١٧ من نوفمبر سنة ١٨٦٩ ، باحتفال فخم ضخم ، دعا إليه جميع الأمم ، ممثلة فى ملوكها ، وأمرائها ، وعلمائها ، ورجال المال والأعمال فيها ، وأتاح بذلك لمصر ، مناسبة جميلة موفقة ، طالما التمسها لتقريب وجهات النظر ، بينها وبين غيرها من الدول ، عن طريق الاتصال المباشر ، وهو خير طرق التفاهم .

ثم رأى إسماعيل ، أن ضبط مياه النيل ، وتنظيم تصريفها، وحسن توزيعها ، يمكن من شغل الأرض بالزراعة طوال السنة ، ويضاعف الثروة القومية ؛ فاحتفر شبكة من الترع ، تنتظم ١١٢ ترعة ، يبلغ طولها حالياً ١٣٠٠٠ كيلو متر .

وأعظم هذه الترع ، هى الترعة الإبراهيمية ، وهى من أكبر الترع فى العالم كله ، ويبلغ طولها ٢٦٨ كيلو مترا ، ومتوسط عرضها ١١٤ مترا ، وتروى ما يربو على ٨٥٠,٠٠٠ فدان .

وقد بدأ العمل فيها سنة ١٨٦٧ ، وانتهى سنة ١٨٧٢ ؛ فاستغرق بذلك ست سنوات ، واحتاج فى إنجازه ، إلى مائة ألف عامل ، كانوا يشتغلون شهرين صيفا ، ومثلهما شتاء من كل عام .

ويرجع الفضل فى وضع تصميمها وإنشائها ، إلى المهندس المصرى ، مصطفى بهجت باشا ، وقد خلفه فى الإشراف على إتمامها، سلامة باشا ، فإسماعيل محمد باشا .

وتبدأ هذه الترعة ، عند أسيوط ، وتنتهى عند أشمون ، بمديرية بنى سويف ،

فهى تخترق الأقاليم الثلاثة : أسيوط ، والمنيا ، وبنى سويف ، وبفضلها تحوّل نظام الرى فى الأقاليم المذكورة ، من رى الحياض ، إلى الرى الصيفى ؛ فأصبحت زراعة قصب السكر موفورة ، وغدت زراعة القطن ميسورة ، وأخذت الصناعات المتصلة بالقصب ، تنمو وتنتشر .

ثم وجه إسماعيل إلى الوجه البحرى ، لفتة سامية أخرى ؛ فشق فيها الترعة الإسماعيلية ، التى تتلقى الماء من النيل ، عند شبرا ، وتنتهى إلى الاسماعيلية ، ثم تتفرّع إلى فرعين : أحدهما ينساب إلى السويس ، والآخر ينحدر إلى بورسعيد، ويبلغ طولها ١٢٩ كيلو مترا .

وقد حفرت هذه الترعة ؛ لتروى مديريتى القليوبية ، والشرقية ، ومنطقة قناة السويس ؛ فأحيت من موات الصحراء مساحة واسعة ؛ بما حملت إليها من ماء عذب، وطمى مخصب ، ومدّت بماء النيل ، مدينتى السويس ، وبورسعيد ، وأضحت خطا ملاحيا ، بين العاصمة وشرق الدلتا ، يحمل بينهما أسباب الثروة ، ووسائل العمران .

وقد أنشأ إسماعيل ، إلى جانب هاتين الترعتين الكبيرتين اللتين تعتبران بحق ، من أكبر الأعمال الهندسية فى العالم أجمع ـ ترعا أخرى أصغر منهما ، تجرى فى طول البلاد وعرضها ، حاملة معها الخير والنماء .

وقد بلغ طول ما احتفره إسماعيل من الترع ١٣٠٠٠ كيلو متر ، أنفق عليها زهاء ١٣ مليونا من الجنيهات .

ثم اتجه إلى الترع القديمة ، والرياحات القائمة ؛ فعمق بعضها ، وأعاد حفر بعضها الآخر ، مما زاد مساحة الأرض المزروعة ، مليونا ونصف مليون من الأفدنة .

وكان من الطبيعى أن يقتضى إنشاء الترع وتعميقها ، إقامة ٤٣٠ قنطرة وجسرا ؛ ضمانا لحسن توزيع المياه من ناحية ، وتسهيلا للمواصلات من ناحية أخرى ؛ فأنشأ إسماعيل قناطر التقسيم ، على الترعة الإبراهيمية ، وهى عبارة عن عدّة قناطر ، متصلٍ

بعضها ببعض ، شيدت على نظام هندسى بديع ؛ لتوزع كل قنطرة منها ، المياه على فرع من فروع الترعة المذكورة .

وأنشأ فى الوقت نفسه ، جسر قصر النيل ، الذى يبلغ طوله ٤٠٦ أمتار ، وعرضه ١٠ أمتار ، ونفقاته ١٠٨٠٠٠ جنيه ، والكوبرى المعروف بكوبرى البحر الأعمى ، وقد ناهزت تكاليفه ٤٠٠٠٠ جنيه ، وبهذين الجسرين الأخيرين ، ربط ما بين القاهرة ، والجزيرة ، والجيزة .

ولما ظهر خلل فى بعض فتحات القناطر الخيرية سنة ١٨٦٧ ، عهد إسماعيل بإصلاح الخلل ، إلى فطاحل المهندسين فى عصره .

وقد أتم مشروعاته البحرية والنهرية ؛ بتوسيع ميناءى السويس والإسكندرية ، فارتفعتا بذلك إلى مصاف الموانى الكبرى العالمية ، وأعدّ المنارات اللازمة لإرشاد السفن ، إلى أحواضها الداخلية .

انصرف إسماعيل كذلك ، إلى تمهيد الطرق الزراعية ، ولاسيما فى الوجه البحرى ؛ فعبد منها ما يزيد على ١٠٠٠٠ كيلو متر ، ومن هذه الطرق ، طريق الأهرام التى هيأها ، وغرس الأشجار على جانبيها ، فى أقل من ثلاثة أسابيع .

ولم يكن بمصر عند ما اعتلى إسماعيل عرشها ، من السكك الحديدية ، سوى خطى القاهرة ـ الاسكندرية ، والقاهرة ـ السويس ، ووصلات صغيرة أخرى ، يبلغ طولها جميعا ، نحو ٤٩٠ كيلو مترا ؛ فوضع إسماعيل برنامجا واسعا ، للخطوط الحديدية ، راعى فيه تحسين الموجود منها ، وربط مصر بالسودان ، وتقريب المسافة بين انجلترا والهند ؛ بإنشاء خط حديدى من مصر إلى وادى حلفا ، فشندى ، فمصوّع .

ولكن الظروف المالية التى واجهته بعد ذلك ، لم تمكنه من تحقيق برنامجه كاملا ، فترك لخلفه ١٨٨١ كيلو مترا من السكك الحديدية ، تسير عليها القطارات ، وفقا لنظام موضوع ، ومواعيد مقرّرة ، بعد أن كانت تتبع أهواء القناصل ، ورغبات الأعيان فى وقوف القطارات وقيامها ، وهى القاعدة المعمول بها .

ولكن مقوّمات الحضارة ، فى الدول الحديثة ، لا تتم بغير البرق والبريد ؛ فمدّ فى مصر والسودان ، شبكة من الخطوط التلغرافية ، طولها ٥٥٨٢ كيلو مترا ، وطول أسلاكها ١١,٩٥١ كيلو مترا ، وبلغ عدد مكاتب التغراف ١٥١ مكتبا ، منها : ٨٦ بالوجه البحرى ، و٤٤ بالوجه القبلى ، و ١٢ بالسودان .

وقد تم فى عهد إسماعيل ، إنشاء خط تلغرافى عبر سيناء ، إلى سوريا ، فالأناضول، فالآستانة . كما أنشأت الشركة الإنجليزية الشرقية فى عهده أيضا ، خطا تلغرافيا ، من الاسكندرية ، إلى مالطة ، فصقلية فأوروبا ؛ وآخر من الاسكندرية، إلى السويس ، فعدن ، فالهند ، ومنها ما يتصل بخط الشرق الأقصى إلى استراليا ، وغدا بذلك اتصال مصر بأوروبا ، وسائر أنحاء العالم حقيقة واقعة .

أما البريد ، فكان السعاة يحملونه برا وبحرا ، فى عهد عباس ، وسعيد ، وكان للجاليات الأوروبية ، فى القاهرة والاسكندرية إذ ذاك ـ مكاتب للبريد ، يقوم عليها طائفة من الأفراد ، يتولون إرسال الخطابات إلى أصحابها ، وكان لأحد هؤلاء الأفراد ، شبه إدارة تهيمن على توزيع البريد ، بين مصر ، وأوروبا . فاشترى إسماعيل هذه الإدارة، ثم وسعها وحسنها ، وجعل منها سنة ١٨٦٥ ، مصلحة مصرية للبريد ، بلغت مكاتبها ٢١٠ مكاتب .

ولم يكن لإسماعيل مندوحة (وقد أنفق صدر شبابه فى باريس) من أن يخلق من القاهرة حاضرة ملكه الأولى ، وأن يجعل من الاسكندرية عاصمة بلاده الثانية ـ عروسين بين بلدان الشرق ؛ فأزال ما بهما من أكوام ، وردم فيهما البرك والمستنقعات ، وأدخل وسائل النظافة ، والإنارة بغاز الاستصباح ، ومدّ أنابيب الماء إلى جميع الأنحاء ، وفتح الشوراع والطرقات ، وبنى القصور والعمائر ، وغرس البساتين ، والحدائق . وأنشأ الميادين والجسور وشيد المساجد ، والمعاهد وأقام المتاحف ، والمسارح .

ففى القاهرة : شوارع الفجالة وكلوت بك ، ومحمد على ، وعابدين ، وعبد العزيز، وكوبرى قصر النيل ؛ وميادين الرميلة ، وعابدين ، وإبراهيم ؛ وأحياء التوفيقية ، والإسماعيلية ، وعابدين ؛ وحدائق الأزبكية ، والأورمان ، والحيوان ؛ وقصور

الجزيرة، والجيزة ، وبولاق ، والزعفران ؛ وعابدين ؛ ومسجدا عابدين ، والحسين ؛ والمسرح الجديد ، والأوبرا .

وفى الاسكندرية : شوارع إبراهيم ، والجمرك ، والمحمودية ، وميدان محمد على ، وحى الرمل ، . وقصر النزهة ، ومجلس بلدى ؛ وكفل لذلك كله ، أسباب النهوض والبقاء .

وإذا عرفنا أن الأعمال العامة ، التى تمت فى عهد إسماعيل ، من سنة ١٨٦٣ ، إلى سنة ١٨٧٩ ـ كلفت الدولة حوالى ٤٦ مليونا من الجنيهات على التفصيل الآتى :

قناة السويس	٦,٧٠٠,٠٠٠
الترع	١٢,٠٠٠,٠٠٠
الجسور	٢,١٥٠,٠٠٠
مصانع السكر	٦,١٠٠,٠٠٠
ميناء الاسكندرية	٢,٥٤٢,٠٠٠
ميناء السويس	١,٤٠٠,٠٠٠
أعمال أخرى فى الموانى	٣٠٠,٠٠٠
خطوط السكك الحديد	١٣,٣٦١,٠٠٠
التلغراف	٨٥٣,٠٠٠
المنارات	١٨٠,٠٠٠
	٤٦,٢٦٤,٠٠٠

وإذا عرفنا أن عدد السكان ، فى سنة ١٨٦٢ـ كان ٤,٨٣٣,٠٠٠ فبلغ سنة ١٨٧٩ ـ ٥,٥١٩,٠٠٠ أى بزيادة نحو مليون نسمة فى ١٧ سنة .

وأن واردات مصر سنة ١٨٦٢ ، كانت ١,٨٨١,٠٢٠ ، فبلغت سنة ١٨٧٥ ، ٥,٦٩٤,٠٠٠ ، أى بزيادة حوالى ٤ ملايين من الجنيهات .

وأن الصادرات سنة ١٨٦٢ ، كانت ٤,٤٥٤,٤٢٥ ، فبلغت سنة ١٨٧٤ : ١٤,٨٠١,١٤٨ ، أى بزيادة نحو عشرة ملايين جنيه .

وأن واردات مصر ، طِوال الثلاث عشرة سنة ، السابقة على حكم إسماعيل ، من ١٨٤٩ إلى ١٨٦٢ ، كانت ٢٩,٦٤١,١٥١ ، والصادرات ت٣٦,٣٣٩,٥٤٣ أى بزيادة فى الصادر على الوارد ، تقدّر بمبلغ ٦,٦٩٨,٥٨٨ .

وأن الواردات طِوال الثلاث عشرة سنة الأولى ، من حكم إسماعيل ، التى تبدأ من ١٨٦٣ ، وتنتهى فى ١٨٧٥ ، كانت ٦١,٩٣٩,٧٣٦ ، والصادرات ١٤٥,٩٣٩,٢٧٣ ، أى بزيادة فى الصادر على الوارد ، تساوى ٧٣,٩٩٩,٥٣٧ .

وأن دخل الدولة قبل إسماعيل ، كان ٤,٥٠٠,٠٠٠ جنيه ، فبلغ فى عهده ٩,٠٠٠,٠٠٠.

أقول : إننا إذا عرفنا هذا كله (بعد أن استعرضنا بالأرقام ، أعمال إسماعيل ، وما أدّت إليه فور إنجازها ، من تضاعف الثروة العامة ، ونموّ عدد السكان)أدركنا المثل السامي ، الذى ضربه هذا العاهل العظيم ، فى سياسة البناء والتعمير ، طيب الله ثراه ، وجعل الجنة مأواه ، وأبقاك يا مولاى ، راعيا للنهضة فى البلاد .

القاهرة فى عهد إسماعيل

للدكتور أحمد فكرى

بكلية الآداب بجامعة فاروق الأوّل

كان عصر إسماعيل فى القاهرة ، نقطة تحوّل حاسم فى جغرافيتها ، وفى تاريخها كانت عاصمة الديار المصرية ، منذ أنشأها عمرو ، فى الفسطاط . وكانت حتى منتصف القرن التاسع عشر ، تتجه فى اتساعها نحو الشمال : اتجهت إلى العسكر ، فالقطائع ، فالقاهرة، فالعباسية ، وظلت تتطلع فى تطوّرها العمرانى فى نحو هذا الاتجاه ؛ فجاء إسماعيل وحوّل مجراها إلى الغرب ، أنشأ بينها وبين النيل حيا بأكمله : هو حى الإسماعيلية . وهكذا برزت عاصمة مصر الحديثة ، وكانت حدودها تمتد من الأزبكية إلى بولاق ، (وكوبرى) قصر النيل ، وتجاوزت ضفة النيل الشرقية إلى الجيزة والجزيرة .

وليس المجال مجال إسهاب ، فلن أصف لكم ما استحدثه إسماعيل فى هذه العاصمة الجديدة ، وما أفاضه من مظاهر النهضة على شوارعها ، وميادينها ، وفنادقها، وقصورها ، ومسارحها ، وملاهيها ، وبساتينها ، ومدارسها ، ومتاحفها ، ومكتباتها، ومستشفياتها . ولن أحدثكم عن منشآت العمران فيها ، وعن إضاءتها ، ومياهها ومجاريها ، أو أرسم لكم صورة لحفلاتها وسهراتها ، ومنتدياتها ومتنزهاتها ، وحياة الناس فيها وأساطيرهم عنها .

كل هذه موضوعات أشاد الكتاب ، والمؤرّخون ، والعلماء ، والرحّالون بذكرها . ولن أنقل إليكم ما قاله بعض هؤلاء الرحّالين : من أن القاهرة فى عصر إسماعيل كانت مساحتها ثلاثة أضعاف مساحة باريس ، وأنها كانت فى جمالها أبدع من أحياء باسى ، وغابة بولونيا ، وأن القسطنطينية كانت تتضاءل بجوارها ، وأن الأزبكية كانت أزهى حدائق العالم ، وأن دار (الأوبرا) فيها كانت من أكثر دور الموسيقى والتمثيل سعة وفخامة .

والذى لا مجال للشك فيه ، أن القاهرة عاشت فى عصر إسماعيل ، فترة من أجمل فترات حياتها ، بمن اجتمع فيها من ملوك العالم ، وعظمائه ، وبما شاهدته من حفلات العز والفخامة ، وبما تهيأ لها من أسباب اللهو والرفاهية ، وأنها بلغت حينئذ من الشهرة العالمية ، ما لم تبلغه فى أى عصر من عصورها السابقة .

ولكن إسماعيل أراد ألا تقف شهرة عظمة دياره عند هذا الحد ، أو أنه أراد أن يجعلها جديرة بهذه الشهرة ؛ فجعلها كسائر عواصم العالم فى نهضتها الحديثة : أضاءها بطرق الإضاءة (الميكانيكية) فامتدت على جوانب شوارعها مصابيح (الغاز) ، وأمدّها بالمياه الجارية المنقاة ، ووفر لها أسباب النظافة والصحة ، وخط أحياءها الجديدة على النظم المستحدثة .

وفى كل هذا ، ترجمة لناحية هامة من نواحى سياسة إسماعيل وآماله : وهى توجيه مصر نحو المدنية العالمية ، وإلباسها مظاهر النهضة الحديثة . وقد تحققت آمال إسماعيل ، فالقاهرة اليوم تدين له بأحيائها العصرية : أحياء الأوبرا ، والأزبكية ، والإسماعيلية ، وقصر النيل ، وقصر الدوبارة ، والجزيرة ، والزمالك . هذه مرآة تقدّمنا العصرى ، وهو واضع أساسها ومنهاجها .

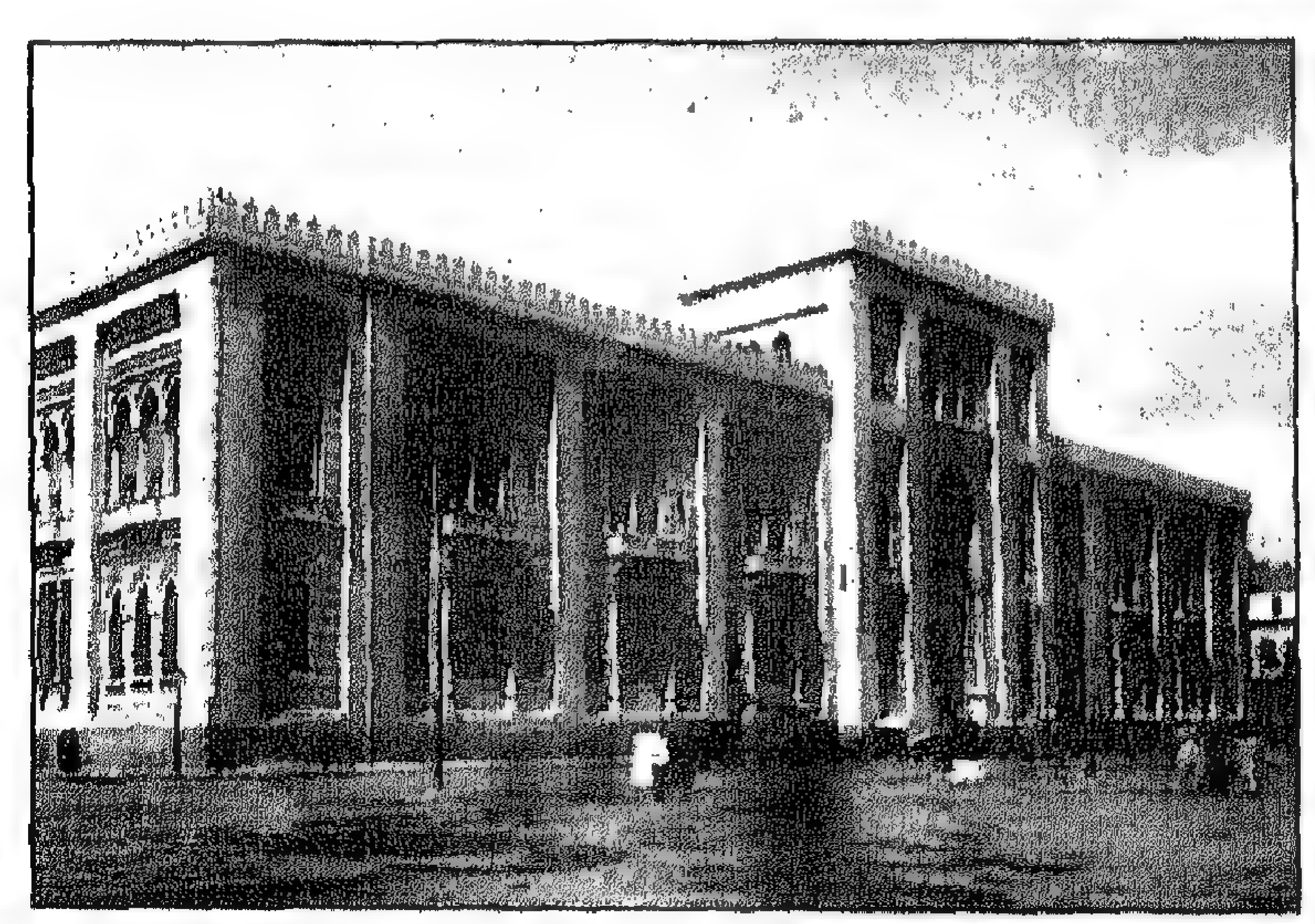
ولكن سياسة إسماعيل كانت تتشبع بناحية أخرى ؛ كانت تطل مع الماضى ، كما كانت تتطلع إلى المستقبل ، كانت تنشر ثمار النهضة الحديثة ، كما كانت ترعى جذور المدنية القومية . وهذه الناحية ، نراها أيضا منطبعة مرتسمة ، فى قاهرة إسماعيل .

وإذا كان العالم قد اهتم بآثار مصر القديمة ، منذ الحملة الفرنسية ، وإذا كان علماء الآثار قد لقوا من مؤسس الأسرة العلوية ، ومن خلفائه ـ جميع وسائل التشجيع والرعاية؛ فإنه يرجع إلى إسماعيل أكبر الفضل فى تدعيم علم الآثار ، وفى نجاح أعمال الكشف الرائعة ؛ التى قام بها مارييت باشا ، والتى قال عنها هذا العالم الكبير : إنها ما كانت تتحقق بغير عناية إسماعيل . وقد تحققت مع هذه الأعمال ، وبفضل رعاية هذا العاهل العظيم ، وبإشراف مارييت باشا ـ فكرة إنشاء المتحف المصرى (متحف بولاق). وبالرغم من أن إسماعيل لم يستطع أن يقيم له البناء الفخم الجدير

بمحتوياتها ، فإنه هيأ لتراث مصر الغنى ، وسجل تاريخها ـ مكانا فى مخازن مهجورة ، لإحدى شركات النقل ، وجعل منها ومن محتوياتها ، متحفا أجمع العالم حينئذ ، على أنه كان أبدع متاحفه وأروعها ، وأغناها .

أدرك إسماعيل أن للقومية المصرية تراثا إسلاميا ، تشخصه القاهرة بمبانيها ، وآثارها ، وتترجم ما اجتمع فى هذا التراث القومى ، من عناصر اللغة ، والعقيدة ، والتفكير ، والتشريع ، وأسباب الحياة الاجتماعية والسياسية ؛ فأمر بأن تنشأ دار الآثار العربية ـ انظر لوحة (٣٣) ـ ، وأن يجمع فيها ما تفرّق من مخلفات الفنون فى عصور مصر الإسلامية . ولست بذاكر لكم تفاصيل ذلك ، ولست بناقل إليكم ما عهد به إلى فرانز باشا ، وكيف أن آمال إسماعيل لم تتحقق كلها ، إلا بعد تخليه عن الحكم بسنين ؛ فأنشىء المتحف رسميا ، وتشكلت لجنة حفظ الآثار العربية . ولكن يكفينى أن أذكر لكم أمرين : أما الأمر الأوّل ـ فإن دراسة الآثار والفنون الإسلامية ، لم تلق عناية العلماء وتقديرهم ، إلا منذ عصر إسماعيل . وأما الأمر الثانى ـ فإن الفضل فى حفظ آثار القاهرة ، وتدعيمها ، وتجديدها ، فى وقت بدأت تطغى عليها مظاهر المدنية الأوروبية ـ يرجع إلى سموّ إدراك هذا الأمير .

وهكذا ، كانت القاهرة حينئذ ، تزهو على السواء ، بتراث ماضيها ، وبآفاق مستقبلها ...



لوحة (٣٣)
دار الآثار العربية [متحف الفن الإسلامى حالياً]

القصور والمنشآت

لحضرة صاحب العزة مصطفى فهمى بك

كبير مهندسى شرف القصور الملكية ومدير عام مصلحة التنظيم

يشرفنى أن تتاح لى هذه الفرصة ، لأتكلم عن المنشآت العامة ، والقصور والمتنزهات فى عصر إسماعيل العظيم .

إن ما شهدته مصر فى العهود السابقة ، من فتوحات وانتصارات حربية عظيمة ، لا يعادله سوى تقدّمها العمرانى والثقافى ، الذى ظفرت به فى عهد (المغفور له) إسماعيل باشا ، بفضل توجيهه السديد ، وما امتاز به من نظر ثاقب بعيد .

كان (المغفور له) إسماعيل باشا ، شغوفا بحب البناء والتعمير ، ولوعاً بحب التنسيق والتجميل . هاله ما كانت عليه البلاد من سوء الحالة العمرانية والتخطيطية ؛ فلم يعبأ بجهد يبذله ، أو مال ينفقه ، فى سبيل إصلاح حالها ، وبناء مجدها ووقوفها فى مصاف الأمم المتمدينة . فتم له ما أراد ، بفضل عزيمته ، وقوّة إرادته ، وحبه الجم لبلاده ، ودب النشاط فى جميع أوصال البلاد . وبدأت موجة الإصلاح بإزالة جزء كبير من التلال التى كانت مكدسة فى القاهرة ، وحول أسوارها القديمة ، وانتفع بالقدر الذى أزيل منها فى ردم البرك والمستنقعات ، التى كانت مباءة لكثير من الأمراض الفتاكة .

رأى بعد ذلك بثاقب بصره ـ أن الحاجة ماسة إلى تنظيم الأحياء ، وإنشاء الميادين ، وشق الشوارع والحارات ، فأنجز ذلك كله ، بطريقة هندسية دقيقة ، تشهد له بالبراعة فى هذا المضمار .

فبعد أن قام بإصلاح أحياء المدينة القديمة ، اتجه بعنايته واهتمامه ، إلى استحداث أحياء صحية جديدة ، على الضفة الغربية للنيل وغيرها ؛ لمواجهة الزيادة المطردة فى

السكان ، وبنى قصرى الجيزة والجزيرة . ثم أقام فى عام ١٨٦٩ (كوبرى) قصر النيل (الذى جدّد فى عهد المغفور له الملك فؤاد الأوّل) وسمى (كوبرى) الخديو إسماعيل ، تمجيدا لذكرى مشيده العظيم ، وتخليدا لاسمه الكبير ، وتعزيزا للفكرة الصائبة التى أوحت بإنشائه فى ذلك العهد : وهى ربط القاهرة شرقيها بغربيها ، والتى من أجلها أيضا أنشىء (كوبرى) البحر الأعمى القديم فى سنة ١٨٧١ .

ولقد كانت هذه الأعمال العظيمة ، دافعا قويا لأعيان البلاد وسراتها ، فى التعمير والإنشاء ، فى تلك الأحياء الجديدة ، مقتدين فى ذلك بعاهل البلاد العظيم . وصدق فى ذلك المثل القائل : « الناس على دين ملوكهم »

أما الميادين والشوارع والحارات ، التى شقت فى ذلك العهد الزاهر ، فقد روعى فى تخطيطها ، أن تكون مستقيمة ، أغلبها متقاطع على زوايا قائمة . وجعل فى جانبى كل شارع وحارة - إفريز للمشاة ، وخصص الوسط للعربات والحيوانات ، ورصف أرضها (بالدقشوم) ومدت فى جميعها (مواسير) الماء للشرب والرش ، ورى البساتين ، ونصبت فيها مصابيح (الغاز) للإنارة ؛ كما امتدت شبكة المجارى العمومية فيها ، والتى عمت فى عهده جميع الأنحاء ؛ مما كان له أثر ظاهر فى الحالة الصحية . وأذكر هنا على سبيل المثال بعضا من هذه الميادين والشوارع :

١ - ميدان إبراهيم باشا ، وهو مثل بارز للتنظيم ، والتنسيق الدقيق . وإن دعتنا الحاجة يوما إلى إدخال بعض التعديل عليه ؛ فما هذا إلا بسبب التطوّر الهائل فى حركة العمران ، وازدياد وسائل النقل بأنواعها المختلفة وتعقد حركة المرور على مر السنين .

٢ - شارع الأهرام ، ويعدّ من أهم الشوارع ، التى أنشئت لربط العاصمة بأهرام الجيزة ، والتى كانت ولا تزال قبلة السائحين من كل حدب وصوب .

٣ - شارع كلوت بك ، ولم يكن شقه لتكريم الطبيب الفرنسى كلوت بك ، لنهوضه بالطب فى مصر فحسب ؛ بل ليكون حافزا للناس ، ومنبها للأذهان على النهضة الصحية التى ستعم البلاد .

٤ - مهد الشارع الموصل إلى القلعة ، بعد أن كان الوصول إليها صعبا كثير

التعرّجات ، وأطلق عليه اسم محمد على ، رمزا إلى القلعة العظيمة ، التى وإن كان قد بناها صلاح الدين ؛ إلا أنها قد شهدت أعز وأمجد أيام جدّه العظيم ، محمد على باشا ، رأس الأسرة العلوية الكريمة .

٥ ـ الشارع الموصل إلى الجمرك ، وكذلك شارع السبع بنات ، وهما من أهم الشوارع التى أنشئت بمدينة الاسكندرية .

٦ ـ شوارع : عابدين ، والمغربى ، والمناخ ، قصر النيل ، وعماد الدين ، والمدابغ ، وبولاق ، والفجالة ، وغيرها .

والكثير من هذه الشوارع تغيرت أسماؤها أخيرا .

هذا فضلا عن تمهيد الطريق بين مصر والسويس ؛ لأهمية ذلك فى التجارة بين مصر ، وبعض الدول الشقيقة . وكذا ربط القاهرة بمدينة حلوان : هذا المشتى البديع الذى امتاز بمياهه الكبريتية والمعدنية ، ومناخه الجاف ، وهوائه العليل ، وأنشأ لها خطا حديديا فى سنة ١٨٧٢ . ولم يقتصر على ذلك ، بل تعدّاه إلى ربط القاهرة بجميع نواحيها ، ومدنها البعيدة والقريبة على السواء ؛ مما كان له أبلغ الأثر فى انتعاشها .

كل هذه أعمال تخطيطية جليلة ، كانت تفخر بها مصر فى ذاك الوقت ، ولا تزال تزهو بها إلى الآن ، رغم تقدّم السنين ، وابتكار الطرق التخطيطية الحديثة . وهذا دليل كاف على براعة منشئها العظيم ، وصائب تفكيره ، وتعلقه الشديد بحب بلاده ، ورغبته فى النهوض بها إلى المستوى الذى جعله يقول بحق : إن مصر قطعة من أوربا ، وليست فى أفريقيا .

وقد توالى ظهور المنشآت والقصور الفخمة فى عهده الزاهر ، وأصبح التسابق فى إنشائها وتجميلها ملحوظا ؛ فأعاد بناء قصر الجيزة العظيم ، الذى أشرنا إليه آنفا ، بعد أن كان قصرا صغيرا فى عهد المغفور له سعيد باشا ، فجاء بناؤه آية فى الفن المعمارى ، كما كانت حدائقه فريدة فى نوعها .

ثم بنى قصر الجزيرة ، على الطراز الأندلسى ، مكوّنا من قصر للحريم ، (وسلاملكين) أحدهما كبير ، والآخر صغير . وجعل (بالسلاملك) الكبير عقودا من

الحديد المصبوب آية فى الفن . كما أحيط هذا القصر بحديقة غناء ، أبدع فى تنسيقها ، احتوت على أنواع من الطيور المختلفة ، والحيوانات الضارية المتنوّعة : كالفيلة ، والنمور ، والسباع ، وغيرها .

وقصر عابدين العامر ـ بآثار ذلك العهد الخالد ـ ألا ما أبدع التفنن فيه وفى رياشه وأثاثه الفاخر ، وما أروع التنسيق فى حدائقه الداخلية التى تعدّ بحق قطعة من جنان الفردوس ! وليس أبلغ للدلالة على الافتنان فى نظام هذا القصر وطريقة بنائه ، ومن أن كل ما أجرى فيه بعد ذلك ، من إضافات أو تعديلات معمارية ـ كان القصد منها ، المحافظة على كيانه التاريخى الأصلى، مع الانتفاع بما ابتكر من طرق ومواد بنائية حديثة ، دون الخروج بقدر الإمكان عن الأسلوب ، والتكوين البديع الذى وجد به .

وقد أنشأ (المغفور له) الخديو إسماعيل (غير ما أسلفنا) من القصور الفخمة العظيمة ـ قصر القبة العامر ، وقصر الزعفران القديم ، وقصر النزهة على سكة شبرا ، وقصر الإسماعيلية ، والقصر العالى ، وقصر (المسافر خانة) ، وقصر حلوان ، وقصر رأس التين العامر بالاسكندرية ، وغير ذلك من القصور التى أنشأها للأمراء والأميرات ، فى مختلف العواصم والمديريات . أنظر لوحة (٣٤) .



لوحة (٣٤)
جامع الرفاعى كما كان يبدو عام ١٩١٢ م

ولم تقتصر النهضة البنائية على إنشاء القصور فقط ؛ بل تعدّتها إلى بناء المساجد العظيمة ، ولا سيما مسجد الرفاعى ، الذى يعدّ بحق من أجمل المساجد فى العالم ، سواء فى تنسيقه الداخلى ، أم فى عظمة مظهره المعمارى الخارجى ، وكذلك دور المدارس والمستشفيات العديدة ، بالقاهرة والاسكندرية ، وغيرها من البلاد السودانية .

كما شيد دار الآثار العربية ، ودار (الرصدخانة) بالعباسية ، ومصلحة المساحة التى تعتبر من أهم أعمال العمران ، لا رتباطها بالزراعة ، وتحديد الملكية .

وقد شملت هذه النهضة أيضا دور التمثيل ، التى بُنِىَ منها داران عظيمتان : إحداهما التى أطلق عليها (الكوميديا) وقد شيدت فى ٢٢ من نوفمبر سنة ١٨٦٧ ، بحى الأزبكية ، مكان بيوت صغيرة ، دفع الخديو إسماعيل قيمتها بسخاء لأربابها ، واحتفل بافتتاحها مساء ٤ من يناير سنة ١٨٦٨ ، ولم يستغرق إنشاؤها ، وتجهيزها ، وتزيينها بأبهى الرسوم ، والنقوش - سوى شهر واثنى عشر يوما . فيالها من همة عالية! لا يملك الإنسان معها فى أحدث الأزمان ، وأكثرها تقدّما ، واستحداثا لآلات البناء ، إلا أن يدهش معجبا بهذا المجهود الجبار .

وأما الدار الثانية ، فكانت (الأوبرا) إذ بنيت فى السنة التالية لبناء الأولى ، وفى ظرف خمسة شهور فقط ، بدت فى مظهرها الفخم الرائع ، الذى لا تزال تتجلى لنا فيه حتى الآن .

وقد احتفل بافتتاحها فى نوفمبر سنة ١٨٦٩ ، حيث مثلت فيها (الأوبريت) «ديجوليتو » ، بحضور الامبراطورة أوجينى (عقيلة نابليون الثالث) ، وكان ذلك بمناسبة الاحتفال بافتتاح قناة السويس .

ننتقل بعد ذلك إلى الكلام عن المتنزهات العامة ، التى شملتها حركة العمران فى العصر الإسماعيلى المذكور ؛ إذ نسقت حديقة الأزبكية ، وابتكرت لها المناظر والرسوم المختلفة ، وأنشئت فيها البحيرات ، والجداول ، والنافورات ، واستحضرت لها النباتات من مختلف البلدان : كالهند ، والصين ، والسودان . كما وضع فى بحيراتها مختلف أنواع الطيور المائية والأسماك ، وأحاطها بسياج له أربعة أبواب كبيرة ، آية فى الفن ، وما زالت فى أماكنها حتى اليوم . فأصبحت بذلك كله متنزها بديعا على شاكلة

حدائق باريز ، يخلب الألباب ، ويروح عن النفوس ، وقد احتفل بافتتاحها سنة ١٨٧٢ .

وحدائق الأورمان أنشئت أيضا فى عصره ، وتعتبر مرجعا لدراسة أنواع الأشجار والنباتات النادرة المختلفة ، التى جلبت من جزائر الروم ، وغيرها من سائر البلدان ، ونسقت أبدع تنسيق ، تجلى فيها الذوق السليم بأجلى معانيه .

وحديقة النزهة بالاسكندرية ـ من صنع ذلك العهد ، وهى فى غنى عن الوصف أو البيان ، بما اشتهرت به من السعة وجمال التنسيق .

كما عرفت مصر غير ما أسلفنا من آثار هذا العهد الزاهر (ولأوّل مرة فى تاريخها الحديث) التماثيل والنصب التذكارية ، فنصب منها تمثالا بالاسكندرية لجدّه العظيم ، محمد على باشا (رأس الأسرة العلوية الكريمة) وآخر فى القاهرة للفاتح العظيم ، والده المغفور له إبراهيم باشا ، وغيرها : كتمثال سليمان باشا ، وتمثال لا ظوغلى .

كما عرفت لأوّل مرة أيضا الاشتراك فى المعارض الأوروبية ؛ إذ اشتركت فى معرض باريز سنة ١٨٦٧ ، وخصص لها قسم خاص ، عرض فيه جميع نواحى نشاطها وتقدّمها ؛ فكانت أحسن دعاية لمصر أمام دول العالم ، كما كانت سببا فى اجتذاب مشاهير رجال أوربا وأغنيائها وعلمائها ؛ لزيارتها ، والتعرّف على حضارتها . وفى ذلك ما لا يخفى من الفوائد والمزايا التى عادت على البلاد .

وعلى الجملة ، فقد امتاز عصر إسماعيل العظيم ، بتقدّم العمران ، والثقافة التى لم تترك ناحية واحدة إلا شملتها ؛ فلا غرو إذا اعتبرناه إذن عصرا ذهبيا لبلادنا المصرية .

وقد تابع خطاه نجله (المغفور له) الملك فؤاد الأوّل ؛ فغمر البلاد بمنشآت عظيمة جديدة ، تتصل بكافة النواحى العمرانية ، والاجتماعية والعلمية .

ورزقها الله من بعده ، بحفيده الملك فاروق الأول (أطال الله لنا فى حياته) . وهو أيضاً شغوف بحب البناء والتعمير ، ولا يقل عنهما عطفاً على بلاده وحبا لها ؛ فقد أسس وأنشأ الكثير ، وعمل ولا يزال يعمل بهمة لا يعتريها فتور ، على رفعة شأنها ، والوصول بها إلى مستوى الأمم الراقية ، بعون الله العلى القدير .

قاهـرة إسماعـيل

للأستاذ محمود رمزى

فى ١٨ من يناير من عام ١٨٦٣ ، ارتقى عرش مصر (ساكن الجنان) الخديو إسماعيل ، جد صاحب الجلالة ، مولانا الملك المعظم (أيده الله) . وفى هذا اليوم ، بزغ فجر النهضة الإصلاحية الثانية لهذا الوطن ، فى الحكم السعيد، للأسرة العلوية . وتاريخ إسماعيل العظيم ، زاخر بالوثبات والنهضات فى جميع مرافق البلاد ، من إنشاء وتجديد ، وبناء وتشييد ، وتعليم وصناعة ، وتجارة وزراعة ، وقد ازدهرت فيه الفنون ، وتجدد الأدب . والمؤرخ لهذا الأمير العظيم ، يحار عند ما يقرأ ما سطره بعض ذوى الأهواء الجامحة ، من الكتاب الأجانب ـ فى الموازنة بينه وبين الحقيقة السافرة ، والآثار الخالدة لعصر إسماعيل .

وسأحاول هنا تصوير القاهرة فى أيام إسماعيل ، بقدر ما يسمح به الوقت، لابقدر ما يجب من الشرح والإفاضة ؛ لأنها تستغرق مجلدات . ولعلى أوفق بهذه الكلمة، لبيان ما تحضرت به المدينة فى عصره المجيد .

مدينة القاهرة

كان إسماعيل محبا للبناء والتجديد ، عظيم الآمال فى النهوض بأمته ، على غرار ما صنع جدّه الأكبر . نظر إلى مدينة القاهرة ، فوجدها محصورة منكمشة فى أحضان المقطم ، بأحيائها القديمة ، وأزقتها الضيقة ؛ فمضى قدما فى استنباط وسائل التجميل والتحسين ، بفتح الشوارع ، وإنشاء المتنزهات ، والحدائق ، والقصور الفخمة ، والمظاهر اللائقة بعاصمة ملك الفراعنة ، وحاضرة التشريع الإسلامى .

الشوارع الجديدة

ومن الشوارع والميادين التى أنشأها إسماعيل : شارع العباسية ، وشارع شبرا ، وأمر

بغرس الأشجار القليلة فيها من اللبخ والجميز ، وقد بقيت تلك الأشجار قائمة إلى أوائل هذا القرن ؛ فذهبت بسبب أعمال الرصف والتوسيع، ثم ميدان الإسماعيلية (وقد كان فى نطاق حديقة القصر العالى) وكل ما نراه اليوم من عابدين ، إلى باب الحديد، وفى أحياء المنيرة ، وباب اللوق ، وسليمان باشا ، وميدان ابراهيم باشا ، والتوفيقية ـ بدأ عمارها فى عصر إسماعيل . وقد كان شارعا شبرا والعباسية ، متنزهين للذوات ، والأعيان فى كل أصيل ، قبل إنشاء (كوبرى) قصر النيل .

كوبرى قصر النيل

كان الشعب يعانى المشاق الجمة فى عبور النيل ، بالمراكب الشراعية ، والمعادى (ولاسيما فى خطر الفيضان) متنقلاً إلى البر الغربى ، فأنشأ إسماعيل (كوبرى) قصر النيل ، واتصلت الضفتان : وهو من أضخم الأعمال الفنية التى تمت فى ذلك العهد . ولما كان إسماعيل يلقب بأبى السباع ؛ فقد أعدّت تماثيل أربعة من السباع النحاسية ، وجعلت فى مدخلى (الكوبرى) . وكان أثره عظيماً فى تسهيل وسائل الانتقال، وفى تقدّم الجيزة ، وتبادل الشئون الاقتصادية بين العاصمة وبينها ، كما أصبحت الجزيرة بعد ذلك متنزه القاهرة العظيم .

ميدان الأوبـرا

كان فى موضع حديقة الأزبكية ، ودار الأوبرا ، وميدان إبراهيم (الأوبرا سابقاً) بقية بركة الأمير أزبك الأشرفى ، التى كان يسميها العامة (بطن البقرة) وكانت تمتد فى عهده إلى حارة النصارى ، يقوم حولها يومئذ حى عامر ، من القصور ، والحدائق ، ومسجد أزبك .

وقد ردم جانب منها فى عهود مختلفة ، أيام الأسرة العلوية . ولما قرب موعد افتتاح قناة السويس ، عهد إسماعيل إلى المهندس الإيطالى السنيور (ماتاتيا) صاحب العمارة المعروفة باسمه إلى اليوم ، وكان من المهندسين البارعين ـ أن يقوم بردمها فردمها ، ووضع تصميم حديقة الأزبكية ، ودار الأوبرا على ما نراهما اليوم (عدا تغيير فى داخل الحديقة) كردم بحيرتها الصناعية ، ونقل الطيور المائية التى كانت تسبح فيها ،

والزوارق الصغيرة التى كان يتنزه فيها جمهور زوارها . وثمة تغيير آخر فى ميدان الأوبرا؛ بنقل تمثال إبراهيم من مدخل الموسكى ، إلى موضعه الحالى .

حدائق إسماعيل

وأنشأ إسماعيل حدائق الحيوانات ، وتربية الأشجار والفاكهة ، وجلب إليها الحيوانات النادرة والزهور والفواكه ، من جميع البلاد ، وأقام فيها (الأكشاك) البديعة والجبلايات ، والبحيرات ، والجزر ، وجعل فيها شلالات متدفقة ، وقد رصفت طرقاتها (بالزلط) الملون فى رسوم بديعة .

وأنشأ أيضاً حديقة الأسماك بالجزيرة ، وحدائق قصره القائم بجوار (كوبرى) « أبو العلا » ، وبها من النوافير والتماثيل المرمرية ما يثير الإعجاب ، ويشير إلى الطابع الذى طبعت عليه روح إسماعيل ، من حب التجميل والتجديد ، وجعل مصر قطعة من أوروبا .

عصر الصهاريج

وانقضى عصر صهاريج المياه ، التى كانت تبنى تحت الدور ، والقصور ، والمساجد ، فى أيام الفيضان ، ويشرب الأهالى منها ، وكذلك أخذ عصر السقائين يتوارى شيئاً فشيئاً ، بعد أن أتعبهم حمل الماء فى القرب إلى المنازل ؛ وذلك بمد أنابيب المياه التى اقتصرت حينذاك على القصور والدور الكبيرة ، وعمت اليوم القاهرة وضواحيها .

إضاءة الطرقات

وكانت الحكومة تلزم الأهالى بإضاءة الشوارع والأزقة والحارات ؛ بتعليق فوانيس على أبوابهم تضاء (باللمبات الغازية) الصغيرة ، ليتمكن رجال (الطوف) وهم الشرطة ، من الحراسة الليلية . ولم يوجد فيما مضى مكان للخفراء ورجال الشرطة كما هو الحال الآن ؛ بل كانوا يطوفون الشوارع والحارات جماعات جماعات ، بنداءات معروفة .

وقد سمح إسماعيل للشركات بإضاءة الشوارع بالنور ، وأقيمت مصابيح (الغاز) وظلت تمتد مع عمران الشوارع ، حتى أصبحت اليوم على ما نرى .

السكك الحديد

ولا ينسى المؤرخون لإسماعيل ، فضله فى مد الطرق الحديدية فى أنحاء البلاد ، وبذل الجهود الجبارة لإيجاد الرخاء فيها ، وإنهاض شعبها مع إنكار الذات ؛ فلم يطلق على كوبرى قصر النيل - كوبرى إسماعيل ، تواضعا منه ، وإيثارا للمصلحة العامة وحدها على كل اعتبار آخر .

قصور إسماعيل

كان قصر الحكم إلى أول عصر إسماعيل فى القلعة ، فأنشأ قصر عابدين العامر ، فكان مقرّا للحكم ، ولنظارات الحكومة ، وجعل له الميدان والشارع المعروف باسمه .

قصر الجيزة

وأنشأ قصر الجيزة إلى جوار حديقة الحيوانات من الناحية القبلية ، وكانت حديقته تمتدّ إلى البحر عند (كوبرى) عباس ، وما زالت بقايا (جبلايته) قائمة فى موضعها . وقد خصص هذا القصر فيما بعد للمتحف المصرى ، وظل به إلى أوائل القرن الحاضر ، فنقل إلى داره الحالية ، وهدم القصر ، وقسمت أرضه لكلية الزراعة ، ومدرسة الطب البيطرى ، والمساكن والعمارات المحيطة بهما .

قصر الجزيرة

وقصر الجزيرة الذى يمتلكه آل لطف الله ، كان من أفخم قصور إسماعيل ، (والكازينو) العربى الطراز المشيد أمامه ، والحديقة البديعة المحيطة به ، وقد كان لهذا القصر صلة كبرى بحفلات افتتاح قناة السويس ، ونزول الأباطرة ، والملوك ، والأمراء من المدعوين فى ضيافة مصر .

قصر الإسماعيلية

وأنشىء قصر الإسماعيلية فوق الأرض المجاورة الآن للميدان ، وكان أيضا من القصور الملكية العظيمة ، يحيط به سور مرتفع وتضمه حديقة غناء ، تنتهى بالمسجد الذى بقى بعد هدم القصر ، الذى ظل مقرّا (للمغفور له) الغازى أحمد مختار باشا ،

ممثل الخلافة العثمانية ، حتى نقل من مصر ، فاستردت الحكومة القصر وهدمته .

دار الكتب

وعنى إسماعيل بإنشاء دار للكتب ، جمعت فيها نفائس المخطوطات والمؤلفات ، وكان مقرها فى شارع درب الجماميز ، فى الدار التى كانت مخزنا لوزارة المعارف ، فلما أنشئت دار الكتب المصرية بميدان باب الخلق، نقلت المكتبة إليها . أنظر لوحة (٣٥) .

المساجد فى عصره

ومن اضخم المساجد التى شيدها إسماعيل ، مسجد المشهد الحسينى ، ومسجد الرفاعى ، وكلاهما من المساجد الفنية العظيمة فى فن المعمار . وفى مسجد الرفاعى من النقوش المرمرية ، والذهبية ، والرخام الملون ـ ما يجعله من هذه الناحية من أبدع مساجد القاهرة ، وإن لم يكن من آثارها . أنظر لوحة (٣٦) .

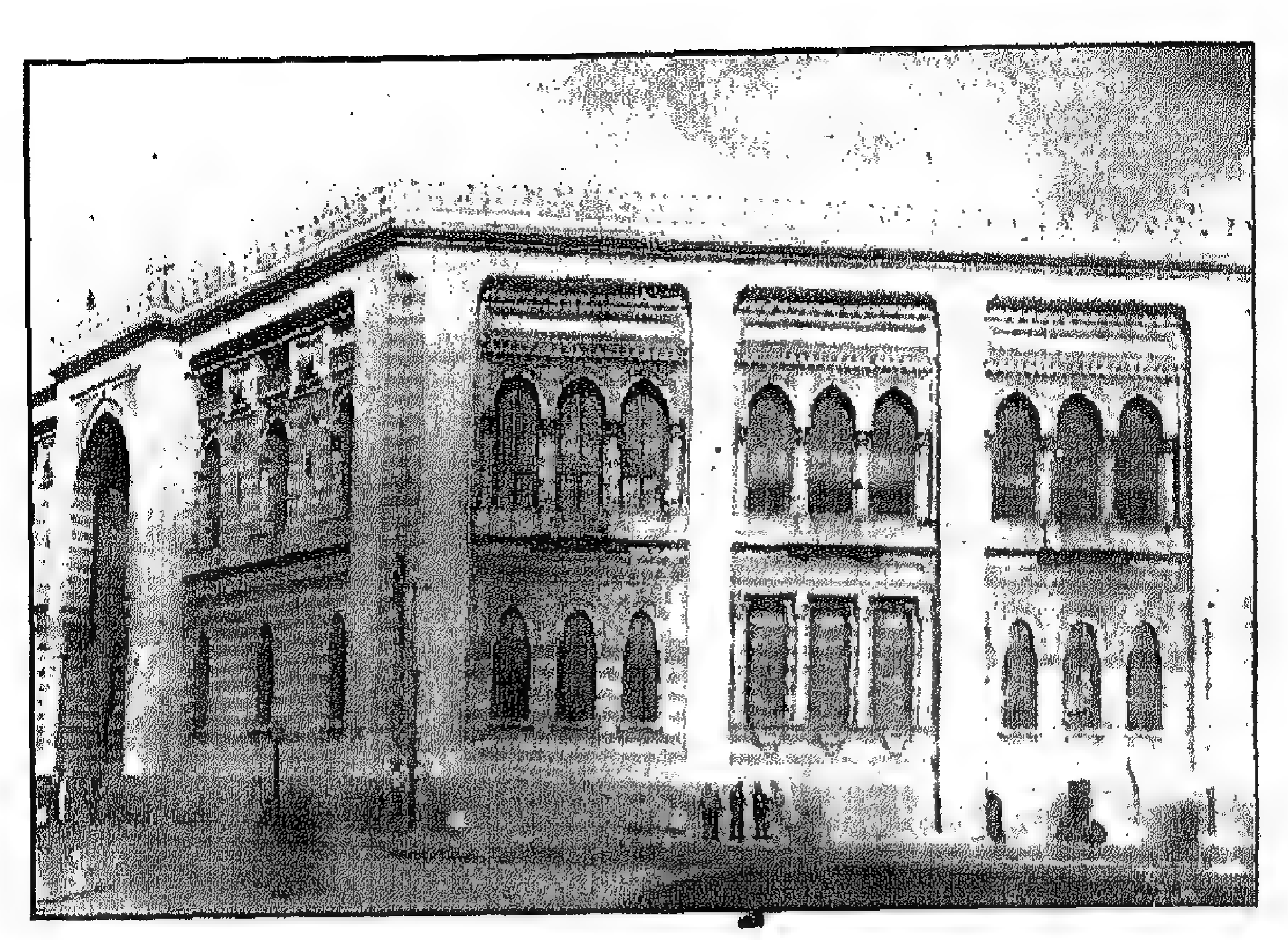
النهضة العلمية والأدبية

ولا يفوتنا هنا أن ننوه بالنهضة العلمية والأدبية فى عصر إسماعيل ؛ فقد وجه اهتمامه لتعليم أبناء الشعب ، وإنشاء المدارس للبنين والبنات ، ترغيباً للأمة فى تعليم بناتها ؛ فكانت مدرسة السيوفية ، والمدرسة التى تحتل مكانها الآن وزارة الأشغال ، وكلتاهما من مدارس البنات . وكانت تشرف على الأولى سيدة جليلة من نساء إسماعيل . وقد ازدهر الأدب فى عصره ؛ فكان من رجاله أمثال : محمود سامى البارودى ، ومحمود صفوت الساعاتى ، والشيخ على الليثى ، ومحمد عثمان جلال ، وعبد الله النديم ، وحسن حسنى الطويرانى ، وعائشة التيمورية ، ومباركة المغربية .

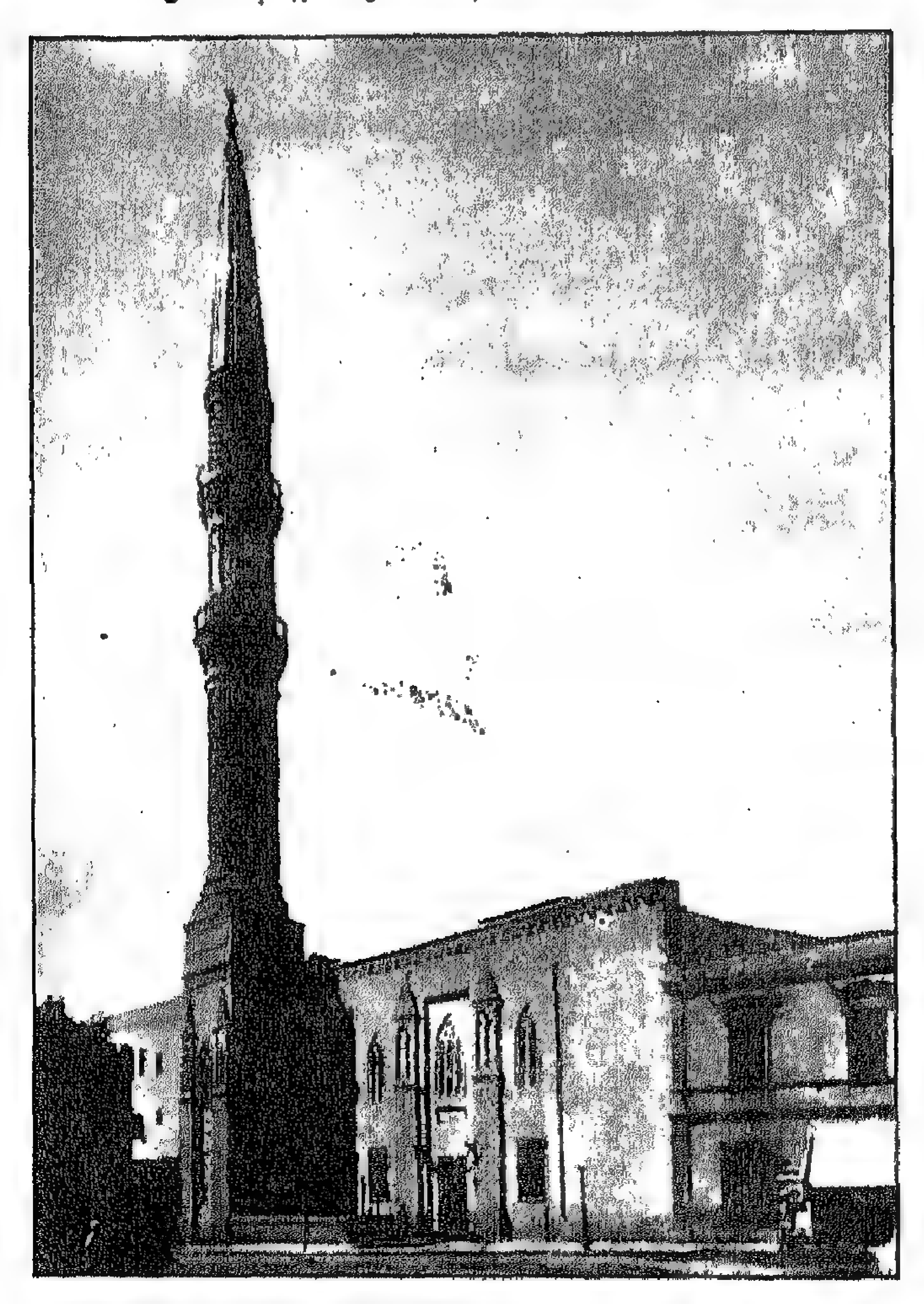
كما ازدهت الفنون الموسيقية بأمثال : عبده الحامولى ، ومحمد عثمان ، والشنتورى ، والعقاد ، والليثى ، والجمركشى ، والمسلوب ، والسيدة ألمظ وغيرهم .

أفراح الأنجال

وكان أكبر ما عرف فى عصر إسماعيل حفلتان : الأولى افتتاح قناة السويس ، التى كانت الأولوية فيها للفنون الجميلة الغربية ، مبالغة فى تكريم الضيوف . أما الثانية



لـوحـة (٣٥)
الكتبخانة ـ دار الكتب الخديوية ـ بباب الخلق



لـوحـة (٣٦)
المشهد الحسينى الذى شيده اسماعيل ، ويلاحظ التطور الهائل حالياً عقب عمليات التوسعة والتجديد التى شملت المسجد والساحة الخارجية والمنطقة المحيطة به .

فهى أفراح الأنجال ، ولياليها الباهرة فى القاهرة ، فقد عم الفرح المدينة كلها ، وتجلى البذخ فى أجلى مظاهره ، وكانت أرض حى المنيرة القاصرة يومئذ على (قشلاق) حرس القصر العالى وحديقته ـ مسرحا لهذه الأفراح ، ضربت فيها السرادقات ، وأقيم السامر والزينات ، والفوانيس والثريات . وأقيمت مسارح عالية على بوابة القصر العالى ، وسور حديقته للموسيقى .

وخصصت ليالى الفرح للمغنين ، والطوائف من أصحاب الألعاب ، فلم تبق طائفة منها إلا أصابت حظها ، وأغدق عليها إسماعيل عطاياه ، فضلاً عن الحسنات، والأطعمة التى تقدّم فى كل يوم .

وقد تنافس أمراء البلد وذواته وكبراؤه وأعيانه ، فى تقديم الهدايا الثمينة ، وكان الطرب طوال ليالى أفراح الأنجال ، يعم كل مكان ، ولم تر القاهرة فى ماضيها ، شبيها لتلك الأفراح ، والليالى الملاح ، وسبحان من له الدوام !

السرايات الملكية بالقاهرة

جرت عادة الملوك والسلاطين أن يشيدوا لأنفسهم القصور الفخمة لتكون مقرًا لملكهم وإقامتهم، وبعض هذه القصور يشيد على حساب الدولة، والبعض يشيد من المال الخاص للملوك، وهى فى كلتا الحالتين تعد من المنشآت العامة .

أول من شيد لنفسه قصراً من ولاة المسلمين، الذين تعاقبوا على حكم مصر منذ الفتح الإسلامى، كان «عبد العزيز بن مروان» الذى أنشأ عام ٨٠ هـ قصره الذى كان يعرف بـ «المدينة» لضخامته واتساع أرجائه، وتبعه من خلفه من الولاة فى عصور الدول : العباسية والأموية والفاطمية، حتى جاء صلاح الدين فشيد «القلعة» واتخذها مقراً لحكمه وإقامته . . وظلت كذلك حتى عصر سلاطين المماليك، إلى أن ولى محمد على باشا فأنشأ بها «قصر الجوهرة» ودار «مجلس الأحكام» وكان قد سكن لفترة قصر «محمد بك الألفى» على ضفاف الأزبكية وأُطلق عليه «قصر الباشا» وكان نابليون قد اتخذه مقرًا لإقامته ولقيادة الحملة .

قصر الجوهرة :

شُيد هذا القصر عام ١٨١٢، فوق مجموعة من القلاع القديمة داخل أسوار القلعة، وأصبح هذا القصر مقراً للحكم، يعقد فيه مجلس الوالى، وبه تتم مراسم استقبال السفراء، وقد تم تجديد هذا القصر فى عهد الملك فاروق . أنظر لوحة (٣٧)

قصور الحرملك :

ثلاثة قصور أمر محمد على باشا ببنائها عام ١٨٢٦، وخصصها للحريم، وتشغل الضلع البحرى الغربى للقلعة، وتشرف على جبل المقطم والحطابة ومدخل القلعة، وقد بدأ تشييد هذه القصور الثلاثة بالقصر الأوسط ثم القصرين الشرقى والغربى،



لـوحـة (٣٧)
قصر الجوهرة وقصور الحريم التى تعرف اليوم بالمتحف الحربى القومى بالقلعة

يحيط بها جميعاً سوز واحد ، وأكبرها القصر الشرقى ويعرف أيضاً بـ «قصر الأيتام» ويتوصل إليه من باب معقود بالواجهة القبلية ، مكسو بالرخام الأبيض المزخرف ، تعلوه لوحة تذكارية من الرخام ، منقوش عليها كتابات بالتركية ، جاء فيها : « قد أنشأ ذلك الحاكم العالى الشأن قصراً جديداً كتحفة . هو قصر كالجنة ، ياله من قصر بديع رائع» وأجمل القاعات هى قاعة محمد على أو قاعة الفسقية ، وبها أربعة إيوانات يتصدرها سلسبيل رخامى ، يضم أعمدة رخامية رشيقة بزخارف بارزة على هيئة طيور، تخرج من أفواهها مياه تصب فى أحواض متدرجة تنساب فى قناة الفسقية بوسط القاعة ، وقد نقشت الجدران برسوم ملونة تمثل جواسق وخمائل ومناظر طبيعية ، والسلم المزدوج يؤدى إلى قاعة علوية كبيرة بها أربعة إيوانات ، تتفرع منها عدة حجرات وممرات إلى باقى أجزاء القصر ، وقد زينت هذه القاعة بحليات على هيئة عقود محمولة على أعمدة رخامية رشيقة ، والسقف يزدان بجدائل نباتية وزهور تنوعت أشكالها .

والقصر الأوسط ، الدور الأرضى منه عبارة عن قاعة كبيرة ، بكل ركن منها حجرتان ، احتفظت جميع أسقفها بالنقوش الرائعة المتنوعة بين مسدسات ومربعات وجدائل انتشرت بها الزهور ، وحمام عبارة عن طرقة مستطيلة مغطاة بسقف محلى بالزجاج الملون ، يليه باب يؤدى إلى حجرة مقسمة إلى إيوانين بينهما درقاعة ، وسلم مزدوج محمول على أعمدة رخامية ضخمة ، يؤدى إلى قاعة كبيرة بها أربعة إيوانات ذات أعمدة قواعدها مطعمة بالرخام الأحمر وتقاسيم زخرفية نباتية .

ونصل إلى القصر الغربى من باب فى السور القبلى ، يقودنا إلى فناء مكشوف تشرف عليه واجهة القصر ، ويتوسطها باب يؤدى إلى القاعة الكبرى ، وقد طرأت تغيرات جسيمة على هذا القصر أفقدته جميع نقوشه الجدارية ، وهذه القصور الثلاثة فى مجموعها هى ما يعرف الآن بـ « المتحف الحربى القومى» والذى يعد فى مقدمة المتاحف الحربية العالمية من حيث ثراء المجموعات وقيمة المبانى التاريخية وموقعها بقلعة صلاح الدين .

قصر شبرا :

شيده محمد على باشا عام ١٨٠٨ ، وأطلق عليه قصر «شبرا الخيمة» وفتح شارع

شبرا ليكون طريقًا يصل القاهرة بقصره ، وانتشرت على جانبيه أشجار الجميز والأكاسيا ، ثم انتشرت القصور والحدائق على جانبى «سكة شبرا» حتى أطلق على هذه المنطقة «فردوس القاهرة» . . كما شيد الباشا شمالى سكة شبرا قصرًا لابنته زينب هانم وقصر آخر لنجله حليم باشا ، وفى قصر شبرا ولد حفيده عباس حلمى الأول عام ١٨١٣ ، وكانت به جبلاية بوسطها جوسق الفسقية ، وهو عبارة عن بناء مستطيل تتوسطه بحيرة من الرخام النادر ، فى القلب منها جزيرة صغيرة تحملها تماثيل من التماسيح ، ويحيط بالبحيرة أعمدة رشيقة من الرخام ، وفى الأركان الأربعة ، تماثيل رخامية لأسود رابضة يخرج الماء من أفواهها على قنوات ، وتشير بعض المصادر إلى أن مسيو دروفتى قنصل عام فرنسا بمصر هو الذى قام بتصميم هذا الجوسق والبحيرة !

القصر العالى :

موقع هذه السراى هو ما يعرف الآن بحى «جاردن ستى» وهذه المنطقة كانت تعرف بـ «بستان الخشاب» أدخلها محمد على فى أملاك ولده ابراهيم باشا ، وأقيمت بها ثكنات للجنود ، وعقب عودة إبراهيم باشا من فتوح الشام ، أمر بتمهيد أرض هذه المنطقة ، ثم شيد سراى القصر العالى ، وفى واقع الأمر ، كان هذا القصر قصرين يجمعهما سور واحد ، القصر الجنوبى خصصه لزوجه الأميرة خوشيار هانم والدة إسماعيل ، والقصر الشمالى خصص لزوجه الثانية الأميرة شيوه كار قادين ، وقد سكن إسماعيل باشا هذه السراى ، وبها ولد الخديو توفيق فى ٣٠ إبريل ١٨٥٢ ، وفيه تمت مراسم «أفراح الأنجال » التاريخية ، ثم آلت السراى إلى الدائرة السنية ، فباعته سنة ١٩٠٦ بثلاثة أرباع مليون جنيه ! . . إلى شركة «شارل باكوس» ونقلت واجهة القصر بالكامل إلى حوش عائلة الوقاد بقرافة المماليك ، وقامت هذه الشركة بهدمه وبيع أنقاضه وأثاثه الفاخر وتحفه الثمينة وأشجار حدائقه النادرة إلى كبار الأعيان !

سراى القبة :

شيدها إبراهيم باشا ، بالضاحية التى نسب اسمها إلى قبة الأمير يشبك بن المهدى الدوادار ، الذى تولى الدوادارية فى عهد السلطان الأشرف قايتباى . والسراى على

شكل مستطيل تقريباً وتحتل المبانى نحو ٧٠ فدانا ، وتشمل بلوكات الحرملك والسلاملك وجناح الملك ومكتبه الخاص وقاعة الاستقبال الرئيسية ومكاتب التشريفة ، ويبلغ طول الضلع الجنوبى المطل على الميدان نحو ٤٠٠ متر ، والضلع الشرقى المطل على شارع ترعة الجبل يبلغ نحو ١٨٠٠ متر ، نفس طول الضلع الغربى المطل على شارع المطرية ، والضلع الشمالى المطل على شارع الأمير عبد القادر يبلغ ٤٥٠ مترا ، ويبلغ طول السور المحيط بالسراى والحدائق نحو ٤٤٥٠ مترا ، وارتفاعه ستة أمتار ، وقد أقيمت البوابة الضخمة المفتوحة على الميدان عام ١٩٣٠ فى عهد الملك فؤاد، ومساحة حدائق ومتنزهات السراى نحو ١٢٥ فدانا ، وقد قام الخديو إسماعيل بتجديده عام ١٨٦٩ ، وخصصه لنجله توفيق باشا ، وبهذه السراى ولد الخديو عباس حلمى الثانى عام ١٨٧٤ ثم الأمير محمد على توفيق عام ١٨٧٥ . أنظر لوحة (٣٨).

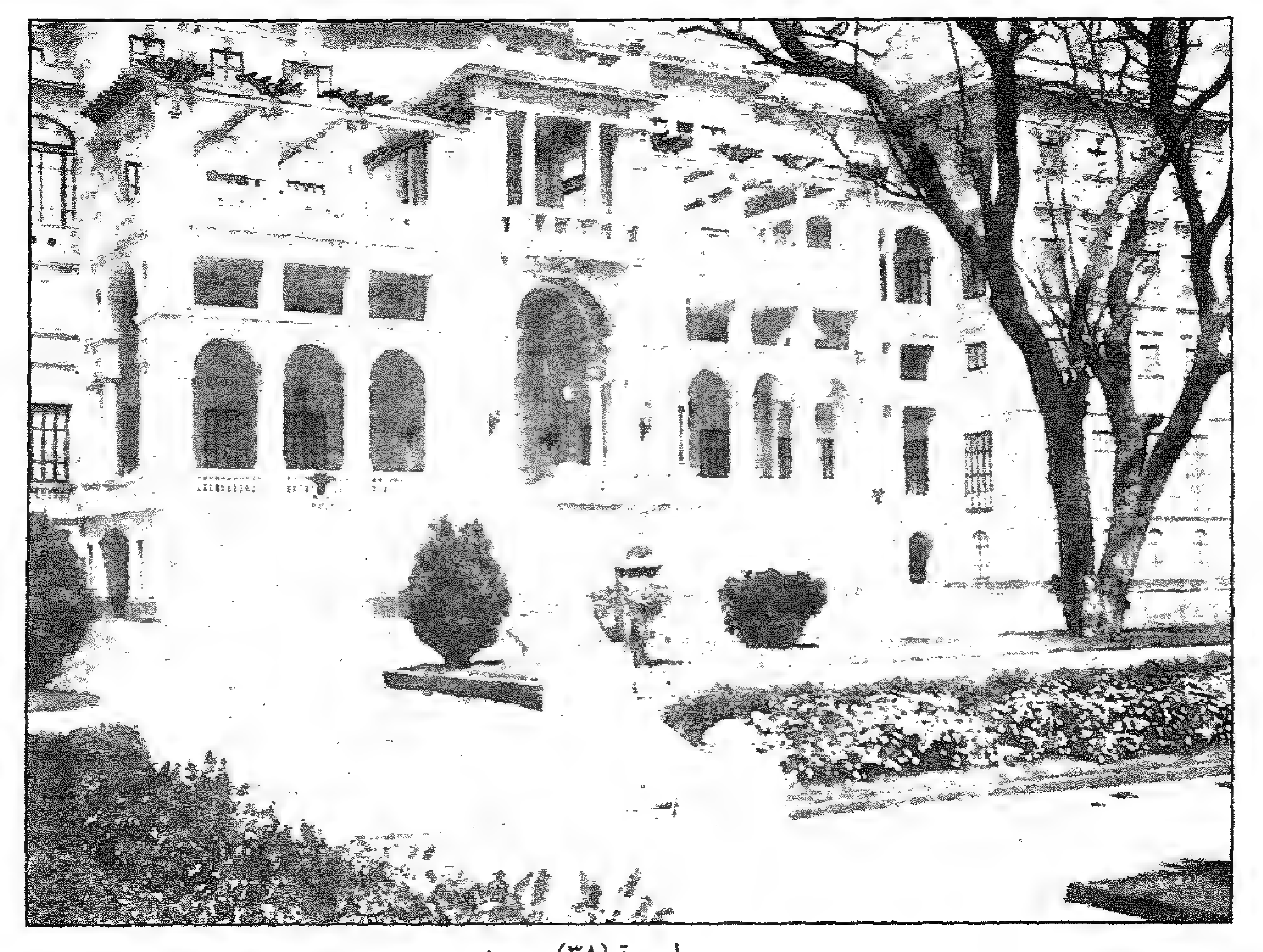
سرايات عباس الأول وسعيد باشا :

شيد عباس الأول عام ١٨٤٩ «سراى الخرنفش» وأطلق عليها «الإلهامية» نسبة إلى ولده الأمير إبراهيم إلهامى ، وكانت قصراً فخماً تحيطه بساتين رائعة ، وقد آلت هذه السراى إلى أسرة البكرى نقيب الأشراف ، عوضًا عن قصرهم الذى هدم عند تنظيم منطقة الأزبكية فى عهد إسماعيل ، بحارة عبد الحق المتفرعة من شارع العشماوى ، ثم شيد عباس الأول «قصر الحصوة» بالعباسية .، محاطًا بثكنات الجيش ، وهذا القصر كانت تميزه كثرة النوافذ التى بلغت ٢٠٠٠ نافذة ، وقد أهدى إسماعيل باشا هذا القصر إلى والدته الأميرة خوشيار هانم ، كما شيد عباس أيضاً «سراى الحلمية» وتبعه عدد من الأمراء بتشييد القصور والبساتين فى تلك المنطقة . كذلك أنشأ سراى «العتبة الخضراء» التى جددها إسماعيل عام ١٨٧٤ وجعلها مقرًا لنظارة الخارجية ثم للمجلس المخصوص ونظارة الداخلية .

أما الخديو سعيد فقد شيد «قصر النزهة» بشبرا عام ١٨٥٨ . كما شيدت حرمه الأميرة انجوا هانم قصراً ومسجداً عام ١٨٦٥ بجزيرة بدران .

سرايات إسماعيل :

سراى الجيزة : فيما بين عامى ١٨٦٣ و ١٨٦٥ ، قامت شركة فرنسية بردم الجزء



لوحة (٣٨)
الواجهة الرئيسية لقصر القبة

المتخلف من تحويل مجرى النيل شرقًا ، فأنشأ إسماعيل باشا فى هذا الجزء ، بستانين الأورمان ، وسراى الجيزة ، التى كانت حدائقهما تمتد إلى موقع كوبرى عباس ، وفوق مساحة مقدارها ٥٠ فدانًا من بساتين السراى ، أقيمت حديقة الحيوان عام ١٨٩٠ ، وبالتحديد فى الجزء الذى كان يضم قصر الحرملك وقصر السلاملك وما يحيط بهما من بساتين لا مثيل لها ، فى هذه السراى ، مكثت مقتنيات متحف بولاق من كنوز مصر القديمة منذ عام ١٨٩١ حتى عام ١٩٠٢ وقد هدمت سراى الجيزة عام ١٩٠٣ ، وخصصت أرضها لمبانى مدرسة (كلية) الزراعة ومدرسة الطب البيطرى وبعض العمارات والمنازل ! . . وقد ولد الملك فؤاد بهذه السراى فى ٢٦ مارس ١٨٦٨ .أنظر لوحة (٣٩) .

سراى الإسماعيلية :

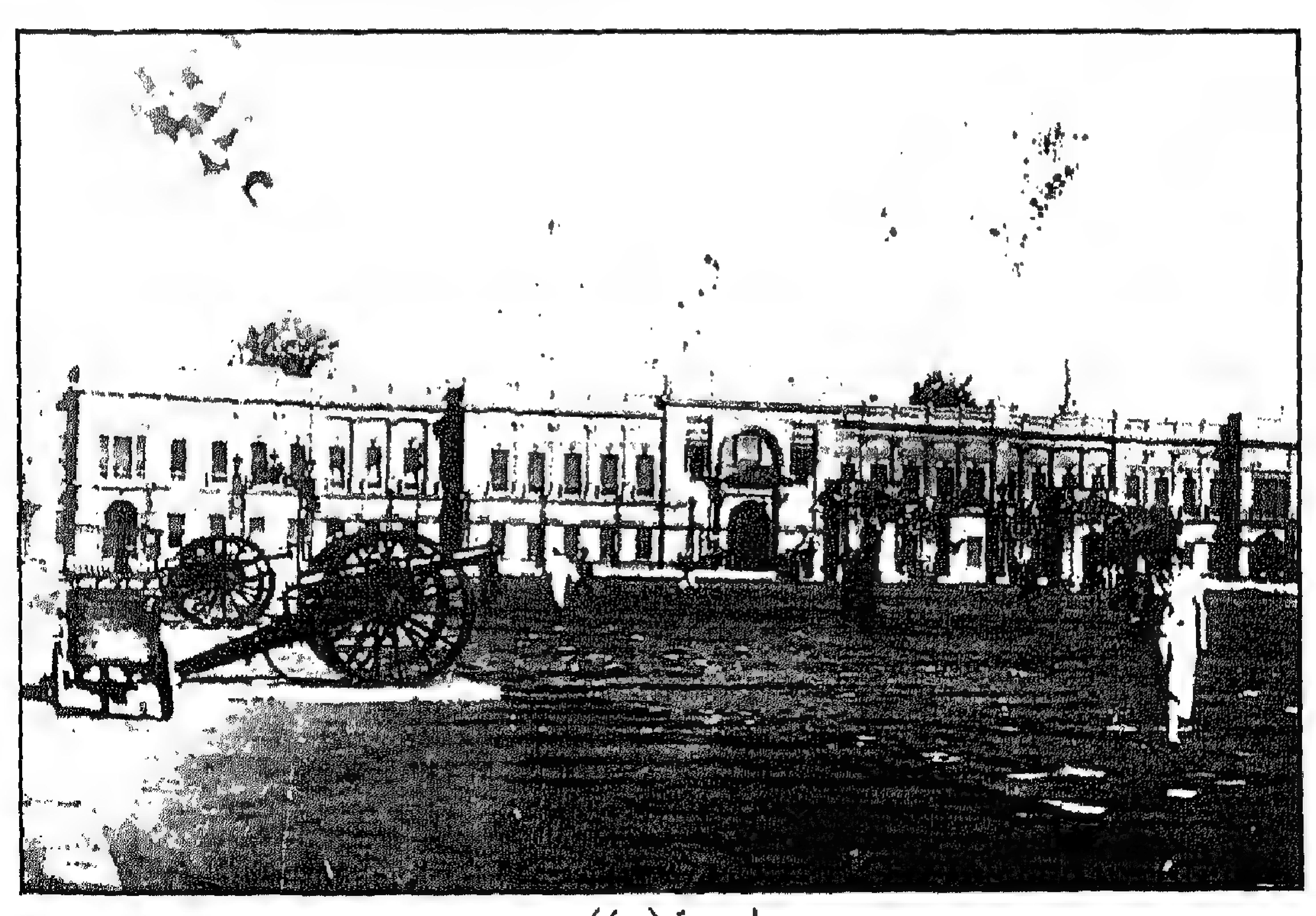
شيد اسماعيل باشا سراى « الإسماعيلية الصغرى» بجوار كوبرى قصر النيل ، ثم شرع فى بناء سراى الإسماعيلية الكبرى أو «السراى المستجدة» بمقتضى الأمر الصادر إلى نظارة المالية عام ١٨٧١ ، ومنطوقه : « قد اقتضت إرداتنا أن الأراضى والأملاك التى صار مشتراها بجهة جزيرة العبيط ، التى حدها البحرى طريق كوبرى قصر النيل ، والقبلى جنينة أخينا المرحوم أحمد باشا ، والشرقى طريق الشيخ يوسف الموصل للقصر العالى ، والغربى البحر الأعظم ، جميع ذلك يكتب به حجة شرعية باسم ٣ جى هانم حرمنا ، بما فى ذلك الأرض الجارى بها بناء السراى المستجدة هناك . . » وموقع السراى الآن : المنطقة التى تضم مبنى وزارة الخارجية وجامع عمر مكرم ومجمع المصالح الحكومية ، وكانت ممرات الحرملك مغطاة بالبلور الملون تحيطها مجموعات من الأشجار النادرة .

سراى عابدين : أنظر لوحة (٤٠)

كانت عناية الخديو إسماعيل ببناء القصور ، تفوق ما شيده أسلافه من الولاة والسلاطين ، وكان أعظمها روعة وجلالاً « سراى عابدين » التى شرع فى تشييدها عام ١٨٦٩ ، وانتهى منها عام ١٨٧٤ ، وقام بتصميمها المهندس « دى كوريل وروسو »

لـوحـة (٣٩)

الصورة الوحيدة لسراى الجيزة ـ عام ١٨٦٩ م ـ والتى ولد بها الملك فؤاد

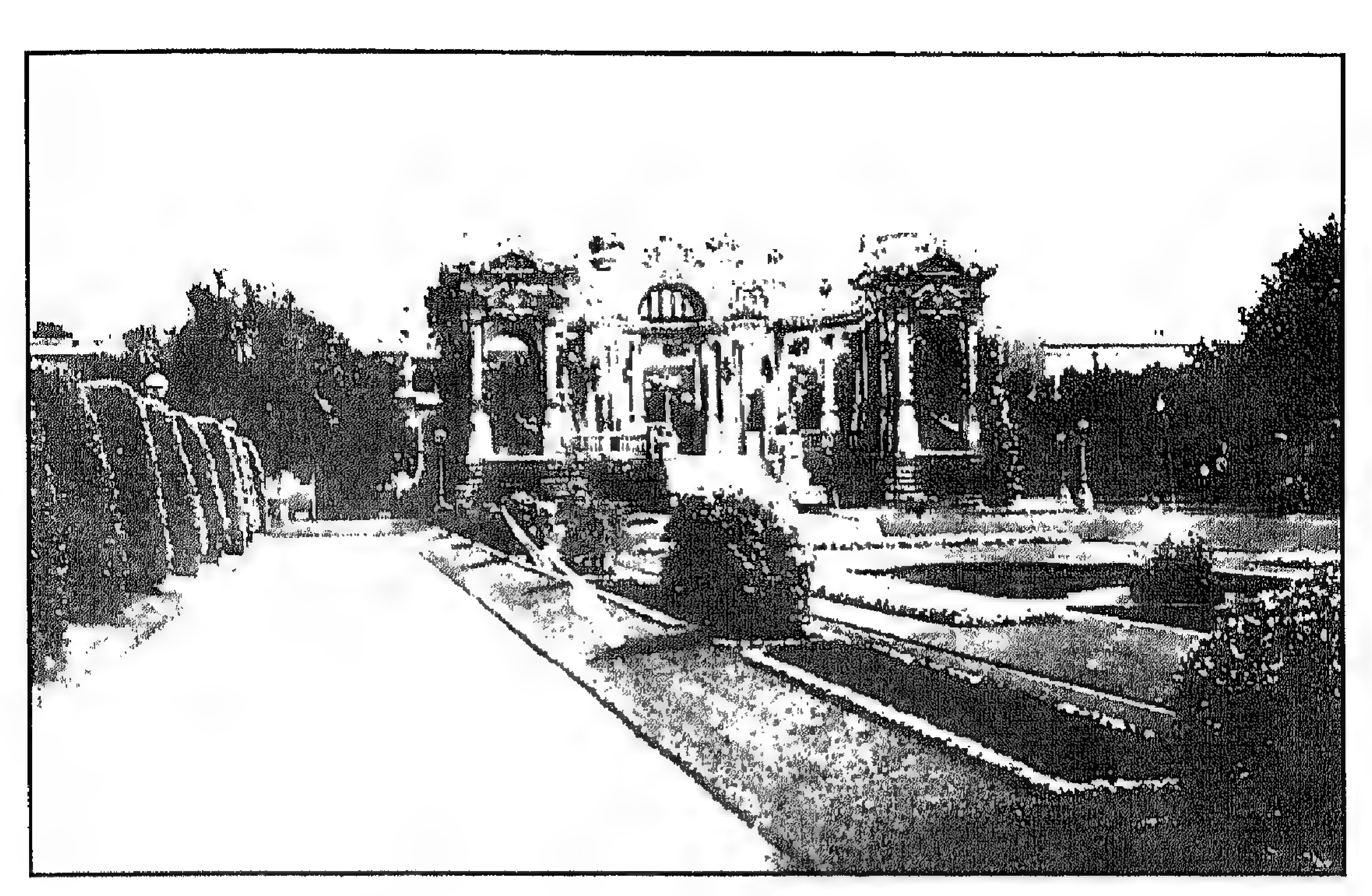


لـوحـة (٤٠)

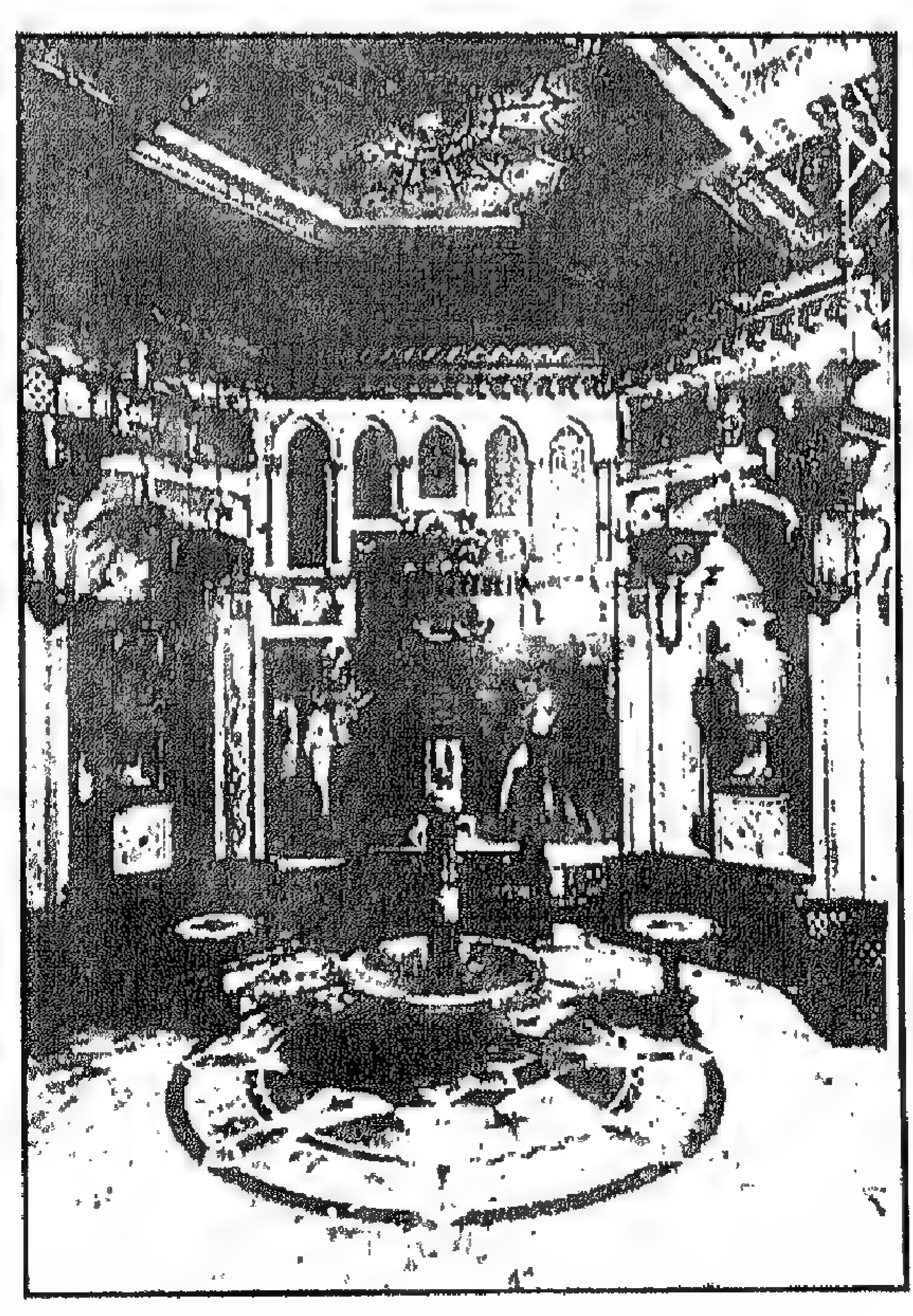
قصر عابدين كما كان يبدو عام ١٨٧٦ م

مع مجموعة من الفنانين الإيطاليين والفرنسين والأتراك والمصريين ، وتكلفت المبانى ٣٨ ألف جنيه إنجليزى ، وتكاليف الديكورات والزخارف والأثاث نحو ٧٠٠ ألف جنيه ، ومساحة السراى ٣٥ فداناً ، وقد شيدت فى موقع منزل عابدين بك أحد المماليك ، وضمت إليها مساحات كانت تشغلها بعض القصور ، والدور والحارات ، هدمت بعد مشتراها ، وأنشئت ثكنات للحرس على جانبى ميدان عابدين الذى بلغت مساحته ٩ أفدنة ، وفُتِحَ شارعا عابدين وعبد العزيز لتسهيل الوصول إلى السراى ، وتم تخطيط منطقة عابدين وردم ما بها من برك مثل : بركة الفراعين والفوالة والناصرية والسقايين ، حتى أصبحت من أجمل أخطاط القاهرة . أنظر لوحة (٤١) .

تتكون السراى من طابقين ، الأول يشمل مكاتب التشريفات والأمناء وضباط الحرس ومخازن الفضيات ، التى قدرت وحدها فى بداية ثورة يوليو بأربعة ملايين من الجنيهات ! ثم المتحف الحربى ، والطابق الثانى ، يشمل الأجنحة الخاصة بالملك والملكة والأميرات والوصيفات ومكتب الملك ومكتب الملكة ، وجناح لاستقبال الضيوف ، وقاعة العرش ، وبجوار الجناح الملكى ، مسرح السراى وقاعة المائدة الملكية الخاصة ، ثم قاعة مآدب المناسبات ، وقاعة محمد على الكبير ، وقاعة للتدخين تطل على حديقة رائعة تسمى « الحديقة الشتوية » يقابلها قاعة « الصالون الأبيض» وكانت تضم عدداً من اللوحات الزيتية لبعض الملوك والأمراء ، ثم « القاعة البيزنطية » الفخمة (أنظر لوحة (٤٢) وجدرانها من المرمر المحلى بالنقوش الذهبية ، أما « الجناح البلجيكى » فهو أفخم الأجنحة بالقصور الملكية عامة ، أنشىء فى عهد الملك فؤاد . وسبب التسمية أن ملك بلجيكا كان أول من نزل ضيفاً به ، وتكلف نحو ٤٠ ألف جنيه ! ويتألف هذا الجناح من غرفة للنوم ، ملحق بها حمام خاص ، وقاعة استقبال وغرفة مكتب وقاعة للتدخين ، وعقب الثورة ، ألحقت بهذا الجناح غرفة المكتب الخاصة بالملكة ناريمان ، وجدران الجناح من المرمر ، والأرضية مفروشة بالسجاد الكاشان والشينواه الفاخر ، والأثاث من طراز استيل ، مزين بتماثيل صغيرة من المرمر المطعم بالذهب وثريات من الكريستال النادر . وقد قام الملك فؤاد بتجديد هذه السراى بما يتناسب مع عنايته الخاصة بها أو أبهة ملكه وتطورات العصر ، وبها ولد الملك فاروق فى ١١ فبراير سنة ١٩٢٠ .



لـوحـة (٤١)
حدائق قصر عابدين



لـوحـة (٤٢)
القاعة البيزنطية الشهيرة بسراى عابدين

سراى الجزيرة :

شيدها المهندس النمساوى «يوليوس فرانس » على الطراز الأندلسى ، وانتهى من بنائها عام ١٨٦٩ ، فى نفس موقع إبراهيم باشا ، وصفها عبد الحميد بك نافع بأنها كانت من أعظم المبانى التى لم يشيد مثلها وما اشتملت عليه من بساتين وأشجار وأنهار وبرك وقناطر وجبلايات ، على مساحة ٦٠ فدانًا ، وقال عنها على باشا مبارك : « سراية للحريم وأخرى برسم سلاملك كبير ، خلاف سلاملك صغير إلى الغرب منه ، اجتهد فرانس باشا فى تشبيهها بالمبانى العربية القديمة فى شكلها وزينتها ومفروشاتها ، وجعل فى خارج السلاملك الكبير برسم الزينة بلكونات وبواكى من الحديد جلبت من البلاد الإفرنجية ، وأحاط البستان بسور وجعل فيه محلات للحيوانات المتنوعة كالفيلة السباع والنمور والقردة والنسانيس وأنواع الطيور المجلوبة من بقاع الأرض ، وفرش مماشية بالرمل والزلط ووزع فيه فوانيس الغاز » . . أقامت به الامبراطورة أوجينى إبان الاحتفالات الأسطورية بافتتاح قناة السويس ، وكانت من أجمل ذكريات عمرها افى عام ١٨٧٩ ، اشترته شركة بهلر وحولته إلى فندق ، ثم آل إلى عائلة لطف الله اللبنانية وظل فى أملاكها حتى عام ١٩٦١ ، حيث حولته الحكومة إلى فندق « عمر الخيام » . . وفى نهاية السبعينيات ، أضافت شركة ماريوت عدة مبان على حدائق السراى ، بالإضافة إلى ما تبقى منها ، لتصبح الآن فندق ماريوت الجزيرة !

كذلك شيد الخديو إسماعيل عدداً آخر من القصور والسرايات ـ التى كانت أبرز سمات عصره ـ منها : قصر الزعفران (مقر إدارة جامعة عين شمس حالياً) (أنظر لوحة (٤٣). وسراى الوالدة باشا بحلوان ، وللأميرات بناته ، شيد سراى الأميرة توحيده هانم وموقعها الآن مديرية أمن القاهرة ومحكمة مصر ، وسراى أخرى بشارع الفلكى (وزارة الإنتاج الحربى) وسراى الأميرة جميلة هانم وموقعها الآن : وزارات التموين والإسكان والبحث العلمى ، وسراى الأميرة فائقة هانم ـ الإبنة المتبناه ـ وهى الآن (ديوان وزارة التعليم) .

وسراى الأميرة فاطمة هانم ، وكانت إلى الجنوب من سراى عابدين ، كما أهداها

قصر بولاق الدكرور (حاليًا المتحف الزراعى وديوان وزارة الزراعة) ثم سراى الأميرة زينب هانم وكانت فى موقع السفارة الأمريكية بجاردن سيتى .

قصر الطاهرة :

ما بين القبة وحى الزيتون ، شيده محمد طاهر باشا ـ أحد أفراد الأسرة المالكة ، ورئيس نادى السيارات الملكى ، ثم اشتراه الملك فاروق ، وضم إليه الأراضى الفضاء المحيطة به ، لتبلغ مساحته ثمانية أفدنة ، والقصر تحفة فى فن العمارة ، ويحتوى على مجموعات من التحف النادرة ، والحديقة آية من جمال الطبيعة ، تتوسطها نافورة يحيط بها تماثيل نحاسية للملائكة . وتماثيل أخرى تناثرت فى أرجاء الحديقة ، والمدخل عبارة عن سلمين دائرين فى ردهة ، يتوسطها تمثال لامرأة شد وثاقها إلى جذع شجرة ! . . عقب ثورة يوليو تحول إلى قصر للضيافة .



لوحة (٤٣)
قصر الزعفران ـ إدارة جامعة عين شمس حالياً

حدائق لها تاريخ !

للقاهرة الحديثة ، حدائق لها تاريخ رائع . . مسطور على جذوع أشجارها وممراتها وقنواتها ، وإن امتدت يد الزمان لتشوه بعضا من هذا التاريخ !

ولقد مر امتداد مدينة القاهرة ، خلال القرن الماضى ، بمراحل تطور الحدائق ـ كما يشير الباحث الفرنسى « جان آرنو » سواء كانت حدائق تحيط بالقصور أو مناطق مزروعة غابات أو مزارع للفاكهة والخضروات على أطراف المدينة ، أو الحدائق العامة والمتنزهات ، فالاشكال المختلفة لتداخل الحدائق والبساتين فى تكوين المدينة ، تمثل جانبًا هاماً فى الإحاطة بتطور القاهرة فى القرن التاسع عشر ، والنصف الأول من هذا القرن ، وفى تحديد عمليات الكثافة السكانية فى الحيز الحضرى .

حدائق شبرا :

كانت شبرا فيما مضى هى « فردوس القاهرة » كما وصفها الأديب الرحالة البريطانى «دوجلاس سلادين » فى منتصف القرن الماضى ، وأشاد بالقصور المشيدة على الطراز الإيطالى ، المحاطة بأندر النباتات والزهور وأشجار النخيل والبرتقال والموز ، وكانت المقر المفضل لمحمد على باشا . .

وتحت عنوان « ذكرى من شبرا » سجل الفرنسى : جيرار دى نيرفال انطباعاته عن قصر شبرا وحدائقه ، الذى « جعل منه محمد على : جنة الشرق » ! . .

وقد بلغت حدائق وبساتين شبرا من السحر والجمال حداً جعل الفنان الرحالة الفرنسى «مونتبار » يصفها بأنها : « شانزليزيه الشرق » !

وإذا اطلعنا على خريطة القاهرة عام ١٨٠٠ ، التى وضعها علماء الحملة الفرنسية ، سنجد أن منطقة شبرا كانت أرضاً زراعية بها كثير من البساتين وبعض المساكن المتناثرة

وأشجار الجميز بجزيرة بدران ، وعندما شيد محمد على قصر « شبرا الخيمة » تم تمهيد طريق تحفة أشجار الجميز والأكسيا ، أطلق عليه « سكة شبرا » وافتتح عام ١٨٠٨ ، وفى الفترة من عام ١٨٣٠ إلى عام ١٨٣٥ ، لوحظ انتشار كبير للقصور والحدائق على جانبى شارع شبرا ، رغبة من الأمراء فى الاقتداء بالوالى . . والالتفاف حوله ! وكانت حدائق شبرا موضع اهتمام وفقرة أساسية فى برنامج زيارات الأوروبيين ، والرحالة منهم خاصة ، وكم أبدعوا فى وصف تلك الحدائق ، والعربات الفخمة التى تجرها الجياد المجرية المطهمة ، تحمل أفراد الأسرة العلوية ، والأمراء وكبار الأعيان ، يتقدمها قمشجية (سواس) بستراتهم المزركشة يفسحون لهم الطريق ، بينما النسيم يتضوع برائحة أزهار البرتقال والياسمين والتمر حنة !

حدائق إبراهيم باشا بالروضة :

بجزيرة الروضة ، شيد القائد إبراهيم بن محمد على ، حديقة على مساحة أربعين فدانًا، قسمت إلى قسمين ، الأول نسق على الطراز الإنجليزى ، والثانى على الطراز الفرنسى ، وكانت تضم مجموعات من النباتات والأشجار الأوروبية والهندية والأمريكية النادرة ، وقد شيد الأمير « محمد على توفيق » على جزء منها (نحو ١٥ فدانا) السراى الشهيرة التى تعرف الآن بـ « متحف قصر المنيل » . .

وجزيرة الروضة فى زمن الفتح الإسلامى ، كانت تعرف بـ « الجزيرة » و « جزيرة مصر الفسطاط » ومع مطلع القرن السادس الهجرى ، أنشأ بها الوزير الأفضل بن بدر الجمالى « بستان الروضة » فصارت تعرف بجزيرة الروضة ، وسماها الإدريسى صاحب : نزهة المشتاق « دار المقياس » وأقام بها بعض المتنزهات المحاطة بالبساتين وصفت بـ «جنات الدنيا » !

وهو فى طريقة إلى دار المقياس ، حدثنا « جومار » أحد علماء بونابرت ، عن طريق طويل يبلغ ١٢٠٠ متر على جانبيه مجموعات من أشجار الجميز الجميلة و « بالتقدم جهة الجنوب ، تصل إلى بستان المقياس ، حيث كثرة من أشجار البرتقال والليمون المورقة والمزهرة دائماً ، جعلت من هذا المكان متنزهاً يعبق بأزكى العطور ، بينما آلاف العصافير تغرد ... لكنها تفتقد إلى الممرات فتبدو أشبه بالغابات الكثيفة» .

حديقة الأزبكية :

إذا كان حى الحلمية الجديدة قد حل محل عدد كبير من الحدائق والقصور ، التى شيدت أصلاً على «بركة الفيل » القديمة ، فإن حديقة الأزبكية والمنطقة المحيطة بها ، قد شيدت على بركة الأزبكية التى ردمت عام ١٨٦٤ ، وكانت مساحتها ٦٠ فداناً ، وتنسب إلى الأمير : سيف الدين أزبك بن ططخ الأشرفى الظاهرى ، وقد أشار « الجبرتى » إلى شهرة الأزبكية كمركز للتنزه والملذات والمتع الليلية فى زمن الفيضان ، كما أنها كانت منطقة جذب للطبقة البورجوازية من الأمراء والبكوات وكبار التجار والأعيان ، وقد أبدع المؤرخون والرحالة العرب والأوروبيون والشعراء فى وصف بركة الأزبكية ، خاصة فى احتفالات « كسر الخليج » .

وقد كلف الخديو إسماعيل المهندس الفرنسى « باريل ديشان» الذى كان مسئولاً عن بساتين باريس ، بتصميم وتنفيذ حديقة الأزبكية ، فشيدها على نمط حديقة «مونسو» و « ريفولى » بباريس ، على مساحة ٢٠ فدانًا ، وزودت بـ ٢٥٠٠ مصباح غاز ، وأقيم بها مسرح للعروض الكوميدية ، وبحيرة رائعة ، وجبلاية صناعية ، وممرات مظللة ، وجسور على بحيرات صغيرة وقنوات ، ومراكب للنزهة تسير بالبدال ، كما كانت مزودة بالحوانيت ومنصة لبيع الدخان ومعمل تصوير ، ومطاعم ومقاه أوربية وشرقية ، وغرس بها مجموعات من أندر أنواع الأشجار ، التى استوردها باريل بك من أوروبا والهند وأفريقيا والبرازيل واستراليا ، وبعض من هذه الأشجار النادرة موجود حالياً بحديقة الأسماك بالزمالك .

وعنها تقول د . نعمات أحمد فؤاد « . . كانت حديقة الأزبكية ـ كما تحكى جدتى ـ فى وسطها فسقيات تتناثر حولها المصابيح ، وبها الجبلاية على أبدع طراز وتخوت الطرب ، وكانت الكراسى تؤجر بثمن زهيد لعشاقه ، فلما شبت ثورة ١٩١٩ ، كانت حديقة الأزبكية مسرحاً للمقاومة السياسة والاجتماعية منها . . وبالقرب من الأزبكية ، كانت حديقة « روستى » التى أقيم محلها حى تجارى عام ١٨٩٠ .

حدائق الأورمان :

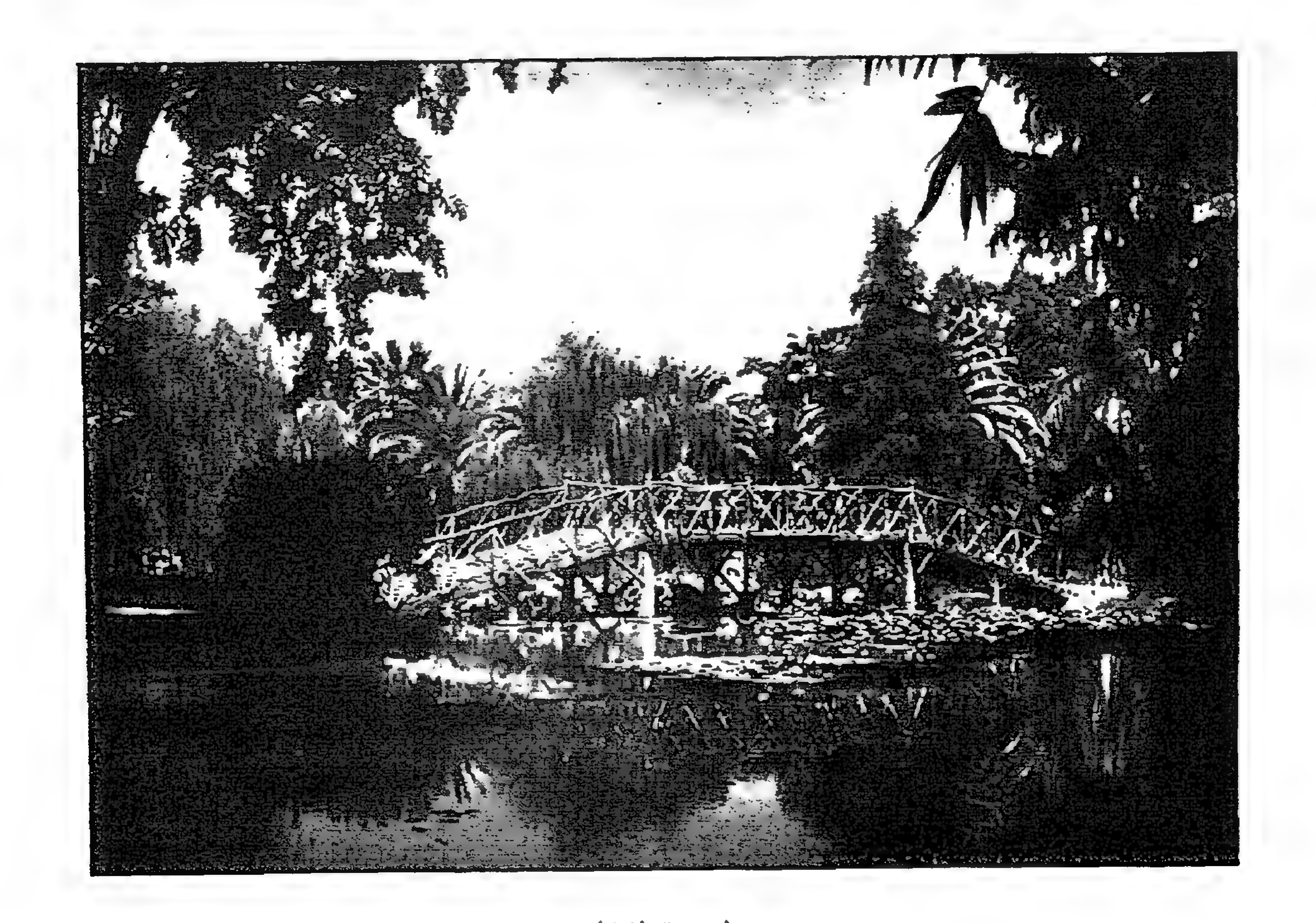
فيما بين عامى ١٨٦٣ و ١٨٦٥ ، قامت شركة فرنسية بردم الجزء المتخلف من

تحويل مجرى النيل شرقًا ، وأنشأ إسماعيل باشا فى هذا الجزء : بساتين الأورمان (الغابة) وسراى الجيزة التى كانت حدائقها تمتد إلى موقع كوبرى عباس ، فكانت الأورمان من أعظم المشروعات التى اضطلع بتنفيذها باريل بك ، على مساحة ٤٦٥ فداناً ، وغرس بها مجموعات من الأشجار النادرة المستوردة من أوروبا والهند والصين والمناطق الاستوائية ، بعد أن تم تغطية الأراضى بطمى النيل بارتفاع مترين ، وكان الخديو قد أمر بمد خط سكة حديدية خاصة لضمان سرعة إنجاز هذا المشروع ، فكانت من أجمل المتنزهات ، بأشجارها وأحراشها وأزهارها وبحيراتها وتلالها ونافوراتها وجبلاياتها وأنوارها الغازية ، لتفوق فى بهجتها حدائق الأزبكية . أنظر لوحة (٤٤) .

فى ٧ فبراير سنة ١٩٢٨ ، وضع حجر الأساس للجامعة المصرية (فؤاد الأول ـ القاهرة) التى خصص لها نحو ٩٠ فدانا من بساتين الأورمان ، ثم اقتُطِعَ جزء طولى لشق شارع الجامعة ، ليفصل بينها وبين حديقة الحيوان ، وكان للبرنس حسين كامل (السلطان) قصر على جزء منها كما اقتطع جزء لبناء مصلحة المساحة ، وآخر لتشييد مبنى مديرية أمن الجيزة .

حديقة الحيوان : أنظر لوحة (٤٥)

فى عام ١٨٩٠ ، خصصت مساحة ٥٠ فداناً من بستان سراى الجيزة ، لإقامة حديقة الحيوان ، التى أصبحت فى طليعة معارض الحيوان والطيور فى العالم ، وفى سراى الجيزة هذه ، مكثت مقتنيات متحف بولاق من عام ١٨٩١ حتى عام ١٩٠٢ ، عندما انتقلت إلى المتحف المصرى ، وقد هدمت السراى عام ١٩٠٣ ، وخصصت أرضها لمبانى مدرسة (كلية) الزراعة ومدرسة الطب البيطرى ، والمساحة التى خصصت لحديقة الحيوان ، شملت حديقة الفاكهة وحديقة قصر الحريم والسلاملك ، ثم أضيف إليها جزء من حدئق الأورمان ، وتضم الحديقة : متحفاً للحيوان : أنشىء عام ١٩٠٦ وممرات بالزلط الملون وأكشاك ملكية وكوبرى معلق وجبلاية للقرود وجبلاية أخرى ملحق بها بحيرة للبط . ومدخل هذه الجبلاية يزخر بمجموعة نادرة من نبات الصبار ، وعقب نقل تمثال « نهضة مصر » من ميدان باب الحديد ، إلى موقعه الحالى ، أطلق على الشارع الفاصل بين حديقتى الأورمان والحيوان : شارع نهضة مصر .



لـوحـة (٤٤)

مشهد من حديقة الأورمان : البحيرة والجسر الخشبى الشهير



لوحة (٤٥)
جانب من حديقة الحيوان فى بداية الخمسينيات ، حين كانت المشايات والطرقات بالحديقة تزدان
بحصى ملون فى أشكال نباتية رائعة

حديقة الأسماك :

عندما كلف إسماعيل باشا مهندس البلاط الخديوى « فرانس باشا » عام ١٨٦٣ ، بتشييد قصر بجزيرة الزمالك ، انتهى منه عام ١٨٦٨ ، فكانت السراى على غرار قصر الحمراء بغرناطة ،واستخدم كمقر لإقامة الامبراطورة أوجينى وحاشيتها خلال احتفالات افتتاح قناة السويس ، وقد أقيمت هذه السراى فى نفس موقع قصر إبراهيم باشا ، وقيل إن حدائق هذا القصر ـ لم يكن لها مثيل ـ بما اشتملت عليه من أشجار ونباتات نادرة وأنهار وبرك وقناطر وجبلايات ، على مساحة ٦٠ فدانًا .

بالقرب من سراى الجزيرة (الماريوت حاليا) شيد إسماعيل باشا « حديقة الأسماك » التى تطل واجهتها على نيل الزمالك ، بشارع الجبلاية ، نسبة إلى الاسم الذى اشتهرت به الحديقة نفسها فى ذلك العصر « حديقة الجبلاية » . . وخلال هذه الجبلاية الصناعية الرائعة ، شقت مغارات وممرات يسير فيها الزوار ، ووضعت بها صناديق زجاجية ، ما زالت تحوى مجموعات متنوعة من الأسماك النيلية والبحرية وأسماك الزينة ، تنعكس عليها أشعة الشمس من خلال فتحات علوية تضفى عليها جمالاً ، والحديقة من تصميم المهندسين الإيطاليين « كومباز ودويليو » اللذين اشتهرا بتصميم هذا النوع من الحدائق .

حديقة الحرية :

كانت تعرف بـ « حديقة النيل » فيما بين كوبرى قصر النيل وكوبرى الإنجليز (الجلاء) وتمتد إلى جنوب الجزيرة ، اقتطع منها جزء لنادى القاهرة الرياضى وأقيم بها «متحف مختار » الذى يضم وثائق ومتعلقات وروائع أبدعها العبقرى محمود مختار ، وكانت بالحديقة مدينة ملاه حتى بداية الثمانينيات ، وهى تواجه دار الأوبرا الجديدة حاليًا .

حديقة الفردوس :

أنشئت عام ١٩٣٥ ، واشتهرت بـ « حديقة الأندلس » . . وضع تصميمها المهندس محمود ذو الفقار ، والذى أطلق عليها اسم الفردوس هو العلامة : أحمد زكى

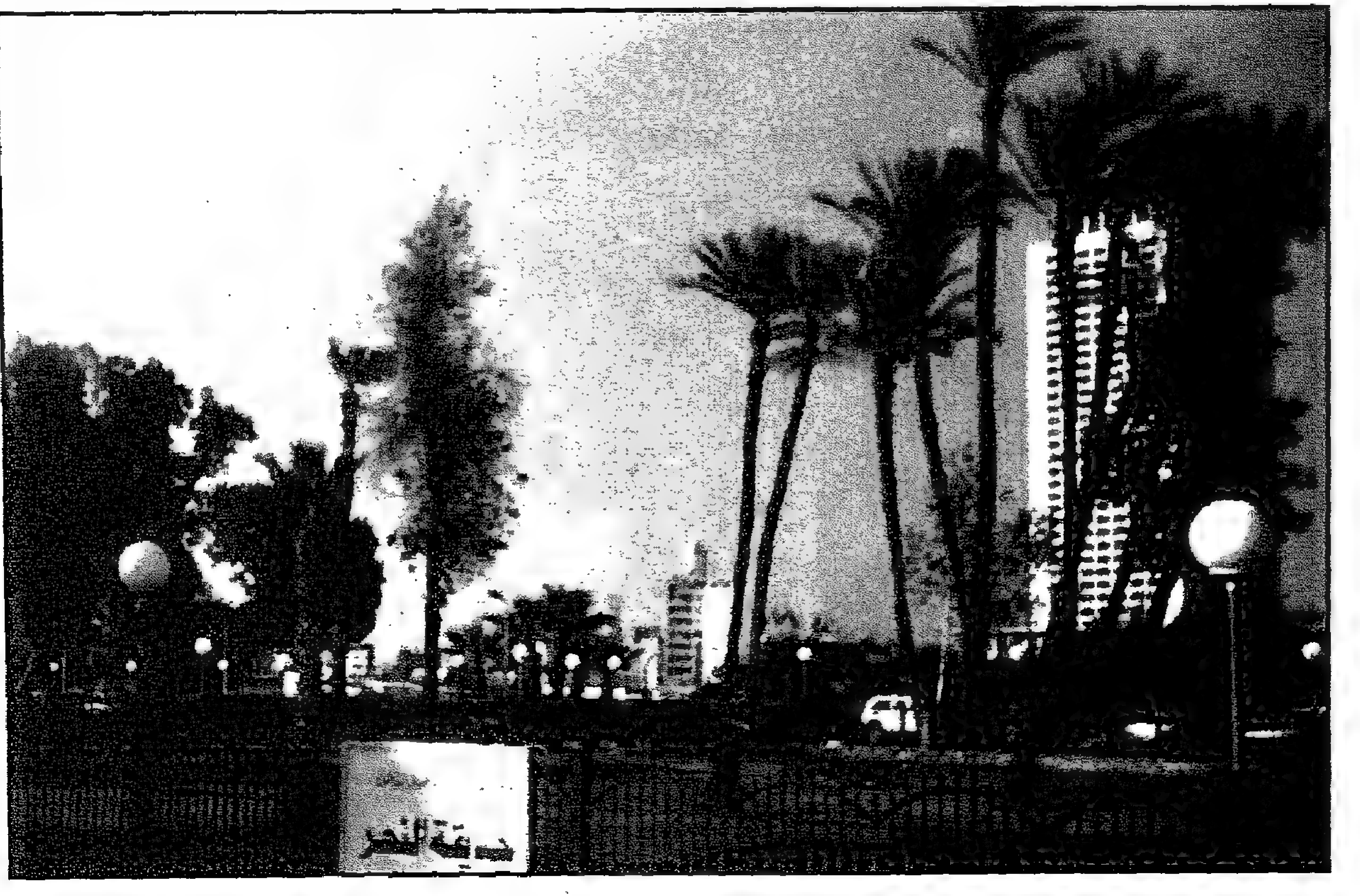
باشا ، وهى على يسار مدخل كوبرى قصر النيل من الناحية الغربية ، وهى من أجمل حدائق القاهرة ، تميزها فسقية كبيرة من الرخام الأبيض ، مثمنة الشكل بوسطها أربعة أعمدة متلاصقة كتب على تيجانها الآية : «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا خالدين فيها لا يبغون عنها حولا » . . وتحيط بهذه الفسقية ، المدرجات السندسية وصفوف من الأشجار التى تشكل سياجاً أخضر حولها .

حديقتا النهر والزهرية :

أنشئت فى أوائل العشرينيات من هذا القرن ، وهى عبارة عن شريط أخضر عرضه ٥٠ متراً ، يمتد من بعد حديقة الأندلس إلى كوبرى «أبو العلا» ، ويطلق عليها الحديقة النهرية ، وطريق النزهة ، وبها مطعم وكازينو ومسرح صيفى . . وإلى اليسار منها ، تمتد حديقة « الزهرية » من فندق البرج إلى نادى الجزيرة ، وجنوباً إلى برج القاهرة والنادى الأهلى ، وتضم مجموعات من الزهور النادرة وبعض الأشجار ، فى تشكيلات هى آية فى الجمال . أنظر لوحة (٤٦) .

جاردن سيتى :

هذه المنطقة وصفت يوماً بأنها « سلة أزهار انبثقت منها القصور الفخمة والدور البديعة » . . فعندما أسس الخديو إسماعيل « حى الإسماعيلية » فى الفترة من ١٨٦٧ إلى ١٨٧٤ ، احتل هذا الحى الجديد نفس الحيز الذى كانت تشغله حدائق (مزارع) إبراهيم باشا ، وأساسها بدورها ما كان يعرف بـ « بستان الخشاب » . . وقد أدخل محمد على هذه المنطقة فى أملاك ولده إبراهيم باشا ، وأقيمت بها ثكنات للجنود ، وعقب عودته من فتوح الشام ، أمر بتمهيد هذه الأرض ، ثم شيد سراى « القصر العالى » بحدائقه الشاسعة ، وفيه أقام إسماعيل باشا ، وبه ولد الخديو توفيق ، كما شهد احتفالات « أفراح الأنجال » الأسطورية ، بعد هدم السراى عام ١٩٠٦ ، قسمت أراضيها ، وبدأ ظهور القصور والفيلات الفاخرة وسط حدائق غناء مترامية الأطراف ، على شوارع ذات تصميم مستدير على الطراز الإنجليزى .



لوحة (٤٦)

حديقة النهر

حديقة العباسية :

أقيمت هذه الحديقة شرق مستشفى وكلية طب جامعة عين شمس ، وتمتد إلى نفق العباسية الخاص بقطارات السكك الحديدية ، وهى تحتل موقع مقابر الدمرداش والمحمدى بعد إزالتها .

حديقة صلاح الدين :

أقيمت عام ١٩٧٦ ، فى نفس موقع سجن مصر بميدان القلعة ، وامتدت إلى ضريح مصطفى كامل ، وأعيد تخطيط الميدان بما يتناسب مع جلال وروعة آثار مصر الإسلامية المحيطة به ، مع إضفاء لمسات جمالية ، أطلق عليه اسم « صلاح الدين » بعد أن اشتهر بعدة أسماء تاريخية : الرميلة ـ المنشية ـ قرة ميدان ـ محمد على ـ القلعة ، . كذلك أقيمت حديقة أثرية مفتوحة فى الساحة الخلفية لجامع السلطان حسن .

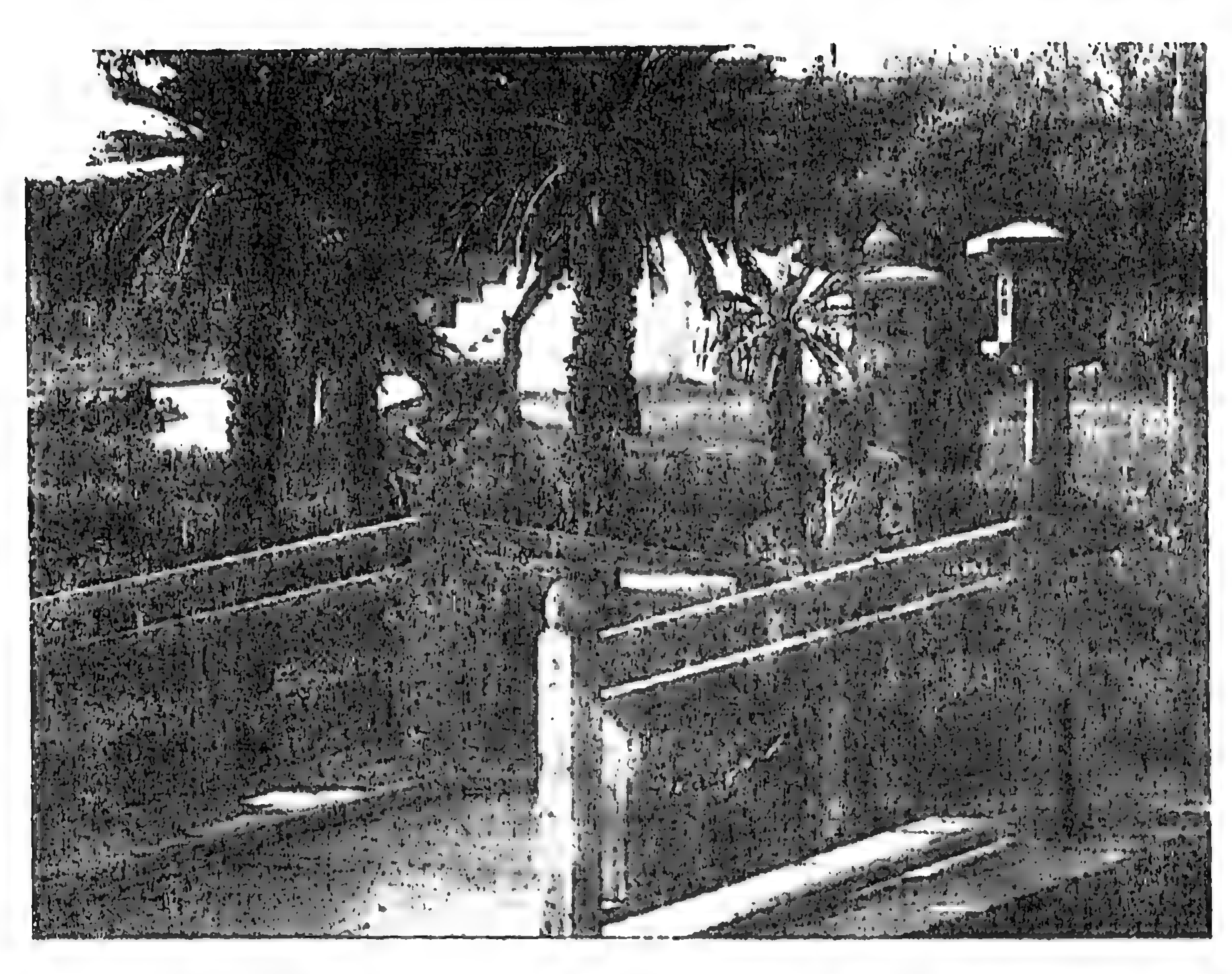
الحديقة اليابانية بحلوان : أنظر لوحة (٤٧)

بدأ الاهتمام بحلوان ـ فى العصر الحديث ـ بزيارة إسماعيل باشا لمنطقة العيون الكبريتية (المعدنية) عام ١٨٧١ ، حيث أمر بإنشاء حوض سعته ٥ آلاف متر مكعب وفندق للمسافرين، ودار للاستشفاء ، وتمهيد طريق من النيل إلى حلوان طوله ٤ كم ، ثم افتتح خط سكة حديد حلوان فى ٢١ يناير ١٨٧٧ ، وشيد قصر « الوالدة باشا » كما شيد الخديوى توفيق قصراً على مساحة ٢٠ ألف متر مربع واقتدى به عدد من الأمراء ، وبدأ العمران يزحف من شرق السكة الحديدية إلى الغرب نحو الحمامات .

ومن أشهر معالمها : الحديقة اليابانية ، التى اشتهرت بالأربعين تمثالاً لبوذا ، يتحلقون حول بحيرة كبيرة ، ومظلات على شكل الأكواخ اليابانية ، تنتظم على الممرات، وأشجار عتيقة وارفة ، كذلك «حديقة الحياة» التى أقيمت على مساحة أربعين فدانا ، تنتشر بها أحواض الزهور والنباتات النادرة ، وقنوات وبحيرات وجسور خشبية ، تشكل جميعها معزوفة للجمال على أوتار الطبيعة !

حدائق القناطر الخيرية :

راودت فكرة القناطر محمد على باشا ، إلى أن عهد إلى « موجيل بك » ببدء تنفيذ



لوحة (٤٧)
الحديقة اليابانية بحلوان

المشروع عام ١٨٤٢ ، وأتمها « محمد مظهر بك » عام ١٨٦١ ، وتولى على باشا مبارك نظارتها عام ١٨٦٨ ، إلى جانب إدارته لديوان الأشغال العمومية وديوان المدارس .
وحدائق القناطر أنشئت - فى تلك الفترة تقريبًا - مساحات شاسعة من المساحات الخضراء ، تتخللها أحواض للزهور والنباتات ، ومجموعات من أشجار النخيل النادرة، وتنتشر بها المشاتل الحكومية والخاصة ، وهى منطقة جذب لشباب المصريين ، لممارسة رياضة ركوب الدراجات والتنزه بعربات الحنطور وركوب الخيل بين المروج الخضراء ، والرحلات النيلية الجماعية فى المراكب ذات الأعلام والبالونات والألوان الزاهية .

الحديقة الدولية :

افتتحت فى مارس ١٩٨٧ بحى الزهور بمدينة نصر ، على مساحة ٥٥ فداناً ، يشارك فيها عدد من الدول بحدائق تحمل الطابع المميز لمثيلاتها فى تلك الدول ، وهى آية فى الفن والجمال والتأنق ، وتضم ثلاثة أكشاك لعزف الموسيقى ، وكافيتريا على مساحة ١٥٠٠م ، ومدينة للملاهى ، وحديقة صغرى للحيوانات ، ومسرح مكشوف ومسرح للعرائس ، واستراحة على شكل بيت ريفى « ركن الفيوم » . . ويضم جناح مصر ، حديقة نباتية بها نماذج لآثار مصر ونموذج لنهر النيل ، والسد العالى وخزان أسوان ، كما تضم الحديقة أحواضاً للزهور فى تشكيلات رائعة ، وبحيرة تسير فيها مراكب مخصصة للأطفال . .

كذلك أنشئت حديقة « دار العلوم » فى نفس الموقع القديم لكلية دار العلوم بحى المنيرة قبل انتقالها إلى داخل الحرم الجامعى ، وافتتحها كمال حسن على رئيس الوزراء آنذاك ، كذلك شيدت « حديقة الفسطاط » التى افتتحت عام ١٩٩٢ ، وتضم مدينة للملاهى ، وحديقة ألعاب للأطفال ، وسرحا مكشوفا وروابى خضراء تطل فى الخلفية على مشهد عام للقاهرة .

الفهـــرس

تصميم ورسوم : محمد حجي



القاهرة في عصر إسماعيل

و قد يختلف المؤرخون في إسماعيل باشا ، لكنهم يتفقون على عظمة شخصيته التي لم تعرف المستحيل .. و لا يمكن لجيل من الأجيال - خاصة جيل نهاية القرن العشرين - أن يدرك مقدار عظمة إسماعيل ، إلا إذا تصور مصر حين اعتلى إسماعيل باشا عرشها ، لكن التاريخ المنصف لا يملك إلا أن يؤدى واجب الحق ، إذا تحدث عن الذين بنوه ، و حددوا معالمه ، و كانت لهم الكلمة الأولى في صنع وتوجيه أحداثه ! وإذا كانت معالم تاريخ مصروآثار ملوكها ، منقوشة على جدران القاهرة : معابدها ، مقابرها ، أسوارها ، مساجدها،كنائسها، شوارعها ،خططها ..على كل منها صفحة من صفحات التاريخ ،لعهد من العهود، إلا أن " إسماعيل باشا " لم يترك هذا الأثر فحسب ،أو يدون صفحة..بل حفظ للعصور السالفة آثارها ورسم للأجيال خططا لمعالمها .

